دكتور يوسف القرضاوي

خطب الشيخ القرضاوي

إعداد

الشيخ محمد حوطر   الشيخ أكرم عبد الستار كساب

الجزء السابع

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعـة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

خطب الشيخ القرضاوي
(٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم سماحة الشيخ العلامة : يوسف القرضاوي

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد، والصلاة والسلام علي الرحمة المهداة للعالمين، والنعمة المسداة للمؤمنين، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد، وعلي آله وصحبه، ومن اتبعهم بإحسان إلي يوم الدين.

أما بعد . . .

فهذا هو الجزء السابع من ديوان خطبي، وهو يتميز بخصوصيتين عن غيره من الأجزاء الماضية:

أولاهما: أن معظم خطبه من (القديم) أي ليس من خطب مسجد عمر ابن الخطاب بالدوحة، ولا غيره من مساجد قطر. بل هي خطب قديمة جُلّها ألقي في مسجد (آل طه) بالمحلة الكبري، الذي بدأت الخطابة فيه وأنا طالب بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف؛ وكان ذلك سنة ١٩٥١ ، وظللت أعتلي منبره حتي صيف سنة ١٩٥٤م، حين تخطفتنا (كلاب الصيد) وألقت بنا في السجن الحربي، ولم أعد بعدها إلي هذا المسجد.

كنت ألقي خطبتي ارتجالا، كما هي عادتي منذ اعتليت المنبر، وأنا ابن سبعة عشر عاما في قريتي. وإلي اليوم. ولم يكن (التسجيل) قد عرف واشتهر في ذلك الوقت، فلا مطمع في أن توجد هذه الخطب مسجلة عن طريق الأجهزة المعروفة.

ولكن الله رزقني بـ (مسجل بشري) ممتاز، يسجل هذه الخطب بطريقته الخاصة، ويقدمها لي مكتوبة بعد ذلك. ذلكم هو الأخ الحبيب الأديب الشاعر

الداعية الموفق، ابن المحلة، وابن الأزهر، وابن الدعوة: الأستاذ: محمد أحمد حوطر، الذي كان طالبا في المعهد الديني الأزهري الثانوي بطنطا في ذلك الوقت.

وكان قد آلي علي نفسه أن يسجل هذه الخطب ويحفظها للمسلمين عامة، وللدعاة خاصة، حتي لا تضيع بعد إلقائها.

وكانت طريقته أن يحضر (كشكولا) وعدة أقلام من الرصاص، يبريها له زميل مرافق، وهو يكتب أول الآية، ولا يكملها، وكذلك الأحاديث، ونصوص الحكم والأشعار وغيرها. وهو يكتب بسرعة عجيبة، وبخط لا يستطيع غيره أن يقرأه، بل هو لا يستطيع أن يقرأه إذا تركها لليوم التالي، ولذلك يجتهد أن (يبيضها) في نفس اليوم، وهو يذكر الكلمات والعبارات.

كان قد تكّون من ذلك مجموعة من الخطب، اقترح عليّ بعض الأخوة أن أصدرها في ديوان سميته (نفحات الجمعة) ولكن الظروف الأمنية لم تسمح بصدوره.

وكنت أحسب أن هذه الخطب كلها قد ضاعت فيما ضاع من أدبي وشعري وكتاباتي، في أتون المحن المتلاحقة التي أصابت الإخوان المسلمين في مصر.

ولكن شاء الله تعالي أن تظهر أشياء كانت خافية عني، تائهة في تلال الأوراق المختلفة التي أُعاني من البحث فيها، وذلك حين انتقالي من مسكن إلي آخر بالدوحة. فقد عثر سكرتيري العلمي بالدوحة الأخ الشيخ أكرم عبد الستار كساب، وهو يفتش مع بعض مساعديه في أضابيري وأوراقي القديمة، علي مجموعة من الخطب القديمة، مكتوبة بخط الأخ الحبيب محمد حوطر، أتم الله عليه العافية، وعجل له الشفاء من مرضه الذي أقعده منذ سنوات.

وأضيف إلي هذه الخطب المكتوبة بخط حوطر - خطبة أخري، مكتوبة بخطي أذيعت من جامع الزمالك بالقاهرة ، الذي كنت أخطب فيه، أواخر سنة ١٩٥٦م وسنة ١٩٥٧ بعد العدوان الثلاثي علي مصر، وكانت إذاعة القاهرة تذيع

الخطبة من مسجد الزمالك كل عدة أشهر، وتطلب مني أن أكتبها، وأرسلها إليهم قبل أن تذاع، حتي يقرؤوها ويقرّوها. فوجدت هذه الخطبة من خطب الزمالك، وهي عن جهاد الجزائر أيام حرب التحرير الجزائرية المباركة، وقد أريتها للأخوة في الجزائر عندما زرتهم قريبا في (ملتقي الإمام البشير الإبراهيمي) فسروا بها كثيرا، وقالوا: كأنك كنت تعايش الجهاد الجزائري لحظة بلحظة، واستأذنوني في أن ينشروها.

ولقد قرأ الأخ أكرم وإخوانه هذه الخطب القديمة وأعجبوا بها أيما إعجاب، وقالوا: من يقرأ تلك الخطب منذ خمسين سنة أو أكثر لا يجدها تختلف كثيرا عن خطب اليوم، النهج هو النهج، والروح هي الروح، والأسلوب هو الأسلوب، وإن كانت خطب اليوم تمتاز بأفق أوسع، وعلم أغزر، وفكر أنضج، بحكم تراكم المعرفة والخبرة، وعمق التجربة، كما لوحظ أن الخطب القديمة كثيرا ما يغلب عليها حماس الشباب. ورأوا أن تضاف إلي الخطب المنشورة في الأجزاء السابقة لما لها من دلالة تاريخية.

والخصوصية الثانية لهذه المجموعة: أنها لم تحظ بإعداد الأخ الفاضل الدكتور خالد السعد الذي تولي إعداد خطب الأجزاء الماضية، جزاه الله خيرا. ولكن قام مقامه في هذا الجزء: ابننا المهذب، وتلميذنا النجيب، وأخونا الكريم: أكرم عبد الستار كساب، الذي علّق علي هذه المجموعة، ورقم آياتها، وخرّج أحاديثها، وأعدّها للنشر. فشكر الله له، وجزاه عني وعن المسلمين خيرا.

ولا سيما أني في تلك المرحلة من حياتي؛ لم أكن متمكنا من معرفة الحديث ونقده، من حيث التصحيح والتضعيف، وإنما اكتسبت هذه الخبرة بعد. ولذا وجد في هذه الخطب الحديث الضعيف والواهي.

وكان جلّ اعتمادي علي كتابين: الترغيب والترهيب للمنذري، قبل أن أنظر فيه بعد ذلك، وأحذف منه المنكر والواهي والضعيف، وأنتقي منه الصحيح والحسن، وأصدرت ذلك في (المنتقي من الترغيب والترهيب).

والكتاب الثاني، هو: أحاديث كتاب (الإحياء) للغزالي، قبل أن أنتبه إلي تخريج الحافظ العراقي لهذه الأحاديث انتباها كافيا.

وقد أكملنا هذا الجزء، باختيار ثمانية خطب من الخطب الحديثة، ليكتمل العدد عشرين، وقد التزمنا منذ بداية نشر الخطب: أن يكون كل جزء يشتمل علي عشرين خطبة.

وبهذا تميز هذا الجزء بالجمع بين يوسف القرضاوي ابن العشرين، ويوسف القرضاوي ابن السبعين.

أسأل الله تعالي أن ينفع بهذه الخطب قائلها، ومسجلها بقلمه، ومعدّها للنشر، وطابعها، وناشرها، وقارئها، وكل من أعان علي الانتفاع بها، ووفق الجميع لما يحب ويرضي.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الدوحة في: ١٦ جمادي الأولي ١٤٢٦ هـ

٢٣ يونيو ٢٠٠٥ م

الفقير إلي الله

يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالي من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك علي هذا الرسول الكريم، وارض اللهم عن آله وصحابته أجمعين.

أمـــا بـعـــــد :-

فقد كلفني فضيلة شيخنا العلاّمة يوسف القرضاوي أن أُشرف علي هذه المجموعة من الخطب وأغلبها من الخطب القديمة، التي كانت في طيّ النسيان، وكان الشيخ يعدها ضمن المفقود من تراثه – وما أكثره – وأصل العديد من هذه الخطب كان التلميذ النجيب، والصديق الحبيب للشيخ، الأستاذ: «محمد حوطر» قد قام بجمعها وتحريرها منذ قرابة نصف قرن.

ولما كانت العادة قد جرت علي أن يكتب الأخ الفاضل الدكتور: خالد السعد تقديماً لهذه الخطب، فقد استأذنت شيخنا أن أقوم بهذا التقديم، وبخاصة أن هذا التقديم هو جزء مما كتبته عن فضيلة الشيخ في كتابي «**المنهج الدعوي عند القرضاوي**» [1] وقد وافق الشيخ مشكورا علي هذا الطلب وإن تحفظ في أول الأمر.

مكانة الخطبة:

تعد الخطبة من أقدم الوسائل الدعوية وأنجحها، يأتي الناس لها طواعية مختارين، وقد اشتهر في القديم وفي الحديث خطباء بارعون، هزوا أعواد المنابر،

(١) وهو تحت الطبع وستقوم بطبعه مكتبة وهبة إن شاء الله.

فأطرقت لهم الرؤوس واشرأبت لهم الأعناق وسكنت لهم النفوس، وانقادت لهم الجوارح والأبدان.

ومن منا لا يذكر علي بن أبي طالب، والأحنف بن قيس، وطارق بن زياد، وابن أبيه، والحسن البصري، وابن الجوزي، وغيرهم رحمهم الله تعالي.

الشيخُ فارسٌ في هذا الميدان:

والشيخ القرضاوي حفظه الله فارس في هذا الميدان، منذ أن اعتلي المنبر وهو في العقد الثاني من عمره إلي وقتنا هذا، وهو في العقد الثامن من عمره - أطال الله في عمره - تسمعه فكأنما تسمع شابا لم يتجاوز الثلاثين أو الأربعين، كأنما هو أسد يزأر، أو سيل يزحف.

وتحسب حين تسمع القرضاوي أنه قد رضع حقا من أثداء الشريعة الغراء، وتضلع من صدر الملة السمحاء.

إن مما يمتاز به القرضاوي - أحسبه كذلك ولا أزكيه علي الله تعالي - أنه موصول بالله؛ فإذا تكلم فبتأييد من الله، لذا تراه يتحدث في أدق المعاني بكلمات تشعر أنها هادئة، لكنها والله رائعة، وبسيطة لكنها مؤثرة، وبريئة لكنها مجلجلة.

مؤهلات القرضاوي الخطابية:

وقد ساعد الشيخ علي ذلك: علمه الغزير، وثقافته الواسعة؛ الشرعية وغير الشرعية، وموضوعاته الغنية، ولغته الجميلة، وعرضه الرائع، ولهجته الصادقة، ولسانه الفصيح، وصوته القوي، وأسلوبه الرصين، وذاكرته القوية.

إنه إذا خطب يخيل إليك أنه ينتقي ألفاظه انتقاء، وكأن الكلمات بين يديه يأخذ منها ما يشاء ويدع ما يشاء، مما يزيده رباطة في جأشه، وقوة في قلبه، وثقة في نفسه.

وللشيخ قدرة غريبة في استحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية،

فضلاً عن أقوال العلماء، وحكم الحكماء، وأشعار السابقين، وتجارب اللاحقين.

وأعجب ما في خطب الشيخ : أنه يجمع بين فقه الفقيه، وبلاغة الأديب، وحرارة الداعية، وروح المربي، وأصالة العالم، ورواية المحدث، وحس المؤرخ، ودقة المناظر، وترتيب المحاضر، فتري كلماته كأنها كائن حي، كأنما هي طائر له أجنحة، أو إنسان له قلب يخفق، ولسان ينطق.

وعلي بلاغة الشيخ وأدبه، فإنك لا تري في خطبه سجعًا متكلفاً، ولا ألفاظًا غريبة، ولا جملاً غير مرتبطة، بل هي قطع من الأدب دونما تكلف أو نصب.

موضوعات الخطبة عند القرضاوي...

وخطب الشيخ ليست من الخطب الموسمية، التي لا تنفك عن مواسم العام؛ فخطبة عن الهجرة، وأخري عن المولد النبوي، وثالثة عن الإسراء والمعراج، وهكذا، لا؛ ولكن خطب الشيخ تراها خطباً تثبت العقيدة، وتصلح العبادة، وتقوّم الأخلاق، وتبين أسس التعامل بين الناس.

إنها خطب تمس الواقع في كل مجالاته : الفردية والأسرية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية والاقتصادية؛ فتعالج أمراضه، وتقوّم اعوجاجه، وتصحح أخطاءه، تشد علي يد التائب، وتأخذ بيد العاصي، وتوجه المخطئ، وتوقظ النائم، وتحرِّك الراكد، وتنبه الغافل، وترد الشارد، وتعلّم الجاهل،، وتهدي الحائر، وتبصر العمي، وتنفخ الروح في الجثث الهامدة.

إنها خطب : « تقدم الدين عقيدة سليمة، وعبادة خالصة، وأخلاقاً فاضلة، وآداباً سامية، وأعمالاً صالحة، وتشريعات عادلة، وعلوماً نافعة، وفنوناً راقية، وحضارة متوازنة » [١].

---

(١) انظر: خطب القرضاوى ج ١ ص ٩ .

وأبرز ما في خطب الشيخ أنه لا ينكفئ علي القديم دون أن يُعرِّج علي الجديد، بل هو دائم التجديد في خطبه، باحث عن مشاكل أمته، لينبه عليها، داعياً مستمعيه إلي مشاركة إخوانهم في مصائبهم، ومعايشتهم في مآسيهم، فتراه تارة يذكر بقضية فلسطين، وتارة بقضية الأفغان، وثالثة بالعراق، ورابعة بكشمير، وخامسة بتركيا، وسادسة وسابعة ... ثم يعود أدراجه ليعود إلي قضية فلسطين والأقصي من جديد.

والمتابع لخطب الشيخ القرضاوي يدرك أن الشيخ يختار خطبه بعناية ودقة، وخطب الشيخ ليست من الخطب النمطية المعروفة، لكنها خطب إن شئت سمها خطبًا سياسية اجتماعية اقتصادية أخلاقية عبادية عقدية تاريخية؛ إنها خطب تجمع بين الدين والدنيا، وتربط الدنيا بالآخرة، لكن الرائحة السياسية لا شك تفوح من هذه الخطب، لأن الشيخ إنما فهم الدين كذلك: عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملة، دينًا ودنيا، دعوة ودولة، وانظر عناوين هذه الخطب لتدرك المعني:

١ – زلزال مصر

٢ – مرض الإيدز.

٣ – توحيد العرب تحت راية الإسلام.

٤ – القمر الصناعي الإسرائيلي.

٥ – الذكري السنوية للانتفاضة.

٦ – قضية المرتد سلمان رشدي.

٧ – العدوان علي الكويت.

٨ – اتفاقية غزة وأريحا.

٩ – حقائق حول أزمة الخليج.

١٠ – مأساة المسلمين في البوسنة.

١١ – الصحوة الإسلامية بين المتشائمين والمتفائلين.

١٢ – الاستنساخ في البشر وأضراره.

١٣ – توضيح الحق في فوائد البنوك.

١٤ – حقوق الإنسان في الإسلام.

١٥ – معركة الحجاب في فرنسا.

١٦ – مؤتمر السكان في القاهرة.

١٧ – هدم المسجد البابري.

١٨ – القنبلة النووية الباكستانية.

١٩ – أمتنا لن تموت.

٢٠ – وا قدساه.

٢١ – رسالة إلي المؤتمر الإسلامي التاسع.

٢٢ – مشروع الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية.

٢٣ – التنصير في منطقة الخليج.

٢٤ – المسلمون في أمريكا الجنوبية.

وغيرها من خطبه النافعة الجامعة.

إن خطب القرضاوي ليست مجرد كلام يقال، بل هي: تربية وتعليم وترشيد وتفهيم، وبيان وتعريف، وتفقيه وتثقيف، وكلها تنبع من واقعه الذي يحياه، وآلامه وآماله، التي يعيشها، ومن ثم فهو يعيش الخطبة بقلبه وبعقله، ويحياها بعواطفه وجوانحه، فإذا تكلم تكلم بعروقه ودمه، وهذا ما يظهر في قسمات وجهه، وبريق عينيه، وعبارات لسانه، ونبرات صوته، وحركات يديه، وإشارات أصابعه.

ومن ثم تراه يُضحك جمهوره تارة، ويبكيهم تارة أخري، ربما في خطبة واحدة، دونما تكلف مصطنع، أو تصنع متكلف.

والحق أن الخطابة عند القرضاوي: نداء صارخ، وصوت قوي، من قلب مهموم، وفؤاد مكلوم، وهي علم نافع، وثقافة هادية، من عقل بصير، وفؤاد مستنير، ولب ملهوف، وشخص مشفق محب، وإنسان ناصح أمين، موجه إلي قلوب شاردة لتعود، وأشخاص غافلة لتتنبه، وإلي العقول المستنيرة لتزداد نورا، وإلي القلوب المهتدية لتزداد هدي.

مميزات الخطبة عند القرضاوي:

للخطابة عند القرضاوي مميزات عدة؛ ومن أهم هذه المميزات:

١ – ارتباط الخطبة بالواقع الذي يعيشه المسلمون.

٢ – اشتمال الخطبة علي أهم قواعد الدين، من عقيدة سليمة، وعبادة خالصة، وأخلاق فاضلة، وآداب سامية، وأعمال صالحة، وتشريعات عادلة، وحضارة متوازنة.

٣ – الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

٤ – توثيق الخطبة بالأدلة الموثقة.

٥ – البعد عن إسرائيليات التفسير، ومنكرات الحديث، وخرافات العوام وأوهام الخواص.

٦ – الاعتدال والوسطية في عرض القضايا بعيداً عن غلو المغالين وتفريط المتسيبين.

٧ – الأسلوب الأدبي الرصين.

٨ – الأداء الحي الفعال.

٩ – مخاطبة العقل وتحريك العواطف.

١٠ – التركيز علي مشاكل الأمة وقضاياها.

١١ – التنوع في الموضوعات.

١٢ – الغزارة في الأدلة.

١٣ – البعد عن المسائل الفرعية الخلافية.

١٤ – استقلاله بذاته وعدم تقليده لأحد.

١٥ – الشمول والتكامل.

١٦ – عدم التكلف أو الاصطناع.

١٧ – رد شبه المتطاولين من الكفار والملحدين والمنافقين.

«مشوار» القرضاوي الخطابي:

مشوار الشيخ الخطابي طويل، بدأه الشيخ في قريته «صفط تراب» واستمر المشوار حتي انتهي به المطاف في مسجد عمر بن الخطاب بقطر، مروراً بمسجد آل طه في المحلة ومسجد الزمالك بالقاهرة، وساحات المعتقلات ومسجد أبي بكر الصديق بقطر، ومساجد في أقطار شتي.

لقد خطب القرضاوي في قارات الدنيا الخمس؛ في أفريقية، وفي آسيا. وفي أوربا. وفي الأمريكتين، وفي أستراليا.

ويذكر الشيخ أن أول خطبة منبرية له كانت وهو في السنة الرابعة من المرحلة الابتدائية، وطلب من الشيخ أن يلقي خطبة في أحد مساجد قريته «مسجد المتولي» بعدما عُرِف الشيخ بإلقاء الدروس، فأعد الشيخ خطبة كتب الله له فيها التوفيق، كانت تحت عنوان «الشكر لله»، وقد أثني الناس خيراً علي الشيخ، ويرجع ذلك لكونه لم يقلد أحداً لكنه تقمص شخصيته هو [١].

وأخذ الشيخ يتنقل بين مساجد القرية كلما سنحت له فرصة، وقد ساعده علي ذلك انضمامه لجماعة الإخوان المسلمين، فاعتبروه داعية من دعاتها يجوب القري والمدن فيما عرف وقتها بمديرية الغربية.

---

(١) انظر: ابن القرية والكتاب (ج١ / ١٧٨)، وانظر: خطب الشيخ القرضاوي ج١ ص٥.

وبعد انتقال الشيخ إلي القاهرة بعد إتمام المرحلة الثانوية، كثرت أعباؤه ومتطلباته، ففكر الشيخ في البحث عن عمل ليفي بحاجاته، وأشار عليه صديقه «محمد الدمرداش» بالتقديم في وزارة التربية والتعليم للعمل كمدرس، لكن الشيخ رفض هذا الاقتراح حتي لا ينقطع عن القاهرة مركز الدعوة والنشاط والحركة؛ فدله بعض إخوانه علي مسجد يُبْني بالمحلة الكبري علي أن يكون خطيبا فيه، فذهب الشيخ إلي أصحاب المسجد وهم أسرة «آل طه» واتفق معهم، وتم افتتاح المسجد ، وبدأت الأقدام تصطف في داخل المسجد وخارجه، حتي تم بناء مبني آخر من عدة طوابق بجوار المسجد ملحقا له، حتي غدا المسجد يطلق عليه «مسجد الشيخ يوسف» بعد أن أصبح الناس يتوافدون عليه من سمنود وطلخا، وطنطا، والمنصورة وغيرها [1].

وبعد خروج الشيخ من السجن الحربي تم الاتصال به أيام العدوان الثلاثي، من قبل وزارة الأوقاف، ليعمل بمكافأة خطيباً بجامع الزمالك سنة ١٩٥٦م، وكان وزير الأوقاف وقتها الشيخ أحمد حسن الباقوري، فتم انتداب الشيخ الغزالي إلي الجامع الأزهر، علي أن يحل القرضاوي مكانه في مسجد الزمالك، وكان اختيار القرضاوي لهذا المسجد لشعور المسؤولين بشدة الحاجة إلي خطباء مرموقين يعملون علي رفع الروح المعنوية لدي الشعب، ويشعلون جذوة الحماس في صدره، ويبعثون الأمل في نفسه، ويمحون اليأس من قلبه، وذلك بعد العدوان الثلاثي علي مصر.

وقد استمر الشيخ في هذا المسجد سنة ونصفاً، أو أقل ثم منع من استمرار خطابته بالمسجد .

ومنذ أن قدم الشيخ إلي قطر في عام ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م بدأ يزاول مهمته ورسالته، واعتلي المنابر من جديد، ولم تكن الخطبة منتظمة في بداية حياته في قطر، ولما أنشئ مسجد «أبو بكر الصديق» أسندت الجمعة فيه إلي

---

(١) انظر: ابن القرية والكتاب (ج١ / ٤٤٤)، وانظر: خطب الشيخ القرضاوي ج١ ص ٦ .

الشيخ، واستمر به إلي أن أنشيء مسجد «عمر بن الخطاب» فنقل إليه الشيخ إلي يومنا هذا حفظه الله تعالي[1].

وقد شرع أحد تلاميذ الشيخ ومحبيه من دولة البحرين، بجمع هذه الخطب وهو الدكتور / خالد خليفة السعد، فقام بتفريغها وتخريج أحاديثها، والتعليق عليها أحياناً، وقد خرج منها ستة أجزاء حتي اليوم، وهذا الجزء السابع بين يدى القارئ، ويتلوه العديد من الأجزاء إن شاء الله.

القرضاوي يخطب جالساً:

ولما طال العمر بالشيخ – أسأل الله أن يطيل عمره وأن يحسن عمله – واشتد ألم ركبته عليه، اضطر الشيخ إلي أن يخطب جالساً، بعد أن أخذ يصلي جالساً منذ عدة سنوات، وعلى الرغم من هذا كله إلا أن حماسة الشيخ، وصرخاته الملتهبة،.ونبرته القوية، وصيحاته العالية، وكلماته المدوية ما زالت ولا تزال تري في خطبه.

القرضاوي بين القديم والجديد في خطبه:

والقاريء لهذا الجزء الذي يجمع بين القديم والجديد من خطب الشيخ، سيري أوجه التشابه الكثيرة والمتعددة بين القرضاوي في شبابه والقرضاوي في شيبه؛ سيجد الأدب والبلاغة، والشجاعة والحماسة، والفكرة والعبرة، والفكاهة والطرفة، كما أنه سيجد كذلك دقة المناظر، وترتيب المحاضر، وأصالة الفقيه، وروح المربي ، ووضوح الداعية.

ولكن الفرق البين، والبون الواضح بين القديم والجديد، هو رواية المحدث، التي تظهر واضحة جليلة في الجديد، وهي غير موجودة في القديم، وهذا أمر لا يعيب شيخنا، فإن العالم لا يولد عالماً، والكبير لا يولد كبيراً.

إن أكثر ما يؤخذ علي الشيخ في هذه الخطب هو اعتماده الواضح علي

---

(١) انظر: خطب الشيخ القرضاوي ج١ ص ٦، ٧ .

كتابي «الترغيب والترهيب» للمنذري و«الإحياء» للإمام الغزالي، وقد أدي هذا الاعتماد إلي استشهاد الشيخ بما سجله الغزالي رحمه الله في إحيائه، أو المنذري في ترغيبه، فكان الاستشهاد بالضعيف، وربما في أحيان قليلة بالضعيف جداً والواهي وهذا علي مذهب جمهور المحدثين الذين قالوا بجواز العمل بالحديث الضعيف في الرقائق والترغيب والترهيب.

كما تجدر الإشارة إلي أن من الفروق الظاهرة بين القرضاوي في شبابه والقرضاوي في شيبه: هو الطول والقصر في الخطبة، فإذا كانت الخطبة في الجديد لا تقل عن ساعة؛ وإن قلّت فبقليل، وهي في صفحاتها لا تقل عن الخمس عشرة صفحة، وقد تزيد أحيانا فتتجاوز العشرين. بينما هي في القديم عادة لا تتجاوز العشر صفحات إلا في القليل.

وأمر أخير أود الإشارة إليه وهو: أن هذه الخطب القديمة نمت وربت حتي غدت فيما بعد كتباً يشار إليها بالبنان، ويتحدث عنها الركبان.

نعم لقد نمت هذه الخطب وتأمل معي خطبتَي «**القرآن الكريم منهاجاً للفرد، والقرآن الكريم دستوراً للدولة**»، وقارن بينهما وبين كتاب الشيخ «**كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟**» وأمعن النظر كذلك في خطبة **التوبة**، وقارن بينها وبين كتاب الشيخ «**التوبة إلي الله**» إن بين الخطبتين الأولين وكتاب «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» قرابة نصف قرن، وكذلك ما بين خطبة «التوبة» وكتاب «التوبة إلي الله»، وهذا إن دل علي شيء فإنما يدل علي رسوخ هذه الأصول في ذهن الشيخ، وأن طول الزمن لم يكن إلا مصقلاً لهذه الأفكار.

المنوفية أشمون / دروة

في : جمادي الآخرة ١٤٢٦ هـ.

يوليو ٢٠٠٥ م.

الفقير إلي عفو ربه

أكرم عبد الستار كساب

(١)

رسالتك أيها المسلم[١]

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور، أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أدّي الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا علي «المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[٢]، من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا.

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وأصحابه؛ ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضوان الله عن الذين يدعون بدعوته، المهتدين بسنته إلي يوم الدين.

أما بعد.. فيا معشر المسلمين:

يقول الله تبارك وتعالي في كتابه المبين: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ** ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

النداء المحبب:

أخي المسلم: في هاتين الآيتين يخاطب الله الذين آمنوا، ويستثير فيهم

---

(١) لفضيلة الشيخ حفظه الله خطبة بعنوان (مهمة الإنسان ورسالته في الكون) وهى أول خطب الجزء الأول، وهي تخدم هذا الموضوع. فلتراجع.

(٢) رواه أحمد (١٧١٤٢) عن العرباض بن سارية، ونصه «قد تركتكم علي المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك ...» وقال مخرّجو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم (١ / ٩٦) وابن ماجه (٤٣).

معاني الإيمان، ويخاطبهم بهذه السمة الكريمة، سمة المؤمنين، وقد قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا؛ فارعها سمعك، فإنها خير يأمر به، أو شر ينهي عنه[١].

في هاتين الآيتين حدد الله رسالة المسلم في هذا الوجود، ومهمة المؤمن في هذه الحياة.

ما هي مهمة المؤمن؟

أخي المسلم:

ما هي مهمة المسلم؟! وما هي رسالة المؤمن؟!

أهي رسالة دينية روحية؟ أم هي رسالة خيرية اجتماعية؟ أم هي رسالة جهادية سياسية؟ أم هي رسالة تجمع ذلك كله في نسق جميل؟؟

الشعبة الأولي من رسالة المسلم: العبادة:

رسالة المسلم ذات شعب ثلاث، الشعبة الأولي: شعبة روحية، وهي التي يحددها قول الله تعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾، أول شيء من مهمتك يا مسلم: الركوع، والسجود، وعبادة الله، إنك أيها الإنسان لست هذا الهيكل من اللحم والدم، والعظم والعصب، لست هذا الجسم الذي خلق من التراب وسيعود إلي التراب، وإنما أنت قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، وسر من أسرار الملأ الأعلي، خلقك الله بيديه، ونفخ فيك من روحه، وجعل الملائكة لك حُفّاظا وخُدّاما، وأنزل الكتب، وأرسل إليك النبيين مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل.

منزلة الإنسان الحقيقية:

إنك أيها الإنسان في منزلة حسدتك عليها الملائكة حيث قال الله تعالي:
﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا** ﴾ [البقرة: ١٠٤] (ج١ / ٦١).

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣٢].

أراد الله بهذا أن يعقد امتحانا عمليا، ليظهر قدر هذا النوع الجديد، وفضل الإنسان علي سائر المخلوقات. ففاق الإنسان الملائكة في (العلم) لأن الله هيأه ليقوم بعمارة الأرض، وخلافة الله فيها، فمنحه من المواهب والقدرات ما يمكّنه من أداء مهنته.

أنت أيها الإنسان؛ صاحب هذه المكانة العُلْيا، أنت خليفة الله في أرضه، وسيد هذا الكون كله، أنت المتصرف في هذا الملك العظيم بأمر الله، **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾** [الإسراء: ٧٠].

أيليق بك أيها الإنسان أن تهمل مهمتك، وأن تغفل مكانتك، وأن تجهل رسالتك، ويصبح كل همك دائرا حول معدتك، ولا تكن غايتك محصورة إلا في بطنك، تأكل لتعيش، وتعيش لتأكل.

فما لهذا خلقت، وما لهذا نزلت عليك الكتب، وبعثت إليك الرسل، وإنما خلقت لمهمة أسمي، ورسالة عظمي **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾**

[الذاريات: ٥٦ – ٥٨]

وفي الأثر الإلهي: «يا عبادي إني لم أخلقكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة علي أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة، ولكن خلقتكم لتعبدوني طويلا، وتذكروني كثيرا، وتسبحوني بكرة وأصيلا».

بهذه «الربانية» يكون فضلك أيها الإنسان، وليس فضلك في جسدك وجثتك، ولا في عنفوانك وقوتك، فإن في البهائم ما هو أضخم منك جثة، وفي السباع ما هو أشد منك قوة!!

إنما أنت أيها الإنسان قلب حي، ووجدان شاعر، وضمير يقظ، ونفس مشرقة، وهيهات أن يحيا القلب، ويستيقظ الضمير، وتضيء جوانب النفس إلا برحيق معرفة الله، وسلسبيل عبادته، ونور طاعته ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور: ٤٠] عبادة الله وحده: هي العهد القديم الذي أخذه الله علي بني الإنسان، وسدله بقلم القدرة في فطرهم البشرية، وغرسه في طبائعهم الأصيلة، منذ وضع في رؤوسهم عقولا تعي، وفي صدورهم قلوبا تخفق، وفي الكون آيات تهدي ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [يس: ٦٠، ٦١] فلا عجب أن يكون المقصد العظيم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بربهم، وأن يكون النداء الأول لكل نبي: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٦٥] وصدق الله العظيم: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولقد جاء الإسلام من أول يوم يقود الناس إلي الله بزمام الدعوة والترغيب[١] والترهيب، حتي يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وليست العبادة في الإسلام شكلا

---

(١) ذكر فضيلة شيخنا العلامة القرضاوي في كتابه «المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب»: أن هذه الفكرة – الترغيب والترهيب، أو التبشير والإنذار – واضحة تمام الوضوح في القرآن الكريم والحديث الشريف. فالقرآن حافل بصور الوعد والوعيد، ومشاهد يوم القيامة، وأهوال الآخرة وأحوال الجنة والنار، وما ينتظر المؤمنين الأتقياء من نعيم مقيم، وما يعد للكافرين الطغاة من عذاب أليم، وهذا في القرآن كله، وبخاصة المكي منه.

وكما أن القرآن الكريم حفل بألوان الترغيب والترهيب، أو التبشير والإنذار، فإن السنة النبوية قد حوت كذلك منهما ألواناً وأنواعاً أكثر وأغزر، بحكم ما اقتضته طبيعة السنة من السعة والتفصيل. انظر: المنتقي (ج١/ ١٦).

يتعلق بالمظهر، أو رسما يتصل بالجسم، ولكنها سر يتعلق بالقلب، وإخلاص ينبع من الروح. فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته، ولم يخلص لله في طاعته، فسيردها الله عليه كما يرد الصيرفي النقاد الدراهم الزائفة ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ [البينة: ٥].

لماذا فرض الله العبادة؟

لماذا ألزم الله تعالي عباده بأوامره، وكلفهم بتكاليف، وفرض عليهم عبادات؟؟

هل كان في حاجة إلي عبادتهم؟ كلا!! إنه خالق الخلق، ومالك الملك، رب السماوات والأرض ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَي اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥]

أم هل أراد إعنات خلقه وإرهاقهم؟ كلا ثم كلا!! إنما أراد لهم الخير والصلاح، والتزكية والتطهير ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة: ٦].

فرض الله عليهم الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وأوجب عليهم الزكاة ليطهرهم ويزكيهم بها، وكتب عليهم الصيام لعلهم يتقون، وأمرهم بالحج ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله، وندبهم إلي تلاوة كتابه ليدبروا آياته، وليذكر أولو الألباب، وحثهم علي الذكر والدعاء، لتعلو علي الدنيا هممهم، وترتفع عن مطالب الخلق رؤوسهم ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَيٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [آل عمران: ١٠١] تلك هي الأهداف الكبيرة التي شرع الله من أجلها العبادات، فإذا لم تحقق هذه العبادات أهدافها، فقد فقدت روحها، ورُدّت علي صاحبها، «من لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعدا»[١]، ومن لم تطهره زكاته فلا زكاة له، ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩/١٠٣) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (٢/٢٥٨).

ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر، ورب حاج ليس له من الحج إلا اسمه، ورب تال للقرآن والقرآن يلعنه، ورب داع دعاؤه مردودعليه (١).

العبادة شاملة:

وليست العبادة في الإسلام مقصورة علي الفرائض والأذكار والأدعية، فإن الإسلام يعتبر الأرض كلها مسجدا فسيحا للمسلم، ومحرابا كبيرا للمؤمن، يستطيع أن يتعبد فيه التاجر في متجره، والزارع في حقله، والموظف في مكتبه، والطالب في مدرسته، ما دام يتقن عمله، ويبتغي به وجه الله، ويقصد به أن يكون ترسا عاملا في «دولاب» الإسلام المتحرك الكبير. وفي هذا يقول الحديث النبوي: «من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة، وسعيا علي عياله، وتعطفا علي جاره، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر»(٢).

المسلم عابد قانت الله، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، لا تثبطه عن عبادته شدة، ولا يغره رخاء، إنه ليجد في عبادته ربه في ساعة الشدة، أنسا لقلبه، وسكينة لنفسه، وانشراحا لصدره، كما قال الله لرسوله: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

وفي ساعة المنحة والنعمة يذوق في العبادة حلاوة الشكر للمنعم، والحمد

---

(١) وردت عدة أحاديث في هذا المعني، ومنها:

١ - قوله (ﷺ): (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر) رواه أحمد في المسند (٨٨٥٦) عن أبي هريرة، وقال مخرجو السند: إسناده جيد، ورواه أبو يعلي (٦٥٥١) وابن خزيمة (١/٤٣١).

٢ - رُوي عنه (ﷺ) قوله: (إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته). رواه أحمد في المسند (٣٧٧٢) وقال مخرّجو المسند: إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢/٧٩) وذكره الألباني في الضعيفة (١٠٣٢).

لذي الجلال والإكرام، وما أروع خطاب الله لنبيه ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [النصر] .

ولله ما أروع بلاغة القرآن فقد خص الركوع والسجود بالذكر وهما جزء من العبادة، كناية عن الصلاة وهي عمود الإسلام المتين، وعبادته اليومية المتكررة، وإشارة إلي فضل الركوع والسجود، لأنهما مظهرا الانقياد الحق، والخضوع الكامل الذي لا يكون إلا لله وحده، وفي الحديث : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[١] .

الشعبة الثانية من رسالة المسلم : فعل الخير :

الشعبة الثانية من رسالة المسلم حددها الله بقوله : ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ ففعل الخير شيمة المسلم وديدنه، فليس المسلم في المجتمع كلاً ولا عاطلا، وليس عاقا ولا مؤذيا، ولكنه ينبوع يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنفع والبركة، يجد المجتمع في إسلامه سلاما لهم من كل شر، ويلمسون في إيمانه أمانا لهم من كل سوء .

الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة[٢] :

وليس هذا فحسب ولكنه يفعل الخير، ويدعو إليه، ويبذل المعروف، ويدل عليه وفي الحديث الصحيح « من دل علي فعل خير فله مثل أجر فاعله »[٣] سمع قول ربه في الحديث القدسي : « أنا الله خلقت الخير والشر، فطوبي لمن خلقته للخير، وأجريت الخير علي يديه، وويل لمن خلقته للشر، وأجريت الشر علي يديه »[٤]، وانتصح بحديث رسوله الكريم : « إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢) عن أبي هريرة .

(٢) لفضيلة الشيخ كلام أدبي بليغ في كتابه (العبادة في الإسلام) تحت عنوان : « مجالات العبادة في الإسلام » : ص٤٧ وما بعدها . طبعة مكتبة وهبة .

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩٣) عن أبي مسعود الأنصاري .

(٤) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف (٥/٦٥) .

مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله عز وجل مفتاحا للخير، مغلاقا للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير»[١].

لقد ظلم نفسه، وظلم دينه ذلك المسلم الذي يعيش عالة على الناس، وعضوا أشل في جسم الأمة، يأخذ من المجتمع ولا يعطيه، وينتفع منه ولا ينفعه، ويستمد منه ولا يمده، وإن الإسلام دين اجتماعي لا يعرف القعود، ولا يقر البطالة، ولو كانت في مظهر التبتل والعبادة.

وعلى المسلم أن يبذل جهده لنفع المجتمع الذي يعيش فيه، وإنعاش قوته، ودفع عجلة الخير فيه إلى الأمام. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يا نبي الله مع الإيمان عمل؟ قال: «أن ترضخ مما خولك الله (أي تعطي مما ملكك الله) وترضخ مما رزقك الله». قلت: يا نبي الله فإن كان فقيرا لا يجد ما يرضخ؟ قال: «يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر»، قلت: إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر؟ قال: «فليعن الأخرق» (الجاهل الذي لا يعرف صنعته)، قلت: يا رسول الله أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: «فليعن مظلوما»، قلت: يا نبي الله أرأيت إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مظلوما؟ قال: «ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟ ليمسك أذاه عن الناس». قلت: يا رسول الله أرأيت إن فعل ذلك يدخل الجنة؟ قال: «ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة»[٢].

بمثل هذه الروح يستحث النبي ﷺ كل مسلم مهما كان محدود الاستطاعة أن يدفع الضريبة الاجتماعية، ويؤدي زكاة ماله وعلمه وقوته، فيعطي الفقير، أو يرشد الضال، أو يعلم الأخرق، أو يأخذ بيد المظلوم، ولم يجعل الإسلام هذه الضريبة مالية فينفرد بها الأغنياء، ولا بدنية فيختص بها الأقوياء،

(١) رواه ابن ماجه في الإيمان (٢٣٨) عن سهل بن سعد، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/١٥٧) عن أبي ذر وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٨٧٦).

ولا علمية فيتميز بها المتعلمون، ولكنه جعلها ضريبة اجتماعية عامة، يؤديها كل امريء علي قدر طاقته، ويشترك فيها الفقير والجاهل الضعيف.

وأعجب من هذا وأروع أن الإسلام لم يفرض علي كل فرد ضريبة فحسب بل فرض على كل مفصل من مفاصل بدنه. روي الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة»[1] وإسماع الأصم، وهداية الأعمي، ودلالة المستدل علي حاجته، والسعي بشدة الساقين مع اللهفان المستغيث، والحمل بشدة الذراعين مع الضعيف صدقة كريمة، وحسنة عظيمة.

لقد أعلي الإسلام من شأن الخدمات الاجتماعية التي يحسبها الناس تافهة، وهي عند الله كبيرة، ويخالونها هينة وما أثقلها في ميزان الخير.

جاء رجل إلي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أي الناس أحب إلي الله؟ فقال: «أحب الناس إلي الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلي الله عز وجل سرور تدخله علي مسلم، تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد – يعني مسجد المدينة – شهرا، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا، ومن مشي مع أخيه في حاجة حتي يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام»[2].

الله أكبر.. ما أعجب هذا الدين العظيم، خطوات في قضاء حاجة مسلم أحب إلي رسول الله من عبادة عظيمة (هي الاعتكاف) في بيت من بيوت الله تقربا إليه لا يوما، ولا أسبوعا، ولكن شهرا، وفي أي البيوت؟؟!! هو مسجده ﷺ أحد مساجد ثلاثة لا تشد الرحال إلا إليها، المسجد الذي قال فيه: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»[3].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩) ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٢/٤٥٣) عن عبد الله بن عمر، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٠٦) وانظر: المنتقي من الترغيب للقرضاوي (١٥٧٤).

(٣) رواه البخاري في فضل الصلاة في مكة والمدينة (١١٩٠) عن أبي هريرة، ومسلم في الحج (١٣٩٥) عن ابن عمر.

أي مسلم ذي قلب يستمع إلي هذه المرغبات المغرية بما عند الله، ولا يقف جهوده علي الخدمة العامة؟ فيبذل من نفسه وماله وراحته في سبيل قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، ليدخرها الله له في الآخرة «ومن نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر علي معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر علي مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1].

أي مسلم ذي قلب يسمع هذه المغريات ولا يعيش في أمته «مرهما» يأسو الجراح، وبلسما يشفي السقام، يطعم الجائع، ويروي الظمآن، ويكسو العريان، ويعود المريض، وهو يسمع مثل هذا الحوار البديع العميق بين الله وعباده في مشهد رائع غريب من مشاهد القيامة، عرضه علينا المربي الأعظم صلوات الله عليه وسلامه قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم: مرضت فلم تعدني!! قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم: استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟!!. يا ابن آدم: استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلم تسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»[2].

الخير لكل الناس:

وإن من روائع إعجاز القرآن في الآية التي معنا أنه لم يقل: افعلوا الخير بالأقارب، أو بالمسلمين، أو بالعرب، أو بالشرقيين، ولكنه أمر بفعل الخير أمرا مطلقا، غير مقيد بقيد خاص، ولا محدود بدائرة معينة، ليغمر المسلم بالخير كل طائفة، ويعم بالخير كل جنس، ويشمل بالخير كل دين، وأي حجة أوضح وأبلغ

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٩) عن أبي هريرة.

من كتاب الله وهو يقول: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨]

ولأهل الكتاب وصية خاصة:

وإذا كانت هذه الآية قد نزلت في شأن المشركين فما بالك بأهل الكتاب وقد أباح الإسلام مصاهرتهم، ومؤاكلتهم ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** ﴾.

وما بالك بالمسيحيين منهم وهم أقرب مودة للذين آمنوا بنص القرآن؟

وما بالك بأقباط مصر خاصة وقد أوصانا رسول الله بهم خيرا(١).

وللحيوان نصيب:

وليس هذا في حاجة إلي بيان. فقد وسع الإسلام آفاق الخير للمسلم حتي شملت كل كائن حي في الوجود، فالجنة تفتح أبوابها لرجل سقي كلبا، فشكر الله له، فغفر له، حتي عجب الصحابة وقالوا: أئن لنا في البهائم لأجرا يا رسول الله؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»(٢).

والنار تفتح مصاريعها لامرأة حبست هرةً فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض(٣).

ومن عجائب تعاليم الإسلام أن الله يثيب المسلم علي كل عمل ينتفع به، ذو روح إنسانا أو حيوانا، أو طائرا. وإن لم يكن قاصدا لكل جزئية من جزئيات هذا النفع مع تشديده في اشتراط النية في كل عمل.

---

(١) للمزيد من معرفة سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين راجع ما ذكره شيخنا في كتابه: «غير المسلمين في المجتمع المسلم». طبعة مكتبة وهبة.

(٢) رواه البخاري في المظالم (٢٤٦٦) ومسلم في السلام (٢٢٤٤) عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٢) ومسلم في السلام (٢٢٤٢) عن أبي هريرة.

ففي الحديث الصحيح: «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[1].

المسلم بار بوالديه، واصل رحمه، محسن بجاره، عطوف على الفقراء والمساكين، رحيم باليتيم وابن السبيل، رفيق بالطير والحيوان، استقر في شغاف قلبه نداء الحق ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

الشعبة الثالثة الجهاد في سبيل الله[2]:

الشعبة الثالثة: من مهمتك أيها المسلم هي الجهاد في الله حق الجهاد!!

فإنك يا ابن الإسلام صاحب دعوة: هي دعوة القرآن، وجندي فكرة: هي فكرة الإسلام، وحامل رسالة: هي رسالة محمد عليه الصلاة والسلام. تلك الرسالة التي جاءت لهداية العرب والعجم، وإنقاذ الغني والفقير، وتهذيب الرجل والمرأة، وإصلاح الفرد والمجتمع، وإرشاد الحاكم والمحكوم.. تلك الرسالة التي جاءت لتطرد الخرافة في العقول، والضعف في النفوس، والسلبية في الأخلاق، والإنحراف في السلوك، والبغي في الجماعات، والطغيان في الحكومات، جاءت لتربط بين الخلق وخالقهم، برباط الإيمان بالله، وتربط بين الإنسان والإنسان، برباط الإخاء والحب في الله.

تلك الرسالة التي تقول للضعفاء: شدوا سواعدكم، وتصحيح في الأذلاء: ارفعوا رؤوسكم، وتصرخ في النائمين: هبوا من سباتكم، وتنادي المستعبدين: أن حطموا قيودكم، وتدعوا المتجبرين: أن انزلوا من عروشكم، وحكموا من كبريائكم.

تقول للأغنياء: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور: ٣٣] من أموالكم.

---

(١) رواه البخاري في الحرث والمزارعة (٢٣٢٠) ومسلم في المساقاة (١٥٥٣) عن أنس.

(٢) أوشك شيخنا من الإنتهاء من كتابه القيم «فقه الجهاد» وهو موسوعة علمية تتحدث عن الجهاد من كل جوانبه، نسأل الله أن يعينه علي إتمامه.

وتقول للمتفاخرين: «من بطأ به علمه لم يسرع به نسبه»(١). وتقول للحكام: «إنما أنتم أجراء الشعب، وأمناء الحق».

وتقول للناس جميعا: الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي علي أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوي»(٢).

لابد للرسالة الحقة من خصوم:

مثل هذه الرسالة الثورية الشاملة: لا بد أن يكون لها خصوم معاندون، وأعداء مكابرون، يدافعون عن مصالحهم، وينافحون عن نفوذهم، ويحاربون عن باطلهم، فلا بد من احتكاك، ولا مفر من صدام.. فعلي المسلم: أن يعد العدة، ويأخذ الحذر، ويشهر سيف الحق، ويحمل معول التطهير، ليهدم صروح الباطل، ويثل عروش الجبروت، ويطمس معالم الطغيان، ويوطد دعائم الحرية للعقائد كلها، حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

لهذا كتب الله القتال علي المسلمين كما كتب عليهم الصيام، وأمرهم بالجهاد كما أمرهم بتقواه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٣٥].

ونادي المتثاقلين عن الجهاد نداء صارخا فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَي الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ [التوبة: ٣٨].

ثم حذرهم عاقبة التخاذل والقعود: ﴿**إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَيٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [التوبة: ٣٩].

ثم دعا الجميع دعوة شاملة، وعبأهم تعبئة عامة فقال: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٤١].

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) عن رجل من الصحابة، وقال مخرّجو المسند: إسناده صحيح.

الغاية من الجهاد :

ليس جهاد المسلم لدنيا يصيبها، أو أرض يستعمرها، أو سوق يفتحها لسلعه، أو منطقة ينشر فيها نفوذه، أو لعصبية ينصرها، أو لشهرة ينشدها، ولكن جهاده كما أمره القرآن (في الله) في ذاته، وفي سبيله وابتغاء مرضاته، وإعلاء كلمته.

جاء رجل إلي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله! الرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليري مكانه.. فأيهم في سبيل الله، فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »(١).

غايات مرفوضة :

إنه ليس غاصبا ولا مستعمرا، ولكنه حامل شعلة النور إلي الإنسانية، اختاره الله ليكون داعي حقه، وهادي خلقه، وصدق الله (هو اجتباكم).

جعل الله الجهاد من رسالة المسلم، ولم يرض منه ببعض الجهاد، أو بقليل من الجهاد، ولكنه أمره بالجهاد حق الجهاد (وجاهدوا في الله حق جهاده) ليشمل كل ألوان الجهاد المستطاع : جهاد القلم واللسان، جهاد الحجة والبرهان، جهاد السيف والسنان، جهاد النفس والمال.

يبذل المسلم ما في طاقته، ويفرغ ما في جعبته. فإن عاش عاش كريما حميدا، وإن مات مات شهيدا ﴿ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾ [محمد : ٤ – ٦].

ذلكم هو شأن المسلم مع أعداء الله وخصوم الحق، منطقه معهم هو الجهاد، والجهاد وحده، ليس منطق المداهنة والمهادنة، ولا منطق المحادثة والمفاوضة، وإنما

---

(١) متفق عليه رواه البخاري في التوحيد (٧٤٥٨) ومسلم في الجهاد (١٩٠٤) عن أبي موسي وانظر اللؤلؤ والمرجان (١٢٤٣).

هو منطق يرد على المعتدين بالكتيبة لا بالكتاب، وبالسيف لا بالقلم، وبالدماء لا بالمداد، وبضربات الخناجر لا بصيحات الحناجر.

السيف أصدق إنباء من الكتب　　في حده الحد بين الجد واللعب

على هذا الضوء فافقه رسالتك أيها المسلم، وفي نور هاتين الآيتين حدد علاقتك بالله والناس.

علاقتك بالله الركوع والسجود والعبادة ﴿ **ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾.

علاقتك بالمجتمع فعل الخير ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.

علاقتك بأعداء الله الجهاد وحق الجهاد ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾.

وبهذا الميزان الدقيق زن إسلام المسلمين، وإيمان المؤمنين، فشأن المسلم أن يكون له في كل ميدان عملا وفي كل مجال إنتاجا وفي كل ناحية نشاطا.

هو في الميدان الروحي: خاشع عابد راكع ساجد، وفي الميدان الاجتماعي: منتج نافع بار خيِّر، وفي الميدان العسكري: بطل مجاهد وجندي مناضل، وفي كل ميدان رافع الراية وحامل اللواء.

ليس من الإسلام:

فإذا رأيت جماعة كل همهم: الركوع والسجود، والتسبيح والتحميد، ولكنهم يغفلون فريضة الجهاد، ويهملون قضية الإسلام، فقل لهم: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وإذا رأيت جماعة يقنعون من الإسلام بأداء بعض الخدمات، وفعل الخيرات، ويهملون عبادة الله فقل لهم: لستم بالمسلمين الصادقين، وإذا رأيت جماعة يقولون: الوطنية الوطنية، الجهاد الجهاد، ولكنهم لا يعرفهم المحراب عابدين، ولا يعرفهم الله خاشعين، فقل لهم: لستم بالمسلمين الصادقين.

ورضي الله عن أصحاب رسول الله ومن تبعهم بإحسان، فقد فقهوا رسالتهم حق الفقه، وآمنوا بها كل الإيمان، ووهبوا لها كل ما يملكون من نفس وجهد ومال.

كانوا في المحاريب، والمساجد باكين خاشعين، ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، ﴿ **أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة: ٨٣]، وتري علائم الجد والحزن علي وجوههم، مما استقر في قلوبهم من خوف الله، ﴿ **إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢].

أما في المجتمع فكانوا أسخياء رحماء، محسنين كرماء، يحسنون إلي الجار، ويطعمون المسكين، ويكرمون اليتيم، ويقرون الضيف، بل كانوا يطعمون من حرمهم، ويصلون من قطعهم، ويبذلون لمن منعهم، ويحسنون إلي من أساء إليهم، ويجودون بالشيء، وهم أشد حاجة إليه، حتي نزلت آيات الكتاب العزيز تسجل لهم هذه المآثر العظيمة ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيراً** ﴾ [الإنسان: ٨ – ١٠]، ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩].

وكانوا في الميادين: أبطالا مغاوير. يهجم أحدهم علي صفوف العدو وهو يقول: إني أشم ريح الجنة(١)، ويطعن بالرمح في صدره فينفذ من ظهره فيقول: فزت ورب الكعبة(٢)، ويسعي إلي لقاء الموت ركضا، ويتلقي الضربات مبتسما وهو يرتل: ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾ [طه: ٨٤].

هكذا كان رجال الإسلام الأولون، كانوا كما وصفهم الخصوم والأنصار:

---

(١) القائل هو: أنس بن النضر في أحد حين لقيه سعد بن الربيع فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨١).

(٢) القائل هو حرام بن ملحان في فاجعة بئر معونة. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٠٦).

رهبان الليل وفرسان النهار بل كما وصفهم الله ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ .

مثال للمؤمن الجامع لكل هذه الصفات :

تلك هي أوصافهم : شدة صارمة علي أهل الكفر والعدوان، ورحمة رحيمة بأهل الإيمان، وركوع وسجود يبتغي بهما فضل الله ورضوانه، ونمو ونضوج يعجب المؤمنين ويغيظ الكافرين.

ويتمثل أمام عيني في هذا المقام (جعفر بن أبي طالب) مثل المؤمن الشديد الرحيم، العابد المحسن المجاهد، فقد فر بدينه إلي الحبشة، فكان أمير المهاجرين بها، وحادث النجاشي فكان نعم السفير اللبق، وقرأ عليه القرآن، ودعاه إلي الإسلام، فكان نعم الداعية المخلص الفقيه.

وكان في المسلمين جوادا كريما ممدحا، وكان لكرمه يقال له (أبو المساكين) لإحسانه إليهم.

فلما كان يوم مؤتة وثلاثة آلاف من المسلمين يحاربون مائتي ألف من الروم، ونصاري العرب، في غير أرضهم، واستشهد زيد بن حارثة، فتولي القيادة جعفر، وقاتل قتال الأبطال، وثبت ثبات الجبال. قال أحد شهود المعركة : والله لكأني أنظر إلي جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل القوم حتي قتل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إن لقيتها ضرابها

روي المؤرخون وأصحاب السير : أن جعفر أخذا اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتي قتل، فأثابه الله بدل يديه جناحين يطير

بهما في الجنة حيث يشاء قال عليه السلام: «رأيت جعفر بن أبي طالب يطير في الجنة ذا جناحين يطير بهما حيث يشاء مضرجة قوادمه[1] بالدماء» ومن أجل ذلك سمي جعفر الطيار. ولما قتل وجد في جسده بضعا وتسعين ما بين ضربة، وطعنة، ورمية، ليس شيء منها في دبره رضي الله عنه[2].

أيها المسلمون: بهذه البطولات الفذة نقتدي، وبهذه الأضواء المؤمنة نهتدي، وفي هذه السبيل المنيرة يجب أن نسير، أما هذه الغفلة عن رسالتنا السامية، وتاريخنا المجيد، وواجبنا العظيم، أما أن يظل الحال كما نري:

مسلمون وهم لا يركعون ولا يسجدون.

مسلمون وهم عن فعل الخير معرضون.

مسلمون وهم عن الجهاد قاعدون متخلفون.

فهذا ما لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون. فإلي الله إلي الله أيها الغافلون، وإلي عمل الخير وخير العمل أيها الأنانيون، وإلي الجهاد أيها القاعدون، وإلي الإسلام الحقيقي أيها المسلمون ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾.

* * *

---

(١) قوادم الطير: مقاديم ريشه، وهي عشر في كل جناح، والواحدة منها تسمي: قادمة. انظر: مختار الصحاح (٢١٩).

(٢) للمزيد من تفاصيل هذه المعركة الخالدة انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٢٥).

(٢)

حاجتنا إلي رجال[١]

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه. وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، القائم علي كل نفس بما كسبت، والعليم بأسرارها وإن خفيت، ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. كان أشد الناس مراقبة لربه، ومحاسبة لنفسه، ومع ذلك كان يقول لأمته معلما ومرشدا: « يا أيها الناس توبوا إلي الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة »[٢].

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وصحابته، ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ورضوان الله عن الداعين بدعوته، السالكين سبيله، المجاهدين جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد ... فيا أيها الإخوة المسلمون:

أمنية عمرية:

جلس عمر رضي الله عنه مع جماعة من أصحابه في إحدي دور المدينة فقال

---

(١) لفضيلة الشيخ مقالة بعنوان: (أمنية عمرية أو حاجتنا إلي رجال) وهي إحدي المقالات والبحوث التي جمعها في كتابه: (من أجل صحوة راشدة). طبعة دار الشروق، ط الأولي ٢٠٠١ م.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) عن الأغرّ المُزَني.

لهم: تَمَنَّوْا.. فقال بعضهم: أتمني أن تمتليء هذه الدار فضة أنفقها في سبيل الله، وقال آخر أتمني أن تمتليء هذه الدار ذهباً أنفقه في سبيل الله، وقال آخر: أتمني سيوفا ورماحا أمد بها المجاهدين. وقال عمر الخبير بما تحتاجه الدعوات والنهضات: أما أنا فإني أتمني أن تمتليء هذه الدار رجالا مثل: أبي عبيدة بن الجراح، وسالم مولي أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، فأستعملهم في طاعة الله.

وإذا كان لنا نحن أن نتمني شيئًا فإننا نتمني لهذا الشرق المضيع رجالا من هؤلاء.

من الرجال المصابيح الذين همو كأنهم من نجوم حية صنعوا
أخلاقهم نورهم، من أي ناحية أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا

مقومات القوة في الأمة الإسلامية:

نحن أبناء الشرق الإسلامي، نعيش في بقعة لعلها أخصب بلاد الله أرضا، وأعدلها جوا، وأطيبها هواء، وأصفاها شمسا، وأعظمها موقعا، وأكثرها امتلاء بالمعادن المذخورة، والثروات المنثورة[١]، ولو أن الله جمع الناس في صعيد واحد، وخيّرهم بين الأقطار والبلاد ما اخترنا أفضل من الموقع الذي نعيش فيه، ولكن الذي ينقصنا شيء آخر غير معادن الحديد والنحاس، والغاز والبترول، إنه معدن غال نفيس هو: معدن الرجال!!

الرجل الحقيقي أساس كل إصلاح:

الرجل هو إكسير الحياة، ومحور الإصلاح، وعماد النهضات، وروح الدعوات، أعد ما شئت من معامل للذخيرة والسلاح، فلن تقتل الأسلحة إلا بالرجل المحارب!! وضع ما شئت من القوانين واللوائح فستظل حبرا علي ورق ما لم تجد الرجل الذي ينفذها!! وضع ما شئت من برامج للتربية والتعليم فلن يغني البرنامج إلا بالرجل الذي يقوم بتدريسه!! وأنشيء ما شئت من لجان فلن تنجز مشروعا إذا حرمت الرجل الغيور!!

---

(١) انظر ما ذكره فضيلة الشيخ في كتابه: (الأمة الإسلامية.. حقيقة لا وهم) تحت عنوان: «مقومات القوة في الأمة» ص٣٥ وما بعدها طبعة مكتبة وهبة ط الأولي ١٩٩٥ م.

ذلك ما يقوله الواقع الذي لا ريب فيه.

إن القوة ليست في حد السلاح بقدر ما هي في قلب الجندي، والتربية ليست في صفحات الكتاب بقدر ما هي في روح المعلم، والعدل ليس في نص القانون بقدر ما هو في ضمير القاضي، والسرعة ليست في تكوين اللجان بقدر ما هي في حماسة أصحابها.

رجولة ورجولة:

إن رجلا واحدا قد يساوي مائة، ورجلا قد يوازي ألفا، ورجلاً قد يزن شعبا. وقد قيل: (رجل ذو همة يحي أمة) بل قال قائل:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

روي التاريخ أن عمرو بن العاص جاء يفتح مصر، ويطرد الإمبراطورية الرومانية من هذا البلد العريق بجيش صغير؛ يتكون من أربعة آلاف جندي، ثم بعث إلي عمر يطلب منه مددا، فأرسل إليه عمر بأربعة آلاف رجل، علي رأسهم أربعة رجال. عدّ عمر كل واحد منهم بألف، وحينئذ فلن يُغْلَب اثنا عشر ألفا من قلة..

ولكن ما هو الرجل؟ هل هو الذكر البالغ من بني الإنسان؟ إذن فما أكثر الرجال!!

الرجولة ليست بالسن:

إن الرجولة ليست بالسن المتقدمة، فكم شيخ في سن السبعين وقلبه في سن السابعة، يفرح بالتافه، ويبكي علي الحقير، ويتطلع إلي ما ليس له، ويقبض علي ما في يده، حتي لا يشركه فيه غيره، فهو طفل صغير؛ ولكنه ذو لحية وشارب.

وكم من غلام في مقتبل الصبا، ولكنك تري الرجولة المبكرة في قوله وعمله، وخلقه وتفكيره.

مرّ أمير المؤمنين (عمر) رضي الله عنه في طريق، وثلة من الصبيان يلعبون فهرولوا هاربين إلا (عبد الله بن الزبير) فثبت في مكانه دون إخوانه، فقال له عمر: لماذا وقفت يا غلام؟ ولم تعد مع أصحابك. فقال: يا أمير المؤمنين لم أقترف ذنبا فأخاف منك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسعها لك: فأعجب به عمر، وأثني عليه.

وجاء وفد إلي أحد الخلفاء، فقدموا فتي يافعا يتكلم بلسانهم. فقال الخليفة: ليتقدم من هو أسن منك. فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في الأمة من هو أولي منك بالخلافة. ولكن إذا آتي الله المرء لسانا لافظا، وقلبا حافظا، فقد استحق التقدم والكلام.

أولئك لعمري هم الصغار الكبار، أما اليوم فما أكثر الكبار الصغار!

الرجولة ليست بالجسم:

وليست الرجولة بضخامة الجسم، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، لا بضخامة جثمانه. وماذا تنتفع الأمم بأجسام البغال وأحلام العصافير؟ وما أحكم المثل العربي الذي يقول: (تري الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل).

وقد حدثنا القرآن عن جماعة من المنافقين فقال: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ** ﴾ [المنافقون: ٤]، ومع هذا يقول عنهم ﴿ **كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ** ﴾ [المنافقون: ٤].

وفي الحديث الشريف: يأتي الرجل العظيم السمين عند الله يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة.. اقرؤوا إن شئتم قول الله تعالي: ﴿ **فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ [الكهف: ١٠٥][1].

كان عبد الله بن مسعود قصير القامة، نحيف الجسد، فرأي بعض الصحابة

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩) عن أبي هريرة ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥) عن أبي هريرة.

يوما ساقيه وهما دقيقتان هزيلتان. فضحكوا منها.. فقال النبي ﷺ: «مما تضحكون؟» قالوا: من دقة ساقيه، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»[١].

ليست الرجولة بالمظهر:

وليست الرجولة بالفخامة والمظهر، فـ«إن الله لا ينظر إلي صوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم[٢]، ورب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم علي الله لأبره»[٣].

والمرء بآدابه لا بثيابه، والسيف بجوهره لا بجرابه، ورحم الله القائل:

علي ثياب لو ينادي لبيعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها ... نفوس الوري كانت أعز وأكبرا

وليست الرجولة بالمال:

وليست الرجولة بالغني والمال. فرب غني فقير، ورب فقير غني، «وليس الغني عن كثرة العرض إنما الغني غني النفس».

إن الغني هو الغني بنفسه ... ولو آنه عاري المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافيا ... وإذا قنعت فبعض شيء كاف

ليست الرجولة بالمنصب والجاه:

وليست الرجولة بالجاه والمنصب.. فكم من أناس يتولون مناصب كبري، ويديرون أعمالا، ويرأسون مصانع، ويتقلدون وزارات، ولكن ذلك لم يمنع أحدهم أن يحني هامته في سبيل درجة يرتقيها، أو يضحي بكرامة في سبيل زلفي إلي رئيس.

---

(١) رواه أحمد (٣٩٩١) عن ابن مسعود وقال مخرجو المسند: صحيح لغيره، ورواه الطبراني في الكبير (٨٤٥٣) وابن أبي شيبة (١٢/١١٣).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) عن أبي هريرة، وفي رواية «إن الله لا ينظر إلي أجسادكم ولا صوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم».

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢) عن أبي هريرة.

كبرت مناصبهم وصغرت نفوسهم، وعلت منازلهم وانحطت هممهم.

الرجولة الحقيقية:

ليست الرجولة بالسن، وليست الرجولة بالجسم، وليست الرجولة بالمظهر، وليست الرجولة بالمال، وليست الرجولة بالمنصب، وليس يقاس الرجل بواحد من هذه المقاييس العرجاء.. وإنما الرجولة الحقة: قوة نفسية تحمل صاحبها علي معالي الأمور، وترفعه عن سفاسفها، قوة تجعله كبيرا في صغره، قويا في ضعفه، غنيا في فقره.

قوة تحمله علي أن يعرف حقه فيطلبه عزيزا كريما، ويعرف واجبه فيؤديه مخلصا أمينا، واجبه نحو نفسه، واجبه نحو ربه، واجبه نحو بيته، واجبه نحو مجتمعه، واجبه نحو دينه، واجبه نحو أمته. يعينه علي أداء هذه الواجبات إدراك دقيق، وشعور رقيق، وإيمان عميق، وضمير يقظ، وخلق متين.

والرجولة في الإسلام ربيبة الإيمان بالله، وقرينة الطاعة لله، فالإيمان وحده هو الذي يصنع معاني الرجولة، ويربي أخلاق البطولة، ويطبع النفس علي معالي الأمور، ويبعدها عن سفاسفها.

أين تنشأ الرجولة؟

وفي ظلال عبادة الله، وبين جدران المساجد الخاشعة، يتربي الرجال المؤمنون الصادقون، وقد وصف الله رواد المساجد فقال: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وقال: ﴿ **لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ [التوبة: ١٠٨].

الرجولة لا تعني العصمة :

ولن تجد الرجولة في أجلي صورها، وأكمل معانيها كما تجدها في تلك النماذج الرائعة التي صنعها الإسلام، ورباها سيد الرسل عليه الصلاة والسلام.

لا نزعم أنهم كانوا ملائكة مقربين لا يعصون، ولا يخطئون، ولكنهم كانوا إذا مسهم طائف من الشيطان ﴿ **تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠١]، فإذا تورطوا في فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴿ **ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥]، وكثيرا ما جاءوا مسرعين إلي رسول الله ﷺ يعترفون بالخطايا، ويلتمسون التطهير ويطلبون أن يقام عليهم حد الله(١).

وكانوا إذا فاتتهم غزوة من الغزوات ظلّوا متشوقين إلي أختها، حتي يدفعوا ضريبة الإيمان، ويأخذوا من الجهاد بأكبر نصيب.

روي البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله : غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني في قتال المشركين ليرين الله ما أصنع « فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون فقال لهم : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني الصحابة - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال : يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد. قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مُثّل به، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. فقال أنس : كنا نري أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٢٣](٢).

ذلك عصر كانت أرضنا تنبت فيه رجالا مع الزروع والأشجار، رجالا

---

(١) ولعل أروع مثل لذلك موقف ما عز الأنصاري والمرأة الغامدية حين أتيا إلي رسول الله ﷺ.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٥) عن أنس.

يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع، رجالا لا يغريهم الوعد ولا يثنيهم الوعيد، رجالا لا يزهيهم النصر، ولا تحطمهم الهزيمة، رجالا كانوا ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾[الفتح: ٢٩].

رجولة الأمس واليوم:

أما اليوم فإننا نفتش عن الرجال كما نفتش عن الذهب في الأرض، وقد نعثر في الفينة بعد الفينة علي الرجل بعد الرجل، وقد نذرع البلاد ذهابا وإيابا فلا نجد إلا غُثاء كغثاء السيل!

وأين الرجولة في هذا الذي فقد الوفاء فغدر وفقد العفاف ففجر، وفقد الأمانة فخان، وفقد شجاعته فأصبح جبانا، وفقد صلابته فصار رخوا، وفقد غيرته فأصبح يقدم امرأته تراقص الأجنبي علي مسمعه ومرآه؟

لقد كان العرب في الجاهلية – علي ما فيهم من انحراف – علي كثير من معاني الرجولة فقد كان فيهم مثل (عنترة) الذي يغشي الوغي ويعف عند المغنم! والذي يقول عن نفسه:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتي يواري جارتي مأواها

وقد كان فيهم مثل (عبد الله بن عبد المطلب) الذي تراوده امرأة عن نفسه وهو في حرارة الشباب وعنفوان الغريزة، فيجيبها بمنطق الرجولة:

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه
يحمي الكريم عرضه ودينه فكيف بالأمر الذي تبغينه

وكان فيهم من يفي بالكلمة تخرج من فيه، مهما كلفته من غالي الثمن، ويقول:

ولا أقول: نعم يوما وأتبعها بلا ولو ذهبت بالمال والولد

فإذا كانت الجاهلية تخرج مثل هؤلاء الرجال فما بال أبناء الإسلام قد فقدوا أولي خصائصهم وهي الرجولة؟

الاستعمار وراء هذا البلاء :

أما لو فتشنا عن السر، وبحثنا عن العلة لتبين لنا أن الاستعمار قد وضع نصب عينيه وفي مقدمة برامجه المحرمه أن يقتل رجولة المسلمين. ومن هنا غزانا بجسد المرأة الخليعة، ونشر الملاهي المحرمة، وإشاعة المسكرات والمخدرات القاتلة، واطغاء العبث والمجون، علي الجد والعمل، وفسح المجال لغلبة الرذيلة علي الفضيلة، وإبعاد تعاليم الدين عن المجتمع. وبهذه الطريقة انتصر في حربه الروحية والفكرية والنفسية، وعبث الفساد بالرجولة والأخلاق كما تعبث الرياح بالأوراق.

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

وليت شعري: أين الرجال الذين تُتَقَي بهم المكاره، وتُسَدُ بهم الثغور، وتَصْلُح بهم الجماعات، وتنهض بهم الشعوب، وتحقق بهم الآمال؟!!

اغدوا وروحوا هنا وهناك، وارجعوا البصر كرتين. فهل تري إلا أحلاس المقاهي، ورواد الملاهي، وعشاق الخمر والميسر، ورواد الشوارع والميادين، وأتباع الغاديات والرائحات، وعباد الغرائز والشهوات؟!!(1)

أليس هؤلاء أولي الناس بوصف الإمام علي: «أشباه الرجال ولا رجال، وطغام الأحلام، وعقول ربّات الحجال».

وإني لتحضرني كلمة قرأتها لرجل أجنبي درس الإسلام؛ وأعجب بتعاليمه؛ فلما سئل عنه قال: ما أعظمه من دين لو كان له رجال.

أجل!! دين عظيم ولكن المسلمين غير عظماء، دين قوي ولكن أبناءه غير أقوياء، دين عزيز ولكن أتباعه ليسوا بأعزاء.

يا عجبا!! دين له خمسمائة مليون مسلم(2) منسوبون إليه، محسوبون

---

(1) هذه الصورة القاتمة التي رسمها الشيخ في شبابه، تغيرت كثيرا بحمد الله، وقد نوّه الشيخ بهذا التغيير في العديد من كتبه، وضرب شباب الصحوة أروع الأمثلة للرجولة الصادقة، فامتلأت بهم المساجد وازدحمت بهم مواسم الحج والعمرة، وتعطرت بدمائهم أراضي الرباط وساحات الجهاد.

(2) المسلمون الآن أكثر من مليار وثلث مليار.

عليه، ومع هذا فهو لا يجد رجالا.. أما والله لو ظفر الإسلام في كل ألف من أبنائه برجل واحد[1] - بكل ما في الرجولة من معان - لكان ذلك خيرا له، وأجدي عليه، من هذه الجماهير المكدسة، وهذه الملايين (المملينة) الذين يجمعهم مزمار، وتفرقهم عصا، هؤلاء الذين كأنهم صنعوا من زجاج فلا يسترون عورة، ولا يتحملون رميا.

فليت لي بهمو قوما إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانا وركبانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات علي ما قال برهان

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

* * *

(١) لفضيلة الشيخ نداء في قصيدته (يا أمتي وجب الكفاح) وفيها يقول:

يا ألف مليون وأيـ ... ـن همو. إذا دعت الجراح؟
هاتوا من المليار مليونا صحاحا من صحاح
من كل ألف واحدا ... أغزو بهم في كل ساح

انظر: نفحات ولفحات ص ١٣٠.

(٣)

الصـــــيام[1]

الحمد لله الذي أنعم علينا بشهر رمضان، وأنزل فيه القرآن، هدي للناس وبينات من الهدي والفرقان، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، فرض علينا الصيام تربية لنا وتهذيبا، لا إرهاقا وتعذيبا ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[البقرة: ١٨٥]

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، خير من صلي فأحسن الصلاة، وأفضل من صام فأحسن الصيام، وسيد من جاهد فأحسن الجهاد، كان أعبد الناس لله، وأجود الناس علي الناس وكان أعبد ما يكون وأجود ما يكون في رمضان، حينما ينزل جبريل يتدارس معه القرآن، فهو أجري بالخير من الريح المرسلة[2]. صلوات الله وسلامه عليه.

أما بعد... فيا أيها الإخوة المسلمون:

من أسرار الصيام:

فيقول الله تعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

يا معشر المسلمين هذا هو شهر الخير والبركة، لقد فرض الله علينا

---

(١) لفضيلة شيخنا العلامة القرضاوي كتابات خاصة عن الصيام، ولعل أكثرها اتساعاً، وأشملها أحكاماً هو كتاب: « فقه الصيام » كما أن للشيخ في كتابه: « العبادة في الإسلام » كلاماً أدبيا بليغا عن الصيام، ولكنه ليس كلاماً فقهياً، وإن كان لا يخلو الفقه منه. وإنما هو كلام عن: فلسفة الصيام، كلام عن أسرار ومقاصد وحكَم الصيام، وهذه الخطبة تتضمن الحكم والأسرار والمقاصد، إلي جانب إضافات جديدة لم تذكر في كتاب: « العبادة في الإسلام ».

(٢) إشارة إلي حديث عبد الله بن عباس وفيه: كان رسول الله أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان... « والحديث رواه البخاري في الصوم (١٩٠٢) ومسلم في الفضائل (٢٣٠٨).

الصيام في رمضان، وما فرضه إلا لأسرار عليا، وحِكَم بالغة، نعرف منها ما نعرف، ونجهل منها ما نجهل، ويكشف الزمن عن بعضها ما يكشف.

وكم لله من سرٍّ خفيٍّ يدق خفاه عن فهم الذكيّ

فعلينا أمة الإسلام أن نتأمل حكمة الله من وراء هذا الجوع والعطش، وأن ندرك سرّه تعالي في الصوم، حتي نؤديه كما أراده الله، لا كما اشتهاه الناس.

الصوم تقوية للروح:

ولن نستطيع أن ندرك سر هذا الصوم، إلا إذا أدركنا سر هذا الإنسان، فما الإنسان؟ وما حقيقته؟

هل هو هذه الجثة القائمة، وهذا الهيكل المنتصب؟ هل هو هذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم والعظم والعصب؟ إن كان هذا هو ذلك فما أحقره وما أصغره[1]!!

نعم.. ليس الإنسان هو ذلك الهيكل المحسوس، إنما هو روح سماوي، يسكن هذا الجسم الأرضي، وسر من الملأ الأعلي في غلاف من الطين.

ليست حقيقة الإنسان إلا هذه اللطيفة الربانية، والجوهرة الروحانية، التي أودعها الله فيه، بها يعقل ويفكر، وبها يشعر ويتذوق، وبها يدبر ملك الأرض، ويتطلع إلي ملكوت السماء، ومن أجلها أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم، لا لما فيه من حمأ مسنون، وطين معجون ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

ذلكم هو الإنسان، روح علوي وجسد سفلي، فالجسد بيت والروح صاحبه وساكنه، والجسد مطية والروح راكب مسافر، ولم يخلق البيت لنفسه، ولا المطية

---

(١) لفضيلة شيخنا العلامة القرضاوي كلام طيب في كتابه: «الإيمان والحياة» قارن فيها بين نظرة الماديين للإنسان ونظرة المؤمنين له. انظر الكتاب المذكور. فصل: (الإيمان وكرامة الإنسان) ص٥٧ وما بعدها. مكتبة وهبة.

لذاتها، ولكن البيت لمصلحة الساكن، والمطية لغاية الراكب، فما أعجب هؤلاء الآدميين الذين نسوا أنفسهم، وذكروا شهواتهم، وجعلوا من ذواتهم خدما لمطاياهم، وأهملوا أرواحهم، وعبدوا أجسادهم، فللجسد وحده يعملون، ولإشباع غرائزه الخسيسة ينشطون، وحول بطونهم وفروجهم يدورون، نشيدهم الدائم قول القائل:

إنما الدنيــــا طعــــام وشــــــراب ومنــام
فـــإذا فـــاتك هذا فـــعلى الدنيــا الســلام

أولئك الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

ذلكم هو الإنسان روح وجسد، فلجسده مطالب من جنس عالمه السفلي، وللروح مطالب من جنس عالمها العلوي، فإذا أخضع الإنسان أشواق روحه لمطالب جسده، وحكّم غريزته في عقله، استحال من ملاك رحيم إلي حيوان ذميم، وربما إلي شيطان رجيم. هذا الذي ناداه الشاعر المؤمن:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيــه خســران؟
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فـأنت بالنفس لا بالجسم إنسان!!

أما إذا عرف الإنسان قيمة نفسه، وأدرك سر الله فيه، وحكّم جانبه السماوي في جانبه الأرضي، وعني بالراكب قبل المطيّة، وبالساكن قبل الجدران، وغلّب أشواق الروح علي نوازع الجسد، فقد صار ملاكا أو خيرا من الملاك ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** ﴾ [البينة: ٧].

لماذا فرض الله الصيام؟

ومن هنا فرض الله الصيام ليتحرر الإنسان من سلطان غرائزه، وينطلق من سجن جسده، ويتغلب علي نزعات شهوته، ويتحكم في مظاهر حيوانيته ويتشبه بالملائكة، فليس عجيبا أن ترتقي روح الصائم ويقترب من الملأ الأعلي،

ويقرع أبواب السماء بدعائه فتفتح، ويدعو ربه فيستجيب له، ويناديه فيقول: لبيك عبدي. وفي هذا المعني يقول النبي ﷺ: « ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم »(١).

صوموا تصحوا:

وإذا كان في الصوم فرصة -أي فرصة- لتقوية الروح، ففيه فرصة -أي فرصة- لتقوية البدن، فإن كثيرا مما يصيب الناس من أمراض إنما هو ناشيء من بطونهم التي يتخمونها بكل ما تشتهي، غير مفرقين بين ما ينبغي وما لا ينبغي وقد قال النبي ﷺ: « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم أكيلات يُقمْن صُلْبَه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه »(٢).

وإذا كانت البطن مستنقع البلايا، وكانت المعدة بيت الداء، فإن الحمية (أي الامتناع عن الأكل) رأس الدواء، وقديما قال « أبقراط »: (أكل الناس أكل السباع فمرضوا، فداويناهم بأغذية الطيور فصحوا) وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة، ويتخلص الجسم من كثير من فضلاته الضارة. وقد نشرت إحدي المجلات أن ثلاثمائة قد برؤوا من البول السكري بعلاج الصوم، وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: (اغزوا تغنموا وسافروا تستغنوا وصوموا تصحوا)(٣).

الصوم تربية للإرادة:

وفي الصوم تقوية للإرادة، وتعويد علي الصبر، فالصائم يجوع وأمامه شهي الغذاء، ويعطش وبين يديه بارد الماء، ويعف وبجانبه زوجته، لا رقيب عليه في

---

(١) رواه أحمد في المسند (٨٠٤٣) عن أبي هريرة، وقال مخرّجو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده ورواه عبد بن حميد (١٤٢٠)، وابن المبارك في الزهد (١٠٧٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٣٤٩) وابن حبان (١٣٤٨) وهو في الإحسان (٦٧٤) ورواه الترمذي (٢٣٨١) وقال: حديث حسن صحيح، انظر المنتقي (١٢٥١) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٧٠٤).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٨/ ١٧٤) عن أبي هريرة، وقال المنذري في الترغيب: رجاله ثقات، وذكره الألباني في ضعيف الترغيب (٥٧٣) ولهذا لم يذكره شيخنا في المنتقى.

ذلك إلا ربه، ولا سلطان إلا ضميره، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية، يتكرر ذلك خمس عشرة ساعة أو أكثر في كل يوم، وتسعة وعشرين يوما أو ثلاثين في كل عام، فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية، وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصيام؟ التي يفتحها الإسلام إجباريا للمسلمين في رمضان، وتطوعا في غير رمضان.

لقد كتب عالم نفساني ألماني بحثا عن تقوية الإرادة، أثبت فيه أن أعظم وسيلة لذلك هي الصوم.

أما الإسلام فقد سبق علماء النفس، كما سبق من قبل أطباء الجسم، وحسبك أن تسمع نداء رسول الله للشباب: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[1].

ولأن رمضان يعلم الصبر؛ نسبه الرسول إليه، فقال لبعض الصحابة: «صم شهر الصبر رمضان» قال: إني أجد قوة، وإني أحب أن تزيدني، قال: «فصم يوما من كل شهر»[2]، وقال في حديث آخر: «لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم، والصوم نصف الصبر»[3].

وإنما كان الصوم نصف الصبر لأن في الإنسان قوي ثلاثة: قوة شهوية كالتي في البهائم، وقوة غضبية كالتي في السباع، وقوة روحية كالتي في الملائكة. فإذا تغلّبت قوته الروحية علي القوتين: الشهوية والغضبية كان ذلك هو الصبر كله، وإذا تغلبت علي إحداهما كان ذلك نصف الصبر، وفي الصوم يتغلب المسلم علي قوته الشهوانية من بطن وفرج، فكان الصوم حقا نصف الصبر.

تعريف بالنعمة:

ومن حكم الصوم أنه: يُعرّف المرء بمقدار نعمة الله عليه، والإنسان إذا تكرّرت

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٨٨٤) رواه البخاري في النكاح (٥٠٦٥) ومسلم في النكاح (١٤٠٠) عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (٢٠٣٢٣) عن رجل من باهلة، وقال مخرّجو المسند: حسن لغيره، رواه أبو داود (٢٤٢٨) وعبد بن حميد (٤٠٠) والنسائي في الكبري (٢٧٤٣).

(٣) رواه ابن ماجه في الصيام (١٧٤٥) وقال العراقي في تخريج الإحياء: إسناده ضعيف (١٠٥/٣) وذكره الألباني في ضعيف ابن ماجه (٣٨٢).

عليه النعمة قلّ شعوره بها، فإن النعمة لا تعرف إلا بفقدانها، فالحلو لا تَعْرف قيمته إلا إذا ذُقْتَ المر، والنهار لا تعرف قيمته إلا إذا جَنّ عليك الليل، وبضدها تتميز الأشياء.

ففي الصوم معرفة لقيمة الطعام والشراب والشبع. ولا يعرف ذلك إلا إذا ذاق الجسم حرارة العطش، ومرارة الجوع.

رُوي أن الحسن البصري رضي الله عنه كان صائما، فأقبل وقت الفطور فأُتي بكوب بارد من الماء فأمسك به، ورأي نعمة الله في هذا الكوب، وتذكّر من الذي جاء بها، من الذي فجره ينابيع، ومن الذي أنزله مطرا، من الذي ساقه إليه، وظل يفكر حتي أغمي عليه، فلما أفاق قيل له: ماذا أصابك يا أبا سعيد؟ فقال: تذكرت أشياء وأشياء، وتذكرت أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة، حيث ينادي أهلُ النار أهلَ الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء. فيقولون: إن الله حرمها علي الكافرين.

تذكّر الحسن كيف يطلب أهل النار شربة من ماء فلا يجدون، فتذكر نعمة الله، وجدير بمن تذكر نعمة الله أن يشكر الله! ومن أجل ذلك ورد في الخبر أن النبي - ﷺ - قال: عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، أو قال: ثلاثاً أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» (١).

تذكير بحرمان المحرومين:

ومن أسرار الصيام الاجتماعية: أنه تذكير عملي بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، تذكير بغير خطبة بليغة ولا لسان فصيح، تذكير يسمعه الصائم من صوت المعدة، ونداء الأمعاء فإن الذي نبت في أحضان النعمة، ولم يعرف طعم الجوع، ولم يذق مرارة العطش، فلعله يظن أن الناس كلهم مثله، وأنه ما دام

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٩٠) عن أبي أمامة، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف جداً، ورواه الترمذي في الزهد (٢٤٥١) وقال: حديث حسن، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٠٨).

يجد فالناس يجدون، ما دام يطعم لحم طير مما تشتهي، وفاكهة مما يتخير، فلن يحرم الناس الخبز والبقول! فلا غرو أن جعل الله من الصوم مظهرا للاشتراكية الصحيحة، والمساواة الكاملة، وجعل الجوع ضريبة إجبارية، يدفعها الموسر والمعسر، ويؤديها من ملك القناطير المقنطرة، ومن لا يملك قوت يومه، حتي يشعر الغني أن هناك معدات خاوية، وبطونا خالية، وأحشاء لا تجد ما يمسك الرمق، ويطفيء الحرق، فحري بإنسانية الإنسان وإسلامية المسلم، وإيمان المؤمن: أن يرقّ قلبه، وأن يعطي المحتاجين، وأن يمد يده إلي المساكين.

فإن الله رحيم وإنما يرحم من عباده الرحماء، وصدق رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[1].

وقد رُوي أن يوسف عليه السلام كان يكثر الصيام – أو يقلل من الطعام – وهو علي خزائن الأرض، بيده المالية والتموين. فسئل في ذلك فقال: «أخاف إذا شبعت أن أنسي جوع الفقير».

العبودية الكاملة لله:

وفي الصوم قبل ذلك وبعده: تمام التسليم لله وكمال العبودية لرب الناس، ملك الناس، إله الناس، وهذه الحكمة هي القدر المشترك في كل عبادة، والهدف الأسمي من كل فريضة، ولن تكون العبادة عبادة، ولا العبد عبدا إلا بها. يقول رب العباد: «أمرت ونهيت» ويقول العبد: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وما أظهر هذا التسليم والعبودية في الصوم خاصة، فالصائم يجوع ويعطش، وأسباب الغذاء والريّ أمامه ميسرة، لولا خشية الله، والرغبة في رضاه،

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٤١) عن عبد الله بن عمرو، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٣٢).

ولهذا نسب الله الصيام إلي حضرته، وتولّي جزاء الصائمين بنفسه فقال: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهواته وطعامه من أجلي»[1].

أيها الناس ذلكم هو الصوم في الإسلام، لم يشرعه الله تعذيبا للبشر ولا انتقاما، كيف وقد ختم آية الصوم بقوله: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وإنما شرعه الله إيقاظا للروح، وتصحيحا للجسد، وتقوية للإرادة، وتعويدا علي الصبر، وتعريفا بالنعم، وتربية لمشاعر الرحمة، وتدريبا علي كمال التسليم لله رب العالمين.

ومن رحمة رب العالمين: أنه شرع في الصيام رخصة الفطر لمن كان مريضا أو علي سفر، فيفطر ويقضي عدة من أيام أخر. كما رخص للحامل والمرضع أن تفطر وتقضيا إن تيسر لهما ذلك، أو تفتديا بإطعام مسكين عن كل يوم[2].

المسلمون والصيام:

تلك حكم يجب أن نرعاها حق رعايتها، وأن نضعها نصب أعيننا في صومنا حتي يكون صوما يؤدي مهمته، ويفي بالغرض المقصود منه.

فليت شعري هل فقه المسلمون أسرار الصيام، وهل انتفعوا بشهر رمضان؟

أما أسلافنا فقد جنوا ثماره، وتفيئوا ظلاله، واستمدوا منه روح القوة، وقوة الروح، كان نهارهم نشاطا وإنتاجا وإتقانا، وكان ليلهم تزاورا وتهجدا وقرآنا، وكان شهرهم كله تعلما وتعبدا وإحسانا، ألسنتهم صائمة؛ فلا تلغوا برفث أو جهل، وآذانهم صائمة؛ فلا تسمع لباطل أو لغو، وأعينهم صائمة، فلا تنظر إلي حرام أو فحش، وقلوبهم صائمة، فلا تعزم علي خطيئة أو إثم، وأيديهم صائمة، فلا تمتد بسوء أو أذي.

---

(١) رواه مسلم فى الصيام (١١٥١) عن أبى هريرة.

(٢) تحدث فضيلة الشيخ في كتابه: «فقه الصيام» بالتفصيل عن أصحاب الأعذار، وبين فضيلته من يجب عليه الفطر والقضاء ويحرم عليه الصوم، ومن يجوز له الفطر ويجب عليه القضاء، ومن يجوز له الفطر ولا قضاء عليه وإنما عليه الإطعام ... ص ٤١ وما بعدها طبعة مكتبة وهبة.

أما نحن فبئس موقفا وقفناه من رمضان!! جعله الله للقلب والروح، فجعلناه للبطن والمعدة، جعله الله للحلم والصبر، فجعلناه للغضب والطيش، جعله الله للسكينة والوقار، فجعلناه شهر السِّباب والشِّجار، جعله الله للحق والدين، فجعلناه للتين (وقمر الدين)[1]، جعله الله لنغير فيه من صفات أنفسنا، فما غيرنا إلا مواعيد أكلنا، جعله الله تهذيبا للغني الطاعم، ومواساة للبائس المحروم، فجعلناه نحن معرضا لفنون الأطعمة والأشربة، تزداد فيه تخمة الغني بقدر ما تزداد حسرة الفقير!!

الصوم حرب على الثالوث الخطر:

بئس القوم قوم اتخذوا من رمضان موسما للتعطل والتبطل، يأكلون فيه أضعاف ما يأكلون في غيره، وينفقون فيه أكثر مما ينفقون في شهور، نهارهم كسل ومنام، وليلهم شراب وطعام، وسهر جُلّه لغو وحرام.

أما والله لو انتفعنا برمضان كما يريد الإسلام، لكان حربا علي أعدائنا الثلاثة أو الأربعة من: الجهل، والفقر، والمرض، والرذيلة. التي نادي بمقاومتها السّاسَة والمصلحون والكُتّاب والخطباء.

نعم كان حربا علي الجهل، بما يلقي فيه من دروس العصر والعشاء والسحر والصباح، وما يعقد فيه من حلقات للتثقيف والتوجيه.

وكان حربا علي فقر الفقراء، بما يرقق من القلوب الجامدة عليها، فيجود الموسر علي المعسر، ويحسن الواجد إلي المحروم.

وكان حربا علي مرض المرضي، بما تستريح فيه المعدة، وتنتعش فيه الأجهزة من عناء أحد عشر شهرا.

وكان حربا علي الرذيلة، بما يهذب من أخلاق الصائم، ويعوده علي التغلب علي نزوات الجسد، وشهوات النفس.

---

(١) من أشهر المشروبات التى يتناولها المصريون وغيرهم فى شهر رمضان.

نصيحة إلي الصائمين:

أيها الصائمون:

إليكم نصيحتي فاسمعوها: لا تصوموا عما أحل الله وتفطروا علي ما حرم الله، بل اسمعوا قول رسولكم عليه السلام: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(١). فصونوا جوارحكم، ونظفوا قلوبكم، وغُضّوا أبصاركم، واحفظوا ألسنتكم، وكُفّوا أيديكم، واعلموا أن بَعْد العناء روحا، وبعد الظمأ ريا.

قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة بابا يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلن يدخل منه أحد»(٢).

بين الصوم والجهاد:

حقيقة إن في صيام هذه الأيام الملتهبة ما يتعب الجسد ويشق علي النفس، ولكن هذا كله تدريب لأمة ذات رسالة وجهاد علي ملاقاة الشدائد، واحتمال المشقات، وعلي قدر التعب والعناء، يكون الأجر والجزاء، ولنا في سلفنا أسوة حسنة، فقد كانوا يرحبون بأيام القيظ الشديد ليصوموا، طلبا لما عند الله.

بعث رسول الله ﷺ أبا موسي في سرية بحرية مع جماعة، فبينما هم قد رفعوا الشراع في ليلة مظلمة، إذا هاتف فوقهم يهتف: يا أهل السفينة: قفوا أخبركم بقضاء قضاه الله علي نفسه. فقال أبو موسي: أخبرنا إن كنت مخبرا، قال: إن الله قضي علي نفسه أن من عطش نفسه في يوم حار؛ كان حقا علي الله

---

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣) عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٧٠٨) رواه البخاري في الصوم (١٨٩٦) ومسلم في الصيام (١١٥٢) عن سهل بن سعد.

أن يرويه يوم القيامة. فكان أبو موسي يتوخي اليوم الشديد الحر الذي يكاد الإنسان ينسلخ فيه حرا، فيصومه[١].

ورُوي عن علي بن أبي طالب قوله: حبب إلي من الدنيا ثلاث: قري الضعيف، والصيام في الصيف، وحرب أعداء الله بالسيف.

فاصبروا أيه الصائمون نهاركم ولا تسأموا، وقوموا ليلكم ولا تكسلوا، وأحسنوا علي فقرائكم ولا تبخلوا؛ إن الله يحب المحسنين.

أحيوا ليالي رمضان بالقيام الخاشع، والعلم النافع، والتلاوة المرتلة، فعسي أن تصادفوا ليلة القدر فهي خير من ألف شهر.

رسالة إلى المفطرين:

أما أنتم أيها المفطرون المخدوعون فالتوبة التوبة، والإنابة الإنابة، قبل أن يفاجئكم الموت بسكراته، ويأخذكم الله بعذابه، وتندمون يوم لا ينفع الندم.

لقد رأي النبي ﷺ في منامه قوما معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم تسيل دما. فسأل من هؤلاء فقيل: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم[٢].

إذا كان هذا جزاء من يهمل ويتسرع فيفطر قبل وقت الإفطار، فكيف بمن يجاهر بالإفطار نهارا في بلد دينه الإسلام؟!

أرشدوا هؤلاء الضالين أيها الصائمون، وخذوهم بالرفق، وأقنعوهم بالحسني أولا، فإن لم تجد معهم الحسني، فانهروهم بشدة، وخذوهم بقوة، وقاطعوهم في الله، وأبغضوهم لله، فإن أوثق عري الإيمان الحب في الله، والبغض في الله.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٣/١١) وابن المبارك في الزهد (٣/٤١٣) وذكره الألباني في ضعيف الترغيب (٥٧٨) ولهذا لم يذكره شيخنا في المنتقي من الترغيب.

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٩٨٦) وابن حبان (٧٤٩١) وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح وصححه الحاكم علي شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/٤٣٠) وانظر: المنتقي من الترغيب والترهيب للقرضاوي (٥٢١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به) والصيام جنة فإذا كان يوم صيام أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»[1].

وعنه ﷺ: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»[2].

* * *

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٧٠٧) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٤) ومسلم في الصيام (١١٥١) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في صلاة التراويح (٢٠١٤) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠) عن أبي هريرة.

(٤)

كيف نصلح عيوب أنفسنا ؟ [١]

الحمد لله . نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، القائم علي كل نفس بما كسبت، والعليم بأسرارها وإن خفيت، ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢٣٥] .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، كان أشد الناس مراقبة لربه، ومحاسبة لنفسه، ومع ذلك كان يقول لأمته معلما ومرشدا : « يا أيها الناس توبوا إلي الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة » [٢] .

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وصحابه، ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

---

(١) لفضيلة الشيخ القرضاوي حفظه الله سلسلة من الخطب حول تزكية النفوس، خطبها في العامين (٢٠٠٤ م، ٢٠٠٥ م) ومنها :

١ – اعرف ربك . ٢ – حدد معرفتك بدينك .

٣ – الخروج من حب الدنيا إلي حب الآخرة .

٤ – الخروج من سجن الغفلة . ٥ – التوبة .

كما أن لفضيلة شيخنا العلامة كلاماً رائعاً في كتابه (الإيمان والحياة) تحت عنوان (الإيمان والإصلاح) ص ٣٠٦ وما بعدها . أوضح فيه كيفية الإصلاح والتغيير . طبعة مكتبة وهبة .

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) عن الأغر المزَني .

ورضوان الله عن الداعين بدعوته، السالكين سبيله، المجاهدين جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

صلاح النفوس أساس كل شيء:

إن أساس النجاح، ومحور الخير يدور حول النفس البشرية، وإن كتائب النصر والنجاح في الدنيا والآخرة إنما تعتمد علي محور أصيل، وعمود ثابت. هذا المحور، وهذا الأساس هو صلاح النفوس وطهارتها. هذا هو الأساس لكل خير في الآخرة والأولي، فلن يصلح الفرد، ولن يفوز بالخير إلا إذا صلحت نفسه التي بين جنبيه، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠].

ولن تصلح الأمة ولن يصلح المجتمع إلا إذا صلحت نفوس أفراده، واستقامت علي أمر الله، وصارت علي طريق الله المستقبم. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

صلاح النفوس هو حبل النجاة، هو سفينة الإنقاذ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١][١].

---

(١) يجمع كل الدعاة والمسلمين علي ضرورة تغيير وضع أمتنا الراهن. وأن هذا التغيير لابد أن يكون مما هو عليه ليرتقي إلي الحسن ثم إلي الأحسن، وهذا التغيير ولا شك يشمل الأفراد والجماعات. كما يشمل المؤسسات والهيئات، وإذا كان الجميع متفقاً علي التغيير؛ فإنهم يختلفون في طبيعة هذا التغيير، وشكل هذا التغيير، وكيفية هذا التغيير.

ومن هنا فقد نادي الشيخ القرضاوي بفقه التغيير قبل المناداة بالتغيير، فلابد من معرفة سنن التغيير، ولئن كان التغيير السياسي مطلوباً وكذلك التغيير الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، فإن الشيخ يدعو إلي عدم إغفال أساس لابد منه، لأن هذا الأساس ذكره الله في القرآن في صورة قانون من قوانين الله، وسنة من سننه الاجتماعية التي لا تتبدل ولا تتغير، ألا وهو التغيير النفسي، أو علي حد تعبير القرآن «تغيير ما بالأنفس» وهو ما جاء في قوله تعالي: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١]. انظر: السياسة الشرعية / ص٣٢١ مكتبة وهبة.

فعلي كل منا أن يَرقُب هذه الـمُضغة – هذه اللطيفة الربانية – هذه الجوهرة الروحانية التي أسكنها الله به . . عليه أن يراقبها ويؤدبها ويزكيها، حتي تستقيم علي أمر الله عز وجل .

كيف نعالج عيوب أنفسنا :

هذه النفس إذا صلحت صلح كل شيء، وإذا فسدت فسد كل شيء .

أول ما يجب عليك أيها المسلم : أن تعرف عيوب نفسك، فإذا عرفتها فأصلحها .

ومن أين تعرف عيوب نفسك ؟ أين المعلّم الذي يأخذ بيدك وينير لك الطريق ؟

المُعَلم الأول : العلم النافع[1] :

الحق : أن هناك : أكثر من معلّم يرشدك ويعينك في هذا السبيل .

إنَ أول شيء تعرف منه عيوب نفسك، وأول مرآة مصقولة تري فيها عيوب نفسك : هو العلم النافع . فتعلّم وادرس .

اعرف كتاب الله، وسنة رسوله، ففيهما بيان أمراض النفوس وعلاجها، وأدواء القلوب وأدويتها . فعليك بالعلم خذه من أهل الثقات : المعلمين الربانيين، الذين تعلموا في مدرسة النبوة، وأخذوا منها أسوتهم، وكانت لهم تجربتهم في ميدان التربية والسلوك[2] . فانتفع بهم واقتبس منهم، ولا تكن عبدا لهم، بل كن عبداً لله وحده .

---

(١) لقد لاحظ الشيخ القرضاوي كما لاحظ غيره من الناصحين للأمة، أن الشباب الذي وقع في حفرة التكفير والتفسيق والتبديع، والتي جرته إلي التطرف طوراً أو الإرهاب طوراً آخر، إنما كان سببه الرئيسى هو إعراضه عن العلماء، وعزوفه عن مجالسهم ، ونتج عن ذلك أن غاص هؤلاء الشباب في بطون الكتب مباشرة، دون أن يتعلموا فن السباحة في عالم يحتاج إلي سباح ماهر، وغطاس بارع، فخرج هؤلاء الشباب باللؤلؤ والمرجان من أمهات الكتب مشوباً ومخلوطاً بغيره، أو كما يقول الشيخ القرضاوي : دون أن يضعوه علي مشرحة التحليل وطرحها علي بساط البحث، ولكنه قرأ شيئاً وفهمه واستنبط منه، وربما ساء القراءة، أو أساء الفهم، أو أساء الاستنباط وهو لا يدري . انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف / ص٨٩ .

(١) لفضيلة الشيخ كتابان يوضحان منزلة العلم وأهميته في حياة المسلم أحدهما : تحدث فيه عن مكانة العلم ومنزلته، ومبلغ « العقلانية » ومدي « العلمية » فى القرآن، وهو « العقل والعلم=

المعلم الثاني: الأخ الناصح:

ثم من إخوانك وأصدقائك.. فإن الأخ الناصح، والصديق النافع، ليس الذي يجاملني علي حساب الحق، ويداري عليّ عيوبي، وإنما الأخ الحق: هو الذي يعرفني بعيبي، ولا يخشي من غضبي، فغضب الله أشد، وعليّ إذا كنت مؤمنا أن أتقبل نصحه وتوجيهه، فالمؤمن مرآة أخيه. يري فيه ما لا يراه في غيره. واعلم أن الرجل الذي يقول لي: اخش من شرارة النار في ثوبك أشكره علي هذا، وأطفيء هذه الشرارة. فما بالك بالذي يدلني علي الحذر من نار وقودها الناس والحجارة؟!

لقد كان (عمر) يقف علي المنبر ويقول: «رحم الله امرأ أهدي إليّ عيوب نفسي! مرحبا بالناصح أبد الدهر»، وكان يقول لحذيفة – وهو الخبير بأسرار المنافقين – يا حذيفة هل تجد في شيئا من خصال المنافقين؟ فيقول: لا يا عمر؟ ولا أزكي أحدا بعدك.

ويقول عمر مستنصحاً الأمة:

«من رأي منكم فيّ اعوجاجا فليقومني».

من أهدي لك عيبك، وعرفك بنقصك فهذا هو الأخ الناصح، والصديق الصادق، عليك أن تحمده وتشكره.

المعلم الثالث: المجتمع:

ثم من المجتمع الذي تعيش فيه.. تري ماذا يحمد الناس وماذا يذمون، ماذا يحبون وماذا يكرهون؟ ثم قس هذا علي نفسك. إن كانوا يحبون الإيثار فآثر غيرك علي نفسك، وإن كانوا يكرهون الأنانية والأثرة، فقس أخلاقك علي ما يحب المجتمع وما يكره. وأبعد نفسك عن الشر. وهذا إذا ظل المجتمع محافظا علي أصوله وقيمه وثوابته، ولم تجرفه رياح التقليد لمجتمعات أخري مخالفة له، فيقلدها ويمشي وراءها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع[1].

= في القرآن الكريم» والثاني: دراسة موضوعية لبيان موقف الرسول ﷺ في السنة والسيرة بمفهومه العام أو بمفهومه الحديث، وهو «الرسول والعلم»، والكتابان طبعة مكتبة وهبة.

(١) يشير فضيلة الشيخ إلي التقليد الأعمي الذي ينساق وراءه المسلمون ليقلدوا فيه غيرهم دون وعي أو إدراك. وهو الذي حذر منه النبي ﷺ حين قال: «لتتبعن سنن من قبلكم =

المعلم الرابع : الأعــداء :

وهناك معلم رابع تعلم منه عيوب نفسك : هم أعداؤك . وكيف يكون عدوي معلما؟ نعم فإن هناك من أصدقائك وأحبائك : من يدارون عليك، ويسكتون علي عيوبك، أما خصمك فهو الذي يتمني لك الخطأة والغلطة ويبحث عنها ويبرزها إذا عرفها .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

فهم الذين يبصرون الذرّات من عيوبك، ولقد قال إمامنا الشافعي :

عُداتي لهم فضل عليّ ومنة فما باعد الرحمن عني الأعاديا

فهم بحثوا عن زلة فاجتنبتها وهم نافسوني فارتكبت المعاليا

بهذه الأمور الأربعة . نعالج عيوبنا، وندرك نقصنا .

النفس مجبولة علي الخير والشر :

إن النفس ليست شريرة كل الشر، ولكن فيها استعداد للخير، واستعداد للشر استعداد للتقوي واستعداد للفجور، كما قال تعالي : ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ [البلد : ١٠] ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان : ٣] ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ [الشمس : ٧، ٨] .

الأنفس ثلاثة :

وإن النفس أمارة بالسوء كما حكي الله علي لسان يوسف[١] ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٥٣] . النفس أمارة بالسوء، ميّالة إلي المنفعة الدنيوية، ميالة إلي اللهو واللعب، ولكنك تستطيع أن تقهرها علي الحق، وتدفعها إلي الخير، فتتعود عمل الخير وترك الشر .

= شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه » قلنا : يا رسول الله، اليهود والنصاري؟ قال النبي ﷺ : « فمن؟! » رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) عن أبي سعيد .

(١) هكذا كان رأي الشيخ في أول حياته العلمية، علي ما هو مشهور عند الكثيرين، ولكنه الآن يؤكد : أن هذا القول إنما هو قول امرأة العزيز كما يتبين من السياق .

فإذا فعلت شرا كان لك من نفسك السلاح، وكان لك من ضميرك حارس ناقم، يستطيع دائما أن يؤنبك، وأن يدفعك علي الخير إذا أهملته، وهذه هي (النفس اللوامة)، أي التي تلوم صاحبها علي ترك الخير وفعل الشر. تقول لك:

لماذا أكلت هذه اللقمة؟! ولماذا شربت هذه الشربة؟!

ولماذا تكلمت هذه الكلمة؟! ولماذا ضحكت هذه الضحكة؟!

ولماذا نظرت هذه النظرة؟! ولماذا فعلت هذا الفعل؟

﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨] هذه النفس هي التي أقسم الله بها فقال: ﴿ **وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ [القيامة: ٢].

ثم إذا سارت نفسك علي هذا المنوال، وأصبحت تبتعد عن فعل الشر انخرطت إلي مرحلة أسمي، ومرتبة أعلي وأرقي، مرتبة (النفس المطمئنة)، وهي التي ناداها الله في كتابه فقال: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر: ٢٨ - ٣٠].

المشارطة والمراقبة:

عليك أيها المسلم عندما تقوم من نومك أن تشترط علي نفسك شروطاً: ألا تهمل في صلاة، وألا تترك فريضة، وألا تتكلم كلمة فارغة، وأن تعرض عن اللغو.

شارط نفسك علي هذا، واعقد معها عقدا، واكتب عليها صكا، هذا قبل أن تعمل شيئاً، ثم إذا تقدمت للعمل فعليك أن تلزمها برقابة الله، وتذكرها بأن عين الله لا تغفل، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** ﴾ [المجادلة: ٧][١].

---

(١) شعائر الإسلام تنشيء فيما تنشئ قلوباً حية، وضمائر يقظة، وأفئدة سليمة، بل الإسلام كله أراد أن يكون المسلم كذلك، مراقباً لله في السر والعلن، في الظهور والخفاء، في الجلوة والخلوة، =

حكي الإمام الغزالي: أنا شابا غازل فتاة، وراودها عن نفسها، فأبت وامتنعت، فقال لها: ولم؟ ونحن في مكان خال، وليس معنا إلا هذه الكواكب. فقالت له: يا هذا وأين مكوكبها، ومسيرها؟!!

لقد حدثوا أن شيخا أراد أن يمتحن بعض التلاميذ فعقد لهم امتحانا، وأعطي كل واحد منهم عصفورة وسكينا. وقال لكل واحد منهم: اذهب في مكان خال من كل عين واذبحها.

فذهب هذا إلي (قاعة) وأغلقها علي نفسه ثم عاد بها مذبوحة، وذهب الثاني إلي جبل حيث لا إنسان فيه، ولا حيوان، وذبحها. وذهب الثالث وذهب الرابع.. وجاء كل منهم بطائره مذبوحا، إلا واحداً منهم لم يذبح طائره، وجاء به حياً، فقال له الشيخ: لم لَمْ تذبح طائرك؟ فقال التلميذ: لم أجد مكانا إلا من ورائها عينا ترقبني، فقال: أي عين؟ قال: عين الله ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الحديد: ٤].

ولله در القائل:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوتُ، ولكن قل علي رقيب!
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب!

ذكّرها بالرقابة، وأن عليها «بوليسا» سريا يسجل عليك حركاتك وسكناتك، وغدواتك، وروْحاتك، وخطواتك، وكل ما تحدثك به نفسك، يسجل هذا عليك. ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨٠]. ويوم القيامة ينادي المنادي عليهم: ﴿ **هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٩].

= وحده وأمام الناس، وإيمان العبد بالله عز وجل والتزامه بشعائره هو الذي يربي ذلك في نفسه، لذا كان من كلام الله عز وجل قوله: ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨٠]. بهذه الآية ومثلها كثير أراد الله عز وجل أن تصل قلوب أهل الإيمان إلي الحياة، وضمائرهم إلي اليقظة، التي يصل فيها العبد وكأنه يري الله، أو علي الأقل فليعلم بأن الله يراه، وهذا هو معني حديث جبريل في الإحسان: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». متفق عليه. البخاري في الإيمان رقم (٥٠)، ومسلم في الإيمان رقم (٩) عن أبي هريرة.

(٥)

من ثمرات رمضان التوبة[١]

الحمد لله.. تتبدل الأيام وهو لا يتبدل، وتتحول الأشياء والخلائق وهو لا يتحول، وتتغير السنون والأعوام وهو لا يتغير ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص: ٨٨].

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له. دعانا إلى حضرته، ونادانا إلي بابه، وأمرنا جميعا بالتوبة إليه فقال: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٣١].

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أخلص الناس لله، وأعرفهم بالله، وأتقاهم لله... عرف ربه فلم يجهله، وذكره فلم ينسه، وشكر له فلم يكفره، وأقبل عليه فلم يعرض عنه.. ومع هذا كان يقول لأمته معلما ومرشدا: «يا أيها الناس توبوا إلي الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»[٢].

صلوات الله وسلامه علي هذا النبي الكريم، ورضوان الله علي آله وصحابته، ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في يوم الجمعة – ٦ شوال ١٣٧٢ هـ الموافق ١٩ يونيو ١٩٥٣ م.
ولفضيلة شيخنا العلامة القرضاوي خطبتان في الجزء الأول بعنوان: (التوبة) والثانية بعنوان: (أركان التوبة وشروطها)، كما أن لفضيلة الشيخ ضمن سلسلة (تيسير فقه السلوك في ضوء الكتاب والسنة) كتاب بعنوان (التوبة إلي الله) وقصد الشيخ من هذا الكتاب – وكذلك خطبه – إيقاظ القلوب الغافلة ورد العقول الشاردة وتقوية العزائم المسترخية ص٨ طبعة مكتبة وهبه القاهرة/ط الأولي ١٩٩٨ م.
ومما تجدر الإشارة إليه: أن عناصر هذه الخطبة وما جاء فيها من أدلة ودلالات لم تتغير كثيرا عما سجله شيخنا في كتابه (التوبة إلي الله) وهذا إن دل علي شيء فإنما يدل علي رسوخ هذه الأفكار والمعاني منذ زمن بعيد في ذهن الشيخ وفكره.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) عن الأغر المُزَني.

وارض اللهم عن الداعين بدعوته، والسالكين منهاجه، المجاهدين في الله حق جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

وماذا بعد رمضان؟

ها نحن قد ودّعنا رمضان[١]، واستقبلنا شوال.. فماذا ننوي أن نفعل؟

لعلّ هناك كثيرا من الناس قد عادوا سيرتهم الأولي: إلي ترك الصلوات واتباع الشهوات، وساروا في ركاب الشيطان.

إن الشياطين قد انطلقت من عقلها[٢] في شوال، وكثيرا من شياطين الإنس سيعودون علي شياطين الجن ليستمتع بعضهم ببعض، ويتعاون بعضهم مع بعض، علي معصية الرحمن!!

هذا دليل علي أن هؤلاء لم يعرفوا الله حقا في رمضان.

إن المقبول في رمضان من نراه يرجع إلي الله في شوال.

إن علامة قبول الصيام، وأمارة قبول القيام: أن يظل بعد ذلك مع الله، وأن يرجع إليه، وأن يقول قولة أبيه وأمه (آدم وحواء) ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣].

من كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، إن الله محمود بكل لسان، معبود في كل زمان، مقصود في كل أوان، يحب أن يطاع في كل شهر، ويكره أن يعصي في كل حين ﴿ **وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾ [الزمر: ٧]. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال: ٥٨].

---

(١) لفضيلة الشيخ القرضاوي خطبة في الجزء الثالث من الخطب بعنوان: (وقفات بعد رمضان)، وبها معان ماتعة، ووقفات نافعة، فلتراجع (ج٣/٢١٨ - ٢٢٩).

(٢) جمع عقال: وهو القيد وفضيلة الشيخ يشير إلى حديث النبي ﷺ: «إذا دخل شهر رمضان؛ فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين» متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٦٥٢) رواه البخاري في الصوم (١٨٩٨) ومسلم في الصيام (١٠٧٩) عن أبي هريرة.

﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٧] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾

[النساء : ٣٦]

فلماذا نعبد الله في رمضان ونعرض عن الله في شوال؟!! إن أعظم ثمرة يخرج بها المسلم من رمضان هي : التوبة الصادقة النصوح من الذنوب، توبة من المعاصي، توبة من الآثام، ورجوع إلي الله رب العالمين .

موانع التوبة(١) :

هذه التوبة هي الثمرة الناضجة التي يقتطفها المسلم من شهر رمضان . . فماذا يحول بين المسلم والتوبة؟ ماذا يحول بين العبد والرجوع إلي الله تعالي؟

١ - الإستهانة بالمعصية :

لعل هناك قومًا يستهينون بالمعصية، ويستصغرون الذنوب، ولقد كان السلف الصالح يقول : «إن الذنب الذي يخشي ألا يغفر هو : أن يقول العبد : ليت كل ذنب فعلت مثل هذا» .

ولقد أوحي الله إلي نبي من أنبيائه : لا تنظر إلي صغر الهدية ولكن انظر إلي عظمة مهديها، ولا تنظر إلي صغر المعصية، ولكن انظر إلي كبرياء من عصيته بها .

وفي الحديث الشريف : «المؤمن يري ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يري ذنوبه كذباب وقع علي أنفه فقال به هكذا»(٢) .

كان السلف يخشون من الذنب الصغير الضئيل، ونحن الآن لا يهمنا الذنب العظيم .

---

(١) ذكر شيخنا في كتابه «التوبة إلي الله» الموانع من التوبة، وعدد شيخنا من هذه الموانع ستة، وهي :

١ - الإستهانة بالذنوب .
٢ - طول الأمل .
٣ - الاتكال علي أماني العفو الإلهي .
٤ - استحكام الذنوب واليأس من المغفرة .
٥ - الجهل بحقيقة المعصية .
٦ - الاحتجاج بالقدر .

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨) عن ابن مسعود .

ولقد مر جماعة علي أحد الصالحين وهو يبكي بكاءً مراً، ويذرف دموعاً ثخينة، فقال بعضهم: يا أبا فلان: ما لنا نراك تبكي، وما رأينا منك فريضة تركتها، ولا حرمة انتهكتها؟ فقال: والله ما أبكي علي ذنب فعلته، ولا علي واجب أهملته. إنما أبكي لأني أخشي أن أكون قد أتيت ذنبا أحسبه هينا وهو عند الله عظيم(١).

وقد ذكرت عائشة مرة إحدي ضرائرها فأشارت إلي أنها قصيرة القامة! فقال رسول الله - ﷺ - «يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»(٢).

وكان أنس (رضي الله عنه) يقول: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها علي عهد رسول الله (ﷺ) من الموبقات(٣).

هذه هي ضمائرهم الحساسة، وقلوبهم اليقظة، لم يكونوا يستصغرون الذنوب بل كانوا يستصغرون الطاعات.

٢- التسويف وطول الأمل(٤):

فماذا يحول بين العبد وربه؟

استهانة بالمعصية؟ أم تسويف وتأجيل وتأخير؟

إن أكثرنا يقول: غدا أتوب.. ثم يأتي الغد فيقول: بعد غد أتوب.. يقول ابن العشرين: سأتوب في الثلاثين، ويقول ابن الثلاثين: سأتوب في الأربعين، ويقول ابن الأربعين: سأتوب في الخمسين.. وهكذا نري الصغير والكبير، والشاب والكهل، كلهم يُسوّفون ويُؤجّلون، ولا يدرون أن كل امريء مهدد بالموت في أي لحظة، وأن الموت أدني إليه من شراك نعله، ﴿**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**﴾ [النحل: ٧٧].

---

(١) وهو يشير إلي ما ذكره القرآن في قصة أم المؤمنين عائشة وكيف لاكت بعض ألسنة المسلمين حديث الإفك عنها، الذي أشاعه المنافقون فتلقفوه بسذاجة وغباء، ونقله بعضهم عن بعض باستهتار، وبلا تهيب، فجاء القرآن يعقب ويقول: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾ [النور: ١٥].

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٧٥) والترمذي في الأدب (٢٥٠٤).

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٢) عن أنس.

(٤) للمزيد انظر: كتاب الشيخ: (التوبة إلي الله) ص ٢٤٧.

إن كل إنسان يخرج من بيته ولا يدري أيعود حياً أم ميتاً؟ يخرج ولا يعرف أيعود حاملاً أم محمولاً؟ إنك تلبس الثوب فلا تدري أتنزعه بيديك أم تنزعه عنك يد الغاسل؟

إن الأجل مجهول، وإن العمر خاتمته غير معروفة، أخفاها الله عن الإنسان ليبادر إلي التوبة، ويسرع إلي الطاعة، ويفر من المعصية.

إن الذنوب شجرة خبيثة، كلما أذنبت ذنبا، تمكن جذر هذه الشجرة من القلب، فعلي المسلم أن يبادر بالتوبة قبل أن تتراكم الذنوب علي قلبه، فالقلب كالمرآة المجلّوة الصافية، إذا أذنبت ذنبا، نكت فيه نكتة سوداء، فإذا تاب محيت، وإذا عاد صارت نكتة بجانبها، حتي يتراكم السواد علي القلب[1]. فهذا هو الران الذي قال الله فيه: ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾

[المطففين: ١٤]

إن تأخير التوبة، وتسويف الرجوع إلي الله يؤدي إلي أن تتراكم الذنوب علي القلب، فربما ختم علي الإنسان بغير الإيمان، والعياذ بالله!!

وربما جاءه الموت فيقول: ليتني فعلت، ليتني رجعت، هل لي من تأخير؟ هل لي من تأجيل؟؟ وهيهات هيهات أن يكون ذلك، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [المنافقون: ١٠].

٣ - الاتكال علي أماني العفو الإلهي:

ماذا يحول بين العبد وبين التوبة؟

أهو الاستهانة بالمعاصي والذنوب؟ أم هو التسويف والتأجيل؟ أم هو الاتكال علي رحمة الله وعفوه؟

---

(١) يشير فضيلة الشيخ هنا إلي حديث حذيفة وفيه يقول النبي ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها (دخلت فيه دخولاً تاماً) نكت فيه نكتة (نقطة) سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير علي قلبين علي أبيض مثل الصفا (الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرْباد كالكوز مُجَخّياً (مائلاً) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه» رواه مسلم في الإيمان (١٤٤) عن حذيفة بن اليمان.

هذا اتكال المغرور الجاهل .. إن الله كما أخبر أنه غفور رحيم، حذّرنا أن عذابه أليم شديد قال تعالي: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٤٣] وقال سبحانه: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال أيضا: ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ** ﴾ [غافر: ٣]، وقال جل شأنه: ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ** ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠].

فلماذا نأخذ بآية وننسي أخري؟ لماذا نقول: هو الغفور الودود. وننسي قبلها ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾.

لقد كانت السيدة رابعة العدوية [1] تتغني بهذين البيتين وتقول:

ما بال قلبك ترضى أن تدنسه ... وثوبك الدهرَ مغسول من الدنس؟!

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليَبَس!

إن رحمة الله وسعت كل شئ ... ولكن هل يُرمي بها بلا قاعدة ولا نظام .. لقد قال ربنا: ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦]. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [2]. إن رحمة الله واسعة؛ ولكن لمن كتبها؟ ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

إن شؤم الذنب خطير [3] .. إن الله عاتب أنبياءه علي هفوات صغري .. لقد التقم الحوت يونس لغضبة غضبها في غير محلها، وعاتب ربنا نوحًا من أجل كلمة قالها .. ﴿ **إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [هود: ٤٦]، وعاتب الله

---

(١) رابعة العدوية من الشخصيات التي كثر الجدل حولها وحول ما ينسب إليها ولفضيلة الشيخ فتوي كاملة تحدث فيها عن رابعة وما يدور حولها، وما يقبل من كلامها وما لا يقبل، انظر: فتاوي معاصرة (٢/ ٥٠٣ - ٥١٢) طبعة دار القلم.

(٢) إشارة إلي حديث جبريل الطويل، والحديث رواه مسلم في الإيمان (٨) عن عمر ابن الخطاب.

(٣) للإمام ابن القيم كلام طويل في آثار الذنوب وشؤم المعاصي، أطال النفس فيه في كتابه (الداء والدواء) فليراجع.

آدم بل أخرجه من الجنة من أجل لقمة أكلها في غير ما أمر الله ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

ماذا نكون نحن بعدهم؟ وقد نخوض في الذنوب خوضاً، وننغمس في المعاصي انغماساً، ونقول (هو الله الغفور الرحيم)!.

يا ناظرا يرنو بعَينَيْ راقد ... ومشاهدا للأمر غير مشاهد!
أُنسيت نفسك ضلّة وأبحتها ... طرق الرجاء، وهُنّ غير قواصد
تصل الذنوب إلي الذنوب وترتجي ... نيل الجنان بها وفوز العابد!
أنسيت أن الله أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد؟!

أخرج الله آدم بمعصية ضئيلة من الجنة .. فكيف نحن وقد نأتي بالمعصية إثر المعصية، علينا ألا نتكل علي عفو الله فقط، فليس هذا من الرجاء في شئ إنما هذا أمنية فارغة، وحمق باطل، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمني علي الله الأماني»[١].

وقال علي بن أبي طالب: إياكم والاتكال علي الأماني، فإنها بضائع النوكي» أي الحمقي.

والشاعر يقول:

ولا تكن عبد المني، فالمني ... رؤوس أموال المفاليس

وقال آخر:

اعلل بالمني قلبي، لعلي ... أروح بالأماني الهم عنّي!
واعلم أن وصلك لا يرجي ... ولكن لا أقل من التمني!

٤ - اليأس من رحمة الله:

ماذا يحول بين العبد وربه.

أهي استهانة بالمعاصي؟ أم طول الأمل وتسويف وتأجيل؟ أم هو اتكال علي عفو الله؟ أم هو يأس من رحمة الله؟!

---

(١) رواه أحمد (١٧١٢٣) عن شداد بن أوس، وقال مخرّجو المسند: إسناده ضعيف، ورواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٩) وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم وقال: صحيح ووافقه الذهبي (٤ / ٢٥١).

إن الذين ييأسون من رحمة الله، وينظرون إلي الدنيا وقد تقطعت أسبابها، فيعرضون عنه إعراضا، ويصدون عنه صدودا، وينفضون أيديهم من التوبة: جاهلون مخطئون في حق الله .. فإن الله «يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتي تطلع الشمس من مغربها» [١].

إن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم» [٢].

وقال الله في الحديث القدسي: «يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» [٣].

التوبة ثمرة رمضان:

إن المسلم حقا هو الذي اقتطف أعظم ثمرة من رمضان، وندم علي المعصية، وعزم علي الطاعة، واحترق قلبه بنار الحسرة علي ما فات، ثم عاد مخلصا .. فإن باب الله ليس عليه حاجب ولا بواب .. بابه مفتوح لكل طالب حتي تطلع الشمس من مغربها.

ليس عجيبا أن يخطئ ابن آدم فهو مخلوق من طين، والطين لا يخلو من كدر، وما سمي الإنسان إنسانا إلا لنسيانه ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ** ﴾

[طه: ١١٥]

وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمن كمثل السنبلة تخر مرة وتستقيم مرة» [٤].

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٩) عن أبي موسي.

(٢) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩) عن أبي هريرة.

(٣) رواه (الترمذي) في التوبة (٣٧٨٩) عن أنس بن مالك وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٠٥) ولمسلم عن أبي ذر: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٦).

(٤) رواه أحمد (١٤٧٦٢) عن جابر وقال مخرجو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، ورواه عبد بن حميد (١٠١٠) والبزار (٤٦). وقال الهيثمي: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام، ورواه البزار ورجاله ثقات (٢/٢٩٣).

إنما العجيب كل العجيب: أن يتشبث بالذنوب، ويتمادي في الخطأ ويصر علي عدم مصالحته لربه.

أما إنه إذا أذنب ثم تاب فإن الله يقول: ﴿ **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً** ﴾ [الإسراء: ٢٥] والأواب: كثير الأوبة إلي الله، كلما عصي ربه آب إليه، ولم ييأس من روحه. فإن مغفرة الله تعالي أوسع من ذنوبه، وأكبر من معاصيه.

وقال النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوّابون» [١].

أيها المسلم:

إن أعظم ثمرة تقتطفها من رمضان: إنما هي توبة صادقة، توبة نصوح نقرع بها باب ربنا، ونغسل بها ذنوبنا بدموعنا، ونرجع بعدها بقلوب صافية، وعزائم جديدة، لا تنثني للشيطان، ولا تلين للغواة الغزاة، الذين يغزون القلوب، كما يغزو الاستعمار البلاد والشعوب.

علامة التوبة النصوح [٢]:

وعلامة هذه التوبة: أن يهجر الإنسان بيئة الشر ويبحث عن وسط خير، وبيئة طيبة كريمة ليتقبله الله، ويسلكه في حزبه الغالبين، ويدخله برحمته في عباده الصالحين.

وقد رُوي في بعض الآثار القدسية أن الله يقول: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلي العباد نازل،

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٦١٢) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١) والحاكم وقال: حديث صحيح الإسناد، وقال الذهبي: علي لين (٤/٢٤٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٢٩) وانظر: المنتقي من الترغيب والترهيب (١٩٢٧).

(٢) ذكر فضيلة الشيخ في كتابه (التوبة إلي الله) علامات التوبة وأطال النفس هناك، ونقل الشيخ هناك جزءاً من الكلام النفيس لابن القيم في مدارج السالكين. فليراجع ص ١١٨ وما بعدها.

وشرهم إليّ صاعد أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر شئ إلي، من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن أراد رضاي أردت ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيارتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم، فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.

من آثرني علي سواي آثرته علي سواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها، إلي سبعمائة ضعف، إلي أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له. أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي وعفوي سبق عقوبتي.

* * *

(٦)

نساء اليوم[١]

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أدي الأمانة وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا علي المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا. صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وأصحابه، ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ورضي الله عمن دعا بدعوته، ونهج نهجه، وسلك سبيله، ونصر دعوته إلي يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

أصل الداء ومحور البلاء:

لقد تحدثنا قبل الجمعة الماضية عن الشباب وما عليه من واجبات[٢]، وما يعقد عليه من آمال، ورأينا كيف فسد الشباب، وكيف ظل يتسكع في

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في: ٢٦ من ذي القعدة ١٣٧٢هـ الموافق: ٧ أغسطس ١٩٥٣م.

(٢) لشيخنا حفظه الله اهتمام بالغ بالشباب في كتبه وخطبه، ومحاضراته وتوجيهاته، وله محاضرة مطبوعة بعنوان (واجب الشباب المسلم اليوم) ويظهر اهتمام شيخنا البالغ بالشباب في خطبه، حيث جمع الجزء الرابع من خطب فضيلته أكثر من خطبة تتعلق بالشباب ومنها: حال شبابنا اليوم – حال فتياتنا اليوم – وصايا للشباب المسلم المغترب.

الطرقات، وكيف نسي مهمته، وأغفل واجبه، وتركه الآباء، وأطلقوا له العنان، وأهمل في حقه أولياء الأمور، ولكنا بجانب ذلك لا ننسي فساد النساء[1]. إذا ذكرنا الشباب وإذا تألمنا للشباب فيجب أن نذكر أمرا آخر هو: أصل الداء، ومحور البلاء، يجب أن نذكر: فساد النساء فإذا فسد النساء فسد الشباب، أمران متلازمان، كل منهما سبب ونتيجة للآخر.

كيف نطالب الشباب بالاستقامة وبالسير علي الجادة، وعلي أمر الله وكيف يتجنب الخطايا، ويبتعد عن طريق الشيطان؟ وهو إذا سار سارت الفتنة بجانبه، إذا تطلع عن يمينه وعن شماله لم يجد إلا الخلاعة مجسمة، والفجور يسعي علي قدمين.

كيف نطالب الشباب بالاستقامة، والحياة بجانبيه تدعوه إلي الإثم ، وتغريه بالفسوق، وتحضه علي الرذيلة؟

كيف نضع الفحم بجوار النار، ثم نقول له: يا فحم إياك أن تشتعل؟!

أدر بصرك علي هذا المجتمع الذي نعيش فيه ثم انظر ماذا تري. تري فيه تحللا، وتري فيه إباحية، وتري فيه فسادا عريضا.

نساؤنا ونساء السلف:

لقد كانت المرأة أيام السلف الصالح تستحي أن تكشف النقاب عن وجهها، وكانت تعتقد أنها ردَّة مكنونة، وجوهرة مصونة، إذا تعرضت لعبث الأيدي احتقرت وابتذلت.

أما المرأة في هذه الأيام: فقد أصبحت تعتقد في نفسها أنها دُمْيَة للعبث واللعب، تخوض الطرقات، وتزاحم الرجال بالمناكب في الأحفال والمراقص.

---

(١) لشيخنا - أطال الله عمره وحسن عمله - اهتمام بالغ بالمرأة، فهو نصير من أنصارها، ومنصف من منصفيها، نعم هو كذلك من أبرز الدعاة الذين أنصفوا المرأة من الظلم الاجتماعي البين، الذي ينسب أحيانا إلي الدين والدين منه براء، لكن إنصاف الشيخ للمرأة ليس كإنصاف دعاة التحرير أو (التحليل) وإنما هو إنصاف نابع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ولهذا رأينا قلم الشيخ لا يفتأ يُذكّر بالمرأة وما لها وما عليها، ومن ذلك: مركز المرأة في الحياة الإسلامية، النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه، فتاوي للمرأة المسلمة وأخيرا: بحثه الأصيل في (دية المرأة).

أما المرأة الآن فقد كشفت برقع الحياء عن وجهها وخالطت الرجال كأنها رجل، أو أقل حياء من الرجل، مع ما ورد في الآثار: «لو أن الله لم يستر المرأة بالحياء لكانت لا تساوي كفا من تراب» فكم تساوي المرأة اليوم بميزان الإسلام وقدفقدت الحياء وقلدت المرأة الغربية شبرا بشبر، وذراعا بذراع؟!

اكتبوها في مكارم الأخلاق:

حدثوا أن امرأة اشتكت زوجها بالمتأخر من مهرها، فذهبت إلي القاضي، وأراد القاضي أن يري الشهود وجهها. فقالت المرأة: ولماذا هذا؟ فقال القاضي: لابد من أن يري الشهود وجهها ليكون الحكم عادلا. فقالت: إذا أدي الأمر إلي أن يري الشهود وجهي فأشهدكم أني تنازلت عن حقي. وبلغ ذلك الزوج، فقال: أما وقد فعلت ذلك، فإني أعطيها ما طلبت بلا محاكمة ولا قضاء. فقال القاضي: تكتب هذه من مكارم الأخلاق!

هذا مع أن القول الصحيح: إن النقاب فضيلة – لا فريضة.

هكذا كان المجتمع الإسلامي، وكانت الفضيلة في قوم أشربت قلوبهم الإيمان.

عُرْي مَقيت وتبرج مرفوض:

ماذا نري اليوم؟ نري ما قاله رسول الله ﷺ: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»(١).

هذا ما نري اليوم، آنسات وهن متبجحات، وزوجات وهن متحللات، لابسات وهن عاريات.

إي وربي.. ملبس يصف ما تحته، ويكشف عما وراءه كأنما صنع من زجاج، لا يستر عورة، ولا يغطي مكشوفا، فكيف نرضي لأنفسنا أن نصل إلي هذا؟

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨) عن أبي هريرة ومطلع الحديث: «صنفان من أهل النار لم أرهما ...» وذكر منهما هذا الصنف من النساء.

إنك لو ذهبت إلي أحد الشواطيء والمصايف، ورأيت ما هناك لهالك ما رأيت. تري النساء العاريات، أو شبه العاريات. تري الحياء وهو يذبح، تري الفضيلة ودمها يراق، تري الأجسام التي تعرض لحوما رخيصة تباع علي أعين الناس. وبعد هذا يقال: مسلمون ومسلمات[1]! وقد قال النبي ﷺ: «أيما امرأة نزعت ثيابها في غير بيت زوجها، إلا هتكت ستر ما بينها وبين ربها»[2].

وهاهن اللاتي يخلعن ثيابهن علي «البلاج» وعلي جوانب البحار، وعلي مرأي من الشباب والرجال.

أي رجولة بقيت للرجل الذي لا يغار؟! وأي أنوثة بقيت للمرأة التي لا تخجل؟!!

إذا لم تخش عاقبة الليالى ... ولم تستحى فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

فساد المرأة فساد لكل شيء:

إن الأمة التي تفسد فيها المرأة يفسد فيها كل شيء.

بفساد المرأة يفسد الشباب، وبفساد الشباب تفسد الأمة، وبفساد الأمة يفسد اجتماعها، تفسد سياستها، ويفسد جيشها، وتفسد شرطتها، ويفسد اقتصادها، لأن الشباب بمثابة قلبها، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله.

ويقول رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر علي الرجال من النساء»[3].

---

(١) لا يقصد فضيلة الشيخ نفي الإسلام عن هؤلاء، فهو يرفض التكفير بالمعاصي حتى وإن كانت كبائر، إنما يقصد نفي الإيمان الكامل. راجع رسالة الشيخ (ظاهرة الغلو في التكفير).

(٢) رواه أحمد (٢٤١٤٠) عن عائشة وقال مخرجو المسند: حديث حسن، وأخرجه الدارمي (٢٦٥١) وأبو يعلي (٤٣٩٠) ورواه أحمد أيضا برقم (٢٦٥٦٩) عن أم سلمة بلفظ: «أيما امرأة نزعت ثيابها في غير بيتها، خرق الله لها سترا»، وقال محققو المسند: حسن لغيره.

(٣) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٧٤٤)، رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠) عن أسامة بن زيد.

وإنما تكون المرأة فتنة إذا تركت مكانها الطبيعي، ومقرها الفطري، إذا فقدت خلق الحياء، الذي هو حليتها قبل الذهب والجواهر. تكون فتنة إذا تركت بيتها، وخرجت إلي الشارع لغير حاجة، إلا لتجذب أنظار الرجال، وتثير غرائز الشباب! المرأة هي مديرة البيت أو مربيته ورئيسته، تطهو طعامه، وتنظم أثاثه، وترعي أولاده، وتعمل ما تستطيع من راحة لزوجها.

مكانها أن تجعل البيت جنة من جنان الفردوس فى الدنيا. فيه راحة البدن، وسكون النفس، وطمأنينة القلب، ونعيم الحياة، يجيء الرجل من عمله متعبا فيرتاح في بيته، منغصا فيسعد بين أهله، فما للحال أصبحت غير الحال؟!

لمن تكون الزينة؟

يفرض الإسلام أن تتزين المرأة في بيتها وأن تتجمل وتتعطر لزوجها، ولكن الآية قد انقلبت، تظل المرأة في البيت علي أسوأ حال. تلبس الخلق البالي من الثياب، حتي إذا تهيأت للخروج إلي الشارع وقفت أمام المرآة ساعة، أو أكثر، تضع ألوان الأصباغ وفنون المساحيق.

نعم تطمئن علي أناقة الملبس، وجمال الهندام، وروعة المنظر، وتصنع النماذج والبروفات، للبسمات والضحكات، واللفتات والإشارات.

أجل تقف المرأة ساعة أو ساعات، وتكسل أن تقف بين يدي الله دقائق معدودات، وتخرج المرأة بكل ما عندها من زينة، وبكامل ما عندها من مغريات الفتنة، تعرض نفسها للناس كأنها تقول لهم: هيا انظروا وتأملوا!

ما هكذا تكون الفضيلة، وما هكذا يكون الحياء!! ما هذه إلا الرذيلة والخلاعة التي يبيض الشيطان فيها ويفرخ، والتي يعشش فيها إبليس، ويتخذ منها أحابيله ومصايده.

لقد قال إبليس لمثل هذه المرأة المتبرجة المتمردة علي طبيعتها: أنت موضع سري، وأنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي بك أرمي فلا أخطيء.

فهل عرفنا ما علينا؟ هل ربّي الأب ابنته، وراقب الزوج زوجته، ونصح الأخ أخته؟ وأصبح كل منا عينا يقظة متطلعة إلي ما يدور خلفه، وإلى ما يدبر حوله.

ربوا نساءكم وإلاّ:

يجب أن يغرس الأب في ابنته منذ نعومة أظافرها الفضيلة، ويؤدبها بأدب الله ورسوله، ويعلمها معاني الحياء، ومعني احمرار الخد حينما تذكر كلمة نابية.

حُمْرة خد الفتاة دليل علي وجود الحياء فيها.. أما أولئك النساء المتفلتات فتستمع إحداهن الكلام القبيح وتضحك له وتقهقه.. وتري المرأة تتأبط ذراع الرجل الأجنبي عنها. والفتاة تتأبط ذراع الفتي.. حقائق مسترذلة.

إنه إذا استجملت[1] الناقة، فما أشد المصيبة. وحينما يتخنث الشباب، وتسترجل المرأة، وتستجمل الناقة، ويستنوق الجمل. وقد رُوي عن النبي ﷺ: «كيف أنتم إذا طغي نساؤكم – أي خرجن علي رجالهن وطبيعتهن – وفسق شبابكم، وتركتم جهادكم؟» فقال الصحابة: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم. والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟» قالوا: وكائن ذلك يارسول الله؟ قال: «نعم. والذي نفسي بيده، وأشد منه سيكون!» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا، والمنكر معروفا. قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم. والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟» قالوا: وكائن ذلك يارسول الله؟ قال: «نعم. والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون، قال الله تعالي: بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران»[2] هكذا علمنا هذا الحديث الشريف، كيف يتوالد الفساد، ويتسلسل الانحراف.

كأن الفساد سلسلة متماسكة الحلقات، حلقة تتبعها حلقة.

---

(١) استجملت الناقة: أى صارت جملا، أو حاولت أن تكون.

(٢) رواه أبو يعلي (١١ / ٣٠٤) عن أبي أمامة، وقال الحافظ العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف، دون قوله: «كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف» ورواه أبو يعلي من حديث أبي هريرة مقتصرا علي الأسئلة الثلاثة الأولي، وإسناده ضعيف (٢ / ٣٨٠)، وذكر الألباني المختصر في السلسلة الضعيفة (٥٢٠٤).

تطغي النساء، فيفسد الشباب، فتضعف الهمم، فيترك الجهاد، فيترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، فإذا فشا المنكر أنس الناس به، واطمأنوا له، صار المعروف منكرا، والمنكر معروفا.

ثم تتدرج الحال من سيىء إلي أسوأ. فيأمر الناس بالمنكر وينهون عن المعروف ، شأن مجتمع المنافقين الذي وصفهم الله بقوله: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ** ﴾ [التوبة: ٦٧] إنها فتنة يصير الحليم فيها حيران.. بدأها طغيان النساء وفساد الشباب.

إن القرآن الكريم يقول: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ** ﴾ [النساء: ٣٤]، ولكن العصر الحديث ومنطق الحضارة الأوروبية يقول: (النساء قوامات علي الرجال).

المرأة أصبحت تتحكم في زوجها وتمسك بزمامه، وتبدد ثروته في أحدث الأزياء وأغلي الأصباغ.. فتعس عبد الزوجة. وفي الحديث: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شوري بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاؤكم، وأموركم إلي نسائكم، فبطن الأرض خير من ظهرها»(١).

يا أيها الناس، يا أيها المسلمون: عودوا إلي الفطرة، عودوا إلي فضائل الإسلام.. ليعرف الرجل حقه، ولتعرف المرأة وظيفتها، وليعرف الشباب رسالته، وليطلب كل ما له، ويؤدي ما عليه والله معنا ولن يترنا أعمالنا.

يقول رسول الله ﷺ: « ثلاثة لا يدخلون الجنة: الديوث، والرجلة، ومدمن خمر» قالت الصحابة: أما مدمن الخمر فقد عرفناه يا رسول الله، فما الرجلة من النساء؟ فقال: التي تشبَّه بالرجل»(٢).

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٦٦)، وقال: حديث غريب، وذكره الألباني في ضعيف الترغيب (١٥٥٧).

(٢) رواه الطبراني عن عمار بن ياسر، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني، وفيه مساتير وليس فيهم من قيل إنه ضعيف (٤ /٣٢٧). قال القرضاوي في المنتقي: فالحديث ضعيف، ولكنه حسن بشواهده كما أشار المنذري (٢ /١٧٣) وذكره الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٦٧).

لا تسمعوا لهذه الشائعات :

كأني أحس ببعض الجاهلين الذين ضلت عقولهم، أو المغرضين الذين مرضت قلوبهم، يشيعون عنا : أننا نريد أن نحجر علي فم المرأة حتي لا تتكلم، وعلي صدرها حتي لا تتنفس، وعلي عقلها حتي لا تتعلم، وعلي قلبها حتي لا تحب ولا تكره، وعلي جسدها حتي لا تتزين. لا نعجب أن يشيعوا عنا مثل هذا، فالغرض مرض، والهوي إله معبود ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** .... ﴾

نظرة الإسلام للمرأة :(١)

ونسي هؤلاء أو تناسوا أن الإسلام أول رسالة كرّمت المرأة من هوان، وأعزتها من ذل، وعلمتها من جهل، وانتشلتها من هوة سحيقة، ونقلتها من متاع رخيص إلي إنسان عاقل، له حقوق وعليه واجبات!! إنسان ذي أهلية كاملة للتكليف، وله ذمة مالية كاملة، يملك ويتصرف، ويبيع ويشتري كما يشاء. وجعلت طلب العلم فريضة عليه، كما هو فريضة علي الرجل.

وصنعت في مصنع البطولة نساء مسلمات بجانب الرجال المسلمين.

لقد كرم الإسلام المرأة بنتا لأب، وكرمها زوجة لرجل، وكرمها أما لأولاد..

نعم كرمها الدين بنتا فأنقذها من الوأد المقيت، وأنكر هذا الجرم الشنيع ﴿ **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** ﴾ [التكوير : ٨-٩] وجعل ولادتها بُشْري، وتربيتها رحمة ومثوبة.

وكرمها زوجة فجعل لها مثل ما عليها، إلا درجة الإشراف والقوامة للرجل، وأمر بمعاشرتها بالمعروف ومعاملتها بالحسني، وجعل الزواج بها من آيات الله البينات، ومن نعمه الباهرة « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »(٢).

---

(١) للمزيد من تكريم المرأة راجع ما ذكره فضيلة الشيخ في كتابه : (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده) ص٣٢١ وما بعدها، وانظر كذلك : (مركز المرأة في الحياة الإسلامية) ص٩ وما بعدها.

(٢) رواه مسلم في الرضاع : (١٤٦٧) عن عبد الله بن عمرو.

وكرمها أمّا، فجعل الجنة تحت أقدامها، وضاعف الوصية بها « من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك »[1].

وكرمها مثل ذلك، عضوا في المجتمع المؤمن ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]

فهل بعد هذا التكريم من تكريم لو فقهوا؟ وهل بعد هذه العناية من عناية لو أنصفوا؟ ولكنهم لايفقهون ولا ينصفون.

إنما تنفع المقـــالة فى المرء إذا صـادفت هوى في الفـؤاد

من حقوق المرأة فى الإسلام:

نحن نطالب بحق المرأة - بل واجبها - في أن تتعلم ما أمكنها من علوم الدين والدنيا. فالعلم ليس مقصورا علي الرجال، وطلب العلم فريضة علي كل مسلم ومسلمة.

ونطالب بحق المرأة أن تعمل، وأن تهيأ لها سبل العمل الملائم لها، ما دامت ملتزمة بأدب المسلمة في اللباس والمشي والنظر والحركة واللقاء بالرجال.

ونطالب بحقها - بل واجبها - أن يكون لها نشاطها في خدمة المجتمع، وعمل الخير، والمشاركة في الدعوة إلي الله، وتعليم الناس الخير.

أما أن تتمرد المرأة على أنوثتها، وتتنكر لفطرتها ورسالتها، وتتحدى الأمومة الكامنة في حناياها، لتذرع الشوارع ذهابا وإيابا، ولتكون نائبة من (النوائب)، أو وزيرة من (أوزار) الدولة، أو سفيرة من (السفائر)، فتذهب إلى أمريكا، وتخلف زوجها في مصر ينعي الوحدة، ويشكو الوحشة، فليس هذا مما يشرّف المرأة أو يسعدها، فليتها تعرف قدرها فتعود إلى عرينها، تربي فيه أشبال اليوم وأسود الغد.[2]

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٦٥٢)، رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٨) عن أبي هريرة.

(٢) كانت هذه أفكار الشيخ في شبابه عن المرأة، وهي متفقة في عمومها مع آرائه اليوم، إلا في الحقوق السياسية للمرأة، وقد عرفت مرحلة الشباب بالحماسة والفتوة، ثم نضجت أفكار الشيخ، نضوجا علميا، تؤيده الحجج، وتؤصله الأدلة والبراهين، لهذا عدل الشيخ عن التشدد في هذا الأمر، وأفتي بمشروعية ترشيح المرأة للمجالس النيابية، وتوليها المناصب القضائية والسياسية =

لا. لا يا أخت فاطمة الزهراء، وعائشة أم المؤمنين، وأسماء ذات النطاقين، وسكينة بنت الحسين.

عودي إلي عشك الأمين، عودي إلي حضنك المكين، عودي إلي ميدانك الذي خصصت به دون الرجال، فرابطي فيه، وجاهدي هناك بسلاح القدوة الحسنة، والتربية الحية والخلق المتين.

عودي يا أختاه ولا تسمعي عواء ذئاب الطرقات، وحيل الصقور التي تريد إخراجك من عشك الوديع.

اسعي يا أختاه: أن تخرجي لنا عمرا كعمر، وخالدا كخالد، ومعاذا كمعاذ. ربي الأجيال، واصنعي الأبطال، وقومي علي تنشئة الرجال، ورحم الله شاعر النيل الذي قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق!

عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال: «صنفان من أهل النار لم أرهما: رجال معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1].

والحديث كما نري من أعلام النبوة، فهو تصوير دقيق من وراء الغيب لنساء عصرنا، كما ربط بين الاستبداد السياسي والانحلال الأخلاقي، وهو أمر واقع.

ادعو الله يستجب لكم..

= وقد استند الشيخ في هذا إلي أئمة أعلام، منهم: أبو حنيفة حيث أجاز للمرأة أن تتولي القضاء، فيما تجوز شهادتها فيه؛ أي في غير الأمور الجنائية، وزاد الطبري وابن حزم جواز توليتها القضاء في الجنايات وغيرها، ومما يجدر التنبيه عليه: أن الشيخ لا يعد هذا واجبا لازم الحدوث، ولكن ينظر إليه في ضوء مصلحة المرأة، ومصلحة الأسرة، ومصلحة المجتمع، ومصلحة الإسلام.

راجع فتاوي معاصرة (٢ / ٣٢٠) وما بعدها، وانظر: مركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٢٩ وما بعدها.

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨) عن أبي هريرة ومميلات: يعلمن غيرهن الميل، ومائلات: يمشن المشية المائلة.

(٧)

هذا ماضينا فأين حاضرنا ؟؟ !![1]

الحمد لله يعز من اعتز به، ويهدي من اعتصم بحبله، وينجي من التجأ إلى جنابه ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣]

سبحانه لا إله إلا هو. أحمده وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه. ورضي الله عن آله وأصحابه الذين كانوا يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع، وكانوا رهبان الليل وفرسان النهار، وكانوا قادة الدنيا وأئمة الدين، فرضي الله عنهم، وحشرنا في زمرتهم. اللهم احشرنا في زمرتهم يا رب العالمين؛ يوم يحشر المتقون إلى الرحمن وفدا، ويساق المجرمون إلى جهنم وردا.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

بين الأمس واليوم:

ننظر إلي ماضينا ثم نقارن بينه وبين حاضرنا، فيرتد الطرف خاسئا وهو حسير، باكيا والقلب حزين، نعود وتفيض العيون عبرات وعبرات، ويوقد في القلب حسرات وحسرات.

كنا أقوياء؛ فأصبحنا ضعفاء!!

كنا أعزة؛ فصرنا أذلاء!!

كنا أغنياء، فبتنا فقراء!!

كنا سادة؛ فأصبحنا عبيدا!!

كنا نحكم الدنيا؛ فأصبحنا أذل المحكومين!!

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في ١١ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ، الموافق ١٨ ديسمبر ١٩٥٣م.

كانت كلمتنا هي المسموعة، ورأينا هو السائد، وقولنا صدق، وحكمنا عدل، فأصبحنا لا يُسْمع لنا رأي، ولا يُطاع لنا أمر، ولا يُحترم لنا قول، بل تعزز علينا الذليل، واستقوى علينا الضعيف، واستنسر بأرضنا البغاث. حتى الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة أصبحوا يذيقوننا كؤوس الأذى ومرير العذاب، ونحن مع هذا غافلون، وفي سكرتنا لاهون، وفي غمرتنا ساهون.

قوة يحسب لها ألف حساب:

لقد كنا أقوياء. وكانت الدنيا تحسب لنا ألف حساب وحساب. وكان الشرق والغرب يعرف لنا قدرنا وحقنا، ويدرك قوتنا وعزتنا. لقد صاحت امرأة في بلاد الروم للمعتصم العباسي فقالت - حينما أريد لها الذلة -: وامعتصماه.. وبلغ نداؤها الخليفة المعتصم، رغم الجبال والبحار، فلم يسد أذنا من طين، وأذنا من عجين، ولم يبعث باحتجاج تافه حقير، ولم يرسل خطابا تهديديا، ولكنه كان مجيبا جوابا واقعيا. جوابه - احتجاجه - أن جَيّش الجيوش، وجَنَد الجنود لتؤدب أعداء الله المستكبرين(١).

وفي عهد عمر بن عبد العزيز بلغه أن رجلا أسيرا مسلما في بلاد الروم أهانه آسروه واستذلوه، فأرسل (عمر) هذه الكلمات بمثابة إنذار وتهديد لملك الروم. قال: أما بعد.. فقد بلغني أنكم أردتم أن تستذلوا أسيراً مسلما كتب الله له العزة، فإذا وصلك خطابي هذا فأطلق سراحه، وفك أسره، وإلا بعثت إليك بجنود أولها عندك وآخرها عندي! وما كان لهؤلاء الأعداء إلا أن أطلقوا سراحه، وخلّوا سبيله(٢).

وكان الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد يتحدي السحابة في السماء، ويقول لها بعد أن تحركت وبعدت عن بغداد. شرِّقي أيها السحابة أو غرّبي، وأمطري حيث شئت، فسيأتيني خراجك.

هكذا كنا أقوياء.. كانت جيوشنا تنطلق في أرض الله. القرآن في صدورهم، والسيوف في أيديهم، والإيمان في قلوبهم، لا دنيا يريدونها، ولا أموالا يطلبونها، ولا سلطانا يبتغونه، ولا جاها يتطلعون إليه. فهم يعلمون أن المال ظل زائل، وأن الجاه عرض حائل، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة،

---

(١) للمزيد راجع «فتح عمورية» تاريخ الطبري (٥/٢٣٣).
(٢) راجع القصة في كتاب (عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم) ص ١٤٣ - ١٤٤.

(ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي كافرا منها شربة ماء .)[1]
ولكنهم انطلقوا يدعون إلى الله، ويهدون البشرية للتي هي أقوم، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور وذهب بعضهم[2] إلى (رستم) قائد الفرس. فدخل هذا العربي المسلم المجاهد، على هذا القائد، وحوله الخدم والحشم، والحجاب والحرس، والعرش والتاج، والسندس والاستبرق، وظن هؤلاء أن المظاهر والزخارف والزينات ستأخذ بلباب هذا العربي المقبل من الصحراء القاحلة، والأرض المقفرة. ولكن الرجل المسلم - دخل على القائد الكبير - يدوس على الوسائد، لايبالي أخرقها برمحه؟ لم تغره هذه البسط والنمارق، والزرابي، والمظاهر.

ثم دخل على القائد فجلس بجواره. فغضبوا وكلموه في ذلك فقال: كنت أحسب أنكم مثلنا، ما كنت أحسب أن بعضكم أرباب لبعض؟! نحن أخوة بعضنا لبعض. أميرنا كواحد منا، يجلس ونجلس معه، ويحادثنا ونحادثه، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابًا من دون الله، ثم قال له: من أنتم؟ فقال له: نحن قوم قد ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلي عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلي سعتها، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام. فمن تبعنا إلي ذلك فله ما لنا وعليه ما علينا، ومن وقف في سبيلنا، وصدنا عن غرضنا، قاتلناه حتى نقضى إلي موعود ربنا.. قال: وما موعود ربكم؟ قال: الجنة لمن مات والفوز والنصر لمن بقي.

هكذا كانت قوتهم ، وهكذا كان جهادهم وعزتهم.

كنا أغني الأمم:

وكانوا أغني الناس في الدنيا مع أنهم زهدوا في زخارفها، ووضعوها في أيديهم ولكنهم لم يسكنوها في قلوبهم، وتُقبل إليهم بوجهها وهم عنها معرضون.. كانوا أغني الناس.. بحثوا عن فقير مسلم في عهد عمر

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢١) وابن ماجه في الزهد (٤١١٠) عن سهل بن سعد، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٨٩).

(٢) هو ربعي بن عامر، والمعركة: القادسية، وقائدها: سعد بن أبي وقاص، وفيها دارت حوارات ومراسلات بين جند المسلمين وقادة الفرس. انظر: تاريخ الطبراني (٢ / ٤٠١).

ابن عبد العزيز ليعطوه الزكاة فلم يجدوا. وقالوا: لقد عمّ عدل الإسلام الجميع، فقال عمر: اشتروا بها رقابا فأعتقوها. أي بعد أن حرر الإسلام الناس من الفقر، شرع يحررهم من الرق(١).

وصدق الله العظيم ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

كنا سعداء بإيماننا ورسالتنا:

وكانوا سعداء في دينهم ودنياهم بإيمانهم وأخلاقهم.

ولست أري السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد(٢)

(١) هذه رائعة من روائع الإسلام وسماحته مع غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الغربي، ولقد تحدث شيخنا الفاضل عن هذا في عدد من كتاباته، ولعل أوفاها: (غير المسلمين في المجتمع المسلم). طبعة ونشر مكتبة وهبة.

(٢) لشيخنا الفاضل في السعادة قصيدة شرقت وغربت، وتحدث فيها الركبان، واقتبس منها الشيوخ والشبان، وهي القصيدة التي جعلت الشيخين: البهي والغزالي، يختلفان علي مستقبل القرضاوي، فرأي البهي فيه فقيها ناضجاً، ورأي الغزالي فيه شاعرا صاعدا، وأبي الله إلا أن تتزاوج الرؤيتان لتنجب لنا: أديب الفقهاء وفقيه الأدباء. أطال الله لنا عمره، وبارك لنا في جهده.

ومما قال الشيخ في القصيدة:

أمل إليه هفت قلوب ... الناس في الزمن التليد
أمل له غور القديم ... كما له سحر الجديد
أمل إليه سعى الملوك ... كما إليه رنا العبيد
وتزاحموا كالهيم يد ... فعها الصدى عند الورود
وتساءلوا عنه ولكن من ... يجيب؟ ومن يفيد؟

ويجيب الشيخ السائلين والباحثين عن السعادة بقوله:

قل للذى يبغي السعادة ... هل علمت من السعيد؟
إن السعادة: أن تعيش ... لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل ... قضية الكون العتيد
وتجيب عما يسأل الحير ... ان في وعي رشيد
من أين جئت؟ وأين أذهب؟ ... لم خلقت؟ وهل أعود؟
هذه العقيدة للسعيد ... هي الأساس هي العمود
من عاش يحملها ويهتف ... باسمها فهو السعيد

انظر: نفحات ولفحات ص ٩٦ وما بعدها.

هي السعادة التي تنبع من القلب، وتطمئن بها النفس ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]..

حدثوا أن عمر غاضب زوجته أم كلثوم بنت عليّ فقال لها متوعدا: لأشقينك! فقالت: لا تستطيع أن تشقيني، لأني لا أري سعادتي في مال تستطيع أن تقطعه عني، ولكني أري سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير الله ربي[١].

كنا أساتذة الدنيا:

كنا أساتذة الدنيا، وقادة الحضارة، ومعلمي البشرية، نحو ثمانية قرون. اقتبست منا أوربا المنهج العلمى والتجربة، وتعلمت منا في الحروب الصليبية، وفي الأندلس، وفى صقلية وغيرها.

وكانت كتبنا العلمية مراجعهم الأولى، وعن طريق علمائنا وحدهم عرفوا فلسفة أرسطو، وعلوم أرسطو.

كنا فى رأس القافلة، وكنا نحن الآخذين بزمامها، وكنا نعلم الناس العلم والإيمان، فعلمهم أخلاق الدين وإبداع الدنيا.

كـــذلك كنا.. وهكذا أصبحنا!!

لقد أصبحنا في المؤخرة بعد أن كنا في الطليعة والمقدمة، وأصبحنا في الحضيض بعد أن كنا في الذروة، وأصبحنا تلاميذ بعد أن كنا أساتذة الدنيا وقادتها، وأصبحنا نتلقى العلم على يد غيرنا بعد أن كنا نلقنه لغيرنا. لقد أهدى هارون الرشيد ساعة دقاقة تدور بالماء إلى (شرلمان) إمبراطور الروم فارتعشت فرائصهم، وخافوا وقالوا: إن المسلمين يسخرون الجن والعفاريت.

لقد كانت (قرطبة) عاصمة الأندلس منارة العلوم والمعارف، وظلّت نحو ثمانية قرون تنشر العلم والنور.

(قرطبة) كانت تضاء بالمصابيح، بينما كانت أوربا تغيب في ظلام الليل.

---

(١) لفضيلة الشيخ كلام رائع في كتابه: (الإيمان والحياة) تحت عنوان: (الإيمان والسعادة). ص ٧٦ وما بعدها. ط. مكتبة وهبة.

(قرطبة) كانت شوارعها مرصوفة بينما كانت أوربا غارقة في الأوحال .

(قرطبة) كان فيها (٦٠٠) حمام؛ بينما كان أهل أوربا لا يهتمون بالنظافة، حتى القسيسون والرهبان يقولون : إن النظافة بُعْدٌ عن الله، ويقول أحدهم : رحم الله القديس فلانا . . لقد عاش خمسين عاما ولم يقترف إثم غسل الرجلين . !!!

ويقولون : وا أسفاه!! لقد كان من قبلنا يعيش طول عمره، ولا يبل أطرافه بالماء، ولكنا أصبحنا في زمن يدخل فيه الناس الحمام!! فانتقلت العدوى إليهم[١] . كان كثير من سراة أوربا لا يعرفون توقيع أسمائهم بينما كانت قرطبة منارة العلم والعرفان .

ينظر الإنسان إلي هذا الماضي العزيز فيعود بأعين باكية، وقلوب حسري، ويفكر في هذا الماضي، كنا أمراء وكنا أقوياء، وكنا أوصياء علي هذه البشرية القاصرة فأصبحنا هكذا في مؤخرة القافلة!!!

حاضر مؤسف :

يا معشر المسلمين : هذا هو ماضينا العظيم، أما حاضرنا فالحال كما ترون .

محنة فلسطين :

هذه مصر ومراكش وتونس والجزائر وفلسطين . . فلسطين الجريحة، فلسطين الذبيحة التي يلاقي أهلها الأمرين، ويذوقون الظلم . لقد عاد العائدون من مؤتمر القدس ببعض الأنباء التي تثير الأعصاب، (المسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين[٢] – الذي بارك الله حوله – ثالث مساجد الله التي لا تشد الرحال إلا إليها . هذا المسجد بيتت له المؤامرات اليهودية، ولا ندري ماذا سيكون إن لم يتيقظ المسلمون . وهيهات هيهات!!

هذه الحفنة أخذت فلسطين واغتصبتها أمام أعيننا، ونحن نسمع ونري!! وكنا نقول : لا يمكن أن يأتي شذاذ الآفاق، وحجاج الشعوب ويقيموا لهم وطنا

---

(١) للمزيد من معرفة أوربا في عصور الظلام انظر ما كتبه العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) ص ١٥٨ – ١٦٠ . نقلاً عن كتاب « تاريخ أوربا » لمؤلفه مستر « ليكي » .

(٢) الأولي أن يقال : ثالث المسجدين المعظمين، إذ لا حرم ثالث بعد الحرم المكي والحرم المدني .

في قلب ديارنا ونحن أحيـاء!! ولكنهم أقاموا الوطن، وأقاموا الدولة، وظللنا نقول: (إسرائل المزعومة) حتى رأينا الخزي يملأ أفواهنا، فلم نعد نراها مزعومة. بل رأيناها حقيقة.. بل أصبحت تتحدى الدول العربية والشعوب الإسلامية فتحتل فلسطين وتصفع هذه الجبهة، وتركل الأخرى.

كل هذا ولا نقدم شيئا، إلا أن نرسل احتجاجات إلى هيئة الأمم، أو مجلس الأمن، أو مراقب الهدنة. يا للفجيعة ويا للعار، ويا للمصيبة ويا للشنار!!

يا قومنا: إن فلسطين هي الأنشودة الحزينة، نعرفها ونرددها دائما. إنه لا ينبغي أن تشغلنا قضية مصر عن قضية فلسطين. فإن مصيرنا واحد. ولقد قال الزعيم المراكشي (علال الفاسي): أنا لا أنسى أبدا قضية فلسطين، وربما أنسى قضية مراكش!! لأن فلسطين ليست بلدا عاديا، بل حرما مقدسا من حرمات المسلمين، علي المسلمين جميعا أن يدافعوا عنه.

يا قومنا: إن مليونا من اليهود أو أقل يعملون هذا كله. أربعة عشر مليونا متفرقين استطاعوا أن يقيموا دولة، علي الرغم من وجود خمسمائة مليون مسلم وثمانين مليون عربي[١].

كارثة اللاجئين:

أليست هذه مصيبة؟ أليست هذه فضيحة الفضائح ومأساة المآسي؟! لقد رأيت اللاجئين بعيني حين زرتهم في مخيماتهم في صيف سنة ١٩٥٢م، وإن قصة اللاجئين لهي قصة الطير الذبيح، والأسير الجريح، واللحن الحزين، والدمع الثخين، والألم الدفين.. فنحن هنا نلبس القطن والصوف، ونسكن البيوت والقصور، ونتغطي بالغطاء الثقيل، ومع هذا كله نشكو البرد، ونرتعد من البرد. فكيف هؤلاء الذين يعيشون في خيام ممزقة، إذا جرت الرياح الهوج، وعصفت العواصف، خلعت الخيام، فيجرون وراءها حتى يمسكوها!

إنهم لا يحصلون من مواد التموين إلا على بعض «الكيلوات» من الدقيق

(١) عدد المسلمين الآن زاد علي المليار وثلث المليار.

تنتهي في الخامس عشر من الشهر. إن مليونا من اللاجئين يبكون ولكن لغيرحبيب، ويشكون ولكن لغير طبيب، وينادون ولكن أين المجيب؟ فهل نجيب الدعاء، ونلبي النداء، وننصر إخواننا والله يقول: ﴿ **وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ** ... ﴾ [الأنفال: ٧٢] ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠].

يا قومنا: إن إخواننا يذوقون المر، ويلاقون الأسي، ويقاسون العذاب. وهكذا أصبح حالنا. ولله در الشاعر[١] إذ يقول:

إني تذكرت والذكري مؤرقة	**مجدا تليدا بأيدينا أضعناه**
ويح العروبة كان الكون مسرحها	**فأصبحت تتواري في زواياه**
كم صرفتنا يد كنا نصرفها	**وبات يملكنا شعب ملكناه**
أني اتجهت إلي الإسلام في بلد	**تجده كالطير مقصوصا جناحاه!!**

بين وعد بلفور ووعد الله تعالى:

يا قومنا: إن وعدا من الإنجليز حفز اليهود على أن يقيموا وطنا قوميا، من وزير خارجية بريطانيا (بلفور) في نوفمبر سنة ١٩١٧م في الحرب العالمية الأولي. حفزهم هذا الوعد على العمل، وأشعل الحماسة في صدورهم، وأخذ (هرتزل) يجوب الآفاق، ويجمع الأموال، ويجمع الشباب والشابات، فهاجروا من كل مكان تاركين العزَب والضياع، في سبيل أن يعيدوا مجدا قديما تحطم، ودولة أفني عليها الدهر، ملك سليمان كما يقولون..

وفعلا أقاموا هذه الدولة، وليست هي كل شيء عندهم؛ بل ما هي إلا لقمة بعدها لقيمات، ولطمة بعدها لطمات، فليس الأمر أمر قطعة أرض ملكوها يلتمسون المزيد، بل إنهم يتغنون بهذا النشيد: ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل!! أي من العراق إلى مصر.

وعد الانجليز لليهود وعدا فعملوا وجاهدوا، ووعدنا الله وعدا، ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ**

---

(١) الشاعر هو: محمود غنيم. وهذه الأبيات من قصيدته الرائعة (وقفة علي طل) وهي من روائع الشعر العربي في العصر الحديث.

الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

وعدنا الله بهذا. فهل حفزنا وعد الله علي العمل، هل أوقد شعلة الحماسة في الصدور؟ وهل جمع المتفرقين؟ وهل ألف بين المتخاصمين؟ وهل عملنا وجاهدنا؟! كلا كلا. لا زلنا في غفلة. لا زلنا في نوم عميق،. لا زال يلعب بأعيننا النوم رغم أن الشمس ساطعة.

القدس قضية الأمة الأولى:

يا قومنا: هذا هو حاضرنا.. علينا أن ننظر إليه ونستعد للعمل والبذل، وإن قضية فلسطين يجب أن نذكرها دائما فهي قضيتنا الأولي، قضية الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها. يجب أن نبذل لهم المال والطعام، والغطاء والثياب، ونحن وقتذاك نبذله للإسلام، نبذله لكرامة القرآن. نبذله لله رب العالمين، نبذله لأنفسنا ﴿ **وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦].

هؤلاء الخمسمائة مليون مسلم.. ليت معنا بدلا منهم خمسين ألفا من الرجال الذين يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع، لا تغريهم المنحة، ولا تفتنهم المحنة، ولا يغريهم وعد، ولا يثنيهم وعيد!!

ليت لنا اثنا عشر ألفا يحملون اللواء، ويكونون من الصادقين.

يا معشر الناس: يقول رسول الله ﷺ: « يوشك أن تتداعي عليكم الأمم كما تتداعي الأكله – أو الآكلة – إلي قصعتها.. قالوا: أو من قلة نحن يا رسول الله؟ قال: « لا أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، قالوا وما الوهن يا رسول الله؟ قال: « حب الدنيا وكراهية الموت »[1].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٧) عن ثوبان وقال مخرّجو السند: إسناده حسن، ورواه أبو داود (٤٢٩٧) والبيقهي في الشعب (١٠٣٧٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ١٥).

وقال ﷺ فيما رواه الشيخان: «لن تقوم الساعة حتي تقاتلوا اليهود فيختبئ اليهودي وراء الحجر. فيقول الحجر: يا عبد الله – وفي رواية يا مسلم – هذا يهودي ورائي فاقتله»[1].

وإنا لهذا اليوم لمنتظرون؟؟

* * *

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦) ومسلم في الفتن (٢٩٢٢) عن أبي هريرة.

(٨)

القرآن الكريم منهاج للفرد[١]

الحمد لله أنزل علي عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيّما لينذر بأسا شديدا من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا..

أحمده سبحانه وأتوب إليه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أدّي الأمانة وبلّغ الرسالة، ونصح للأمة، وتركنا علي «المحجة[٢] البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[٣]. «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنتي»[٤] ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما - ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا.

صلوات الله وسلامه عليه، وعلي آله وأصحابه ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أما بعد فيا معشر المسلمين:

إن الله جلّت قدرته قد اختصنا بكتاب كريم، وبدستور عظيم، ذلك هو القرآن الكريم. خير كتاب أنزله الله علي خير نبي أرسله الله لخير أمة أخرجت

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في ١٨ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٩٥٣م.

(٢) المحجة: جادة الطريق.

(٣) رواه أحمد (١٧١٤٢) عن العرباض بن سارية، ونصه «قد تركتم علي المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك..» وقال مخرجو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم (١/ ٩٦) وابن ماجه (٤٣).

(٤) رواه مسلم في الحج رقم (١٣٣٥) عن الفضل.

للناس.. وإننا حينما نسمع المتحدثين عن الدستور والتشريعات والقوانين يجب أن نتحدث عن القرآن الذي لم تضعه لجنة، ولم تؤلفه جماعة من الناس. وإنما أنزله الله رب العالمين ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ.. ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

القرآن الكريم منهاج للفرد:[١]

منهاج للفرد: يضع له أُسس حياته، وينير الطريق أمامه، ويأخذ بيده إلي الله رب العالمين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤] ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة: ١٦].

النور المبين الذي يأخذ بيد المسلم إلي الجنة، ويهديه إلي الله إنما هو: القرآن الكريم. وصدق رسول الله إذ يقول: «القرآن شافع مشفع، وماحل[٢] مصدق، من جعله أمامه قاده إلي الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلي النار»[٣].

ذلكم هو القرآن الكريم، في حفظه رحمة، وفي تلاوته نعمة، وفي اتباعه بركة، والتجَمُّع عليه سكينة، وصدق رسول الله إذ يقول: «وما اجتمع قوم في

---

(١) لفضيلة الشيخ القرضاوي إسهامات متعددة في خدمة القرآن الكريم منها: ثقافة الداعية، تفسير سورة الرعد، المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، وكذلك بعض الخطب، وقد جمع الأخ د. خالد السعد في الجزء الثاني من خطب الشيخ القرضاوي اثنتي عشرة خطبة تناول شيخنا فيها (صفات عباد الرحمن) كما جاءت في سورة الفرقان، ولعل أهم كتب الشيخ خدمة للقرآن هو: كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ وهو كتاب صاغه الشيخ بطريقة منهجية ليكون مرافقاً لتوأمه: كيف نتعامل مع السنة؟ وقد قسم الشيخ كتابه «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» إلي أربعة أبواب رئيسة:

الباب الأول: خصائص القرآن ومقاصده.

الباب الثاني: التعامل مع القرآن حفظاً وتلاوة وسماعاً.

الباب الثالث: التعامل مع القرآن فهماً وتفسيراً. مع الكشف عن المزالق والمحاذير.

الباب الرابع: التعامل مع القرآن اتباعاً وعملاً ودعوة.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن أحد الباحثين اليمنيين قد حصل علي رسالة الدكتوراة في «منهج يوسف القرضاوي في التفسير وعلوم القرآن -- دراسة في النظرية والتطبيق». وكان هذا في عام (٢٠٠٤م) من كلية الآداب جامعة أسيوط بمصر.

(٢) ماحل: أي ساعٍ.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢) وابن أبي شيبة (٦/ ١٣١) عن ابن مسعود، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠١٩).

بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده »[١].

القرآن يعلم الفرد المسلم عقيدته :

أول ما يُعنى القرآن : أن يعلّم الفرد المسلم : عقيدته التي يدين بها ، ويلقى الله عليها يعلمه الإيمان بوجود الله تعالى، ويقيم البراهين على ذلك من فطرة الإنسان ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾

[الروم : ٣٠]

ومن مظاهر الكون علويه وسفليه، جماداته ونباتاته، وحيوان وإنسان : ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [ق : ٦، ٧]، ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾

[الذاريات : ٢٠، ٢١]

والإيمان بصفاته العليا، وأسمائه الحسنى ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ [الحديد : ٣ -٦].

والتركيز على [٢] توحيد الخالق، بل لا بد من إثبات توحيد الإلهية، فقد كانت مشركو العرب إذا سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ يقولوا: « خلقهن

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩) عن أبي هريرة .

(٢) توحيده تعالي، فلا خالق غيره، ولا رب سواه، ولا معبود إلا هو، فلا يكفي إثبات .

الله » ومع هذا كانوا يشركون بالله، ويعبدون الأصنام، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى! ومن هنا كان تركيز القرآن على الدعوة إلى عبادة الله وحده، فهى الغاية من خلق الإنسان ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا غرو أن كثرت الآيات الآمرة بالصلاة والزكاة والصيام والحج، وغيرها من العبادات الظاهرة والباطنة.

ويعلم القرآن المسلم كذلك: أن وراء هذه الحياة الدنيا، حياة أخري، توفي فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت، ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وأن هذه الحياة القصيرة التى نعيشها إنما هي مزرعة للحياة الباقية الدائمة، فنحن نزرع هنا لنحصد هناك، يوم تنشر الدواوين، وتنصب الموازين، ويبعث الناس ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أقام القرآن الأدلة الناصعة علي إمكان البعث الذي استبعده المشركون، وقالوا: ﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾ [ق: ٣] وبيّن لهم أن الذى خلقهم أول مرة قادر علي أن يعيدهم كما بدأهم، وهو أهون عليه.

وبين القرآن الكريم بوضوح: أن من العبث المنكر، والباطل المرفوض: أن ينتهى العالم وتنفض سوقه، ولا يُجزي المحسن بإحسانه، ولا المسيء بسيئته، فأين عدل الله؟ وأين حكمة الله؟ يقول تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾

[ص: ٢٧، ٢٨]

ويقول سبحانه: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ويعلم القرآن المسلم أيضا عقيدة النبوة، وأن الله تعالى بحكمته ورحمته،

لم ينزل الإنسان سدى، ولم يدع خلقه هملا، بل بعث إليهم النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، كانت مهمة هؤلاء الرسل: أن يحرروا البشر من عبادة الطواغيت، وأن يبينوا لهم معالم الطريق إلى الله، ويعينوهم على تزكية أنفسهم، وكسب محبة ربهم، واتقاء عقوبته، وأن يعيشوا معهم متحابين متكافلين، ولا يظلم بعضهم بعضا، مهتدين بشرع الله سبحانه.

هذا أول ما علمه القرآن للفرد المسلم، وهو أساس البقاء كله.

القرآن يعلم الأخلاق:

القرآن الكريم: كتاب الله الذي ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢]. هذا القرآن منهاج يضع للإنسان أسس الحياة التي يعيش عليها، فهو كما يعلم العقيدة الصحيحة للمسلم: يؤدبه بالآداب السامية، ويخلقه بالأخلاق الكريمة، ويعرفه بكل صغيرة وكبيرة في حياته.. حتي إنه ليعلم المسلم كيف يمشي، ويعلمه كيف يتكلم، ويعلمه كيف يجلس، ويعلمه كيف يزور أخاه وهكذا.. كل هذا وغيره مفصلا في القرآن.

يعلمك القرآن كيف تمشي فيقول الله: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿ **وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا** ﴾ [الإسراء: ٣٧]، ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ** ﴾ [لقمان: ١٨]، كن معتدلا في مشيك لا بالسريع المتهور، ولا بالبطيء المتواني[١].

ويعلمك القرآن كيف تتكلم ﴿ **وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان: ١٩].

ويعلمك القرآن كيف تزور أخاك في بيته ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ**

---

(١) لفضيلة الشيخ خطبة كاملة يشرح فيها قوله تعالي: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾ وهي خطبة عظيمة الفائدة. راجع خطب القرضاوي (٢/٨).

تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

ويعلمك القرآن كيف تجلس في المجلس ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾

[المجادلة: ١١]

القرآن يخاطب العقول والقلوب:

يعلمنا القرآن كثيرا من هذه الآداب العامة التي يتواصي الناس بها، ويعيش المجتمع علي ضوئها. والقرآن هو المصباح المنير الذي ينير الطريق إلي الله، والذي يعتمد في هذا كله علي مخاطبة القلوب، وهزّ المشاعر، وأخذ الوجدانات إلي الله..

يملأها بخشية الله، ويؤثر فيها، ويرغبها فيما عند الله، ويخوفها من عذاب الله، ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

كتاب تقشعر له الأبدان، وتطمئن له القلوب، وتلين له الجلود، يؤثر في الأرواح، والقلوب والضمائر حتي في المشركين.. سمعه الوليد بن المغيرة فعاد مدهوشا، وقال: والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن.. وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلي عليه[1].

بهذا أدهش الكفار وقالوا: ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: ٤٣، الأحقاف: ٧]، ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤]، لأنه سحر قلوبهم[2].

---

(١) ذكر القرطبي ذلك في تفسير قوله تعالي: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان.. ﴾ [النحل: ٩٠]، وقد أعجب الوليد بما سمع فقال قولته المشهورة. انظر: القرطبي (١٠/ ١٦٥)، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٤٣٣). وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: إسناده جيد.

(٢) للأستاذ سيد قطب رحمه الله كلام رائع في كتابه: «التصوير الفني في القرآن» تحدث فيه عن القرآن وسحره لقلوب المشركين وشغف أفئدتهم به، وقد كتب الشيخ ذلك تحت عنوان: سحر القرآن، «ومنبع السحر في القرآن» فليراجع.

القرآن يزلزل قلوب المشركين:

هذا القرآن استطاع أن يؤثّر في المشركين؛ حتي خاف زعماء الكفار علي عامتهم أن يتأثروا به، فكانوا يشوشون علي قراءته ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾[1] [فصلت: ٢٦].

وإنمـا دخـل الداخلـون في الإسـلام لا بقـوة السـيف، ولا بكثـرة العـدد، ولا برهبة الجيوش، فما كان عندهم في فجر الإسلام – في العهد المكي – سيوف ولا رماح ولكن كان السلاح الوحيد الذي يغزون به: كتاب الله.. لقد سمع القرآن عمر بن الخطاب فاستسلم له، وألقي السلاح من يده، وأتي إلي النبي ﷺ يعلن إيمانه، ويشهر إسلامه، فقد هزّ القرآن فؤاده هذا عندما سمع ﴿ **طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾[2] [طه: ١ – ٨].

بهذه الآيات هزّ القرآن قلب عمر بن الخطاب فأعلن الإسلام بعد أن كان ذاهبا ليقتل نبي الإسلام، وهكذا يفعل القرآن في نفوس المشركين قبل نفوس المؤمنين، أراد الله به أن يحيي القلوب الميتة، وينعش النفوس الخاملة، ويهزّ الأفئدة الجامدة، ويأخذ بيد هذه البشرية إلي نفحات الله، إلـي رياض جنة الفردوس ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كيف نقرأ القرآن:

لا يستوي هذا وذاك.. لهذا أمرنا الله تبارك وتعالي أن نتدبر القرآن إذا قرأنا،

---

(١) ذكره القرطبي عن ابن عباس قال: قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتي لا يدري ما يقول. القرطبي: (١٥/٣٦٦).

(٢) لمعرفة المزيد عن إسلام عمر راجع السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٨٧).

ونتدبره إذا سمعنا، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] ليسمع هذا القرآن الذين لا يعرفون القرآن إلا ألحانا وأناشيد، وليفهم هذا: «السمِّيعة»، الذين لا يعرفونه إلا أصواتا حلوة، ولا يفهمون من معانيها شيئا[١].

علينا أن نتدبره إذا قرأنا، عملا بوصية الله لنبيه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾

[المزمل: ١–٤]

ترتيل القرآن والتخشّع في تلاوته، والتباكي عند قراءته فقد قال ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا»[٢].

وقد وصف الله المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢]. ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، علي القاريء أن يقرأ بتدبر، ويسمع بتأمل وتَفَهُّم، قال الدكتور إقبال (شاعر الإسلام) أوصاني أبي فقال: يا بني إذا قرأت القرآن فاقرأه وكأنما عليك أنزل.

(١) يحمل القرآن هنا علي من يجعل القرآن ألحانا وطربا، ولهذا عقد الشيخ فصلاً في كتابه: «كيف نتعامل مع القران العظيم؟» أسماه: «تلاوة القرآن وسماعه»، وقد تحدث الشيخ فيه عن آداب الاستماع، وذكر من أهمها: ١– الإنصات والإصغاء. ٢– التأدب والتأثر والتجاوب. ص١٨٧ وما بعدها.

(٢) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٧) عن سعد بن أبي وقاص، وذكره الألباني في ضعيف ابن ماجه (٢٨١) ولكن البكاء عند القراءة مشروع غير ممنوع ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وفيه: (فإذا عيناه تذرفان الدمع) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٤٦٣)، رواه البخاري في فضائل القران (٥٠٥٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٠).

القرآن يجيب عن الأسئلة الخالدة[1]:

هكذا يجب أن يقرأ القارىء، وهكذا يجب أن يسمع السامع، ولو أننا أعطينا القرآن حق القراءة، وحق الاستماع؛ لأثّر في قلوبنا حق التأثير.

ستجد فيه جوابا عن كل سؤال يجول بنفسك، أو يسير علي لسانك.

إذا سألت نفسك ماذا كان مبدئي، وماذا ستكون نهايتي وآخرتي؟ ستجد القرآن يحدثك عن مبدأ حياتك، وعن نهاية أمرك، وعن موقفك في آخرتك. واسمع قول الله: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، ذلك هو مبدأك.

أما منتهاك فاسمع قول الله ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٥].

ثم ماذا لك عند الله؟ اعرض نفسك علي القرآن يجيبك ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، ﴿ **يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ * فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ [النازعات ٣٥ - ٤١].

القرآن يجيبك عن كل سؤال تسأل به نفسك.. إذا خلوت مع صاحبك وظننت أن الليل قد أرخي سدوله، وأن النجوم قد اختفت وراء السحاب، وأنك تستطيع أن ترتكب المحرمات، ولا عين تراك، ولا لسان يتحدث عنك. فارجع إلي القرآن واقرأ آياته ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٦- ١٨]. وإذا ظننت أن الحياة كل شيء فاسمع قول الله ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ** ﴾ [ق: ١٩- ٢٠].

---

(١) راجع ما كتبه الشيخ في كتابه: «العبادة في الإسلام» تحت عنوان: (الأسئلة الخالدة) صـ١١ وما بعدها.

وإذا ظننت أن الآخرة سيطول أمدها، وهيهات أن تأتي، وقلت: إن المسافة طويلة، وأن الأمد بعيد فاقرأ قول الله ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٢٠ - ٢١]. وإذا ظننت أن العمل الذي تعمله يذهب وينتهي والناس لا يعرفون، فاعلم أن الأعمي سيبصر يوم القيامة، وأن الغطاء سينكشف عن العيون، ﴿ **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ [ق: ٢٢].

تجاوب السلف مع القرآن:

لنرجع إلي القرآن أيها الناس لنحيي به موات نفوسنا، ونتخذه دستور حياتنا، نتعلّم بعلمه، ونقتبس من سناه، ونهتدي بهداه، ونتأدب بآدابه، ونسير وفق تعاليمه، ولن يكون ذلك إلا إذا قرأنا فأحسنا القراءة، وسمعنا فأحسنا السماع، لقد كان الرجل يأتي إلي النبي ﷺ فيسمع سورة (الزلزلة) ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ فيقول: حسبي يا رسول الله.. لا أبالي لا أسمع من القرآن غيرها..

وفي رواية: أن رسول الله قال: «دعه فقد فقه». وفي رواية: أن رسول الله قرأها وعنده أعرابي، فقال الأعرابي: يا رسول الله أمثقال ذرة؟ قال: نعم فقال الأعرابي: واسوأتاه، ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله ﷺ: لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان.

وفي رواية أخري: فقام رجل يضع يده علي رأسه، وهو يقول: واسوأتاه. فقال النبي: أما الرجل فقد آمن[1].

هذه الآية وحدها لو عمل الناس بها، وساروا وراء هديها، لعاشوا أعزة كرماء، كان الرجل بعد هذا حينما يتصدق بالصدقة اليسيرة - بحبة العنب -

---

(١) ذكر السيوطي هذه الآثار في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (٦/ ٣٨٠ - ٣٨٢)، وانظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص ٤١٢ ومابعدها. وفيه ذكر شيخنا مواقف عديدة للصحابة عند نزول القرآن، وكيف تجاوبوا معه، وهي جديرة بالتأمل.

يقول: يا عجبا كم في هذه من ذرات؟! لا يحاسب نفسه بالقنطار ولكن يحاسب نفسه بالذرة ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾.

حال المسلمين اليوم مع القرآن:

إننا لم نعد الآن نقرأ القرآن كما ينبغي.. إن القارىء يقرأ غالبا آيات الوعد، فإذا وصل إلي آيات الوعيد - التي تذكر الناس بالنار وبطش الله الجبار - فرّوا منها كأنما يريدون أن يعدّلوا علي الله، فإذ قرؤوها، قرؤوها بطريقة لا تشعر السامع أبدا أنهم يتلون آيات وعيدية مخيفة، كأنها زفير جهنم بين يديه. إنه يقرأ ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴾. فيقرؤها بطريقة تجعل السامعين يقولون: (أعد أعد) كأنهم لا يفهمون عن النار، وطعام الأثيم، وشجرة الزقوم شيئا!

هكذا صارت قراءتنا.. ولو اننا قرأناه كما ينبغي لما كان أعداؤنا يذيعونه علينا.. إن إسرائيل تذيع القرآن علينا، إن لندن تذيعه علينا، إن محطة شرق الأدني تذيعه علينا، لأنهم اطمأنوا إلي أن القرآن لا يحرك فينا ساكنا، ولا ينبه غافلا. هذا وحده الذي حمل لندن أن تقرأ مثل: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ...** ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وتقرأ ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٤١]، لأنهم عرفوا أن المسلمين أصبحوا غير المسلمين.

خصائص القرآن[١]:

يا قومنا : علينا أن نعود إلي القرآن، نتدبره ونستمع إليه. فالقرآن كتاب

---

(١) تحدث فضيلة الشيخ هنا عن ثلاث خصائص فقط من خصائص القرآن؛ حيث إن المقام مقام إيجاز، ومع أنه أفرد في الخطبة التي تليها خصائص أخري، إلا أنه - حفظه الله - قد فصّل في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» وعدد سبع خصائص، منها: هذه الثلاث، وزاد أربعا هي: ١- كتاب إلهي. ٢- كتاب الدين كله. ٣- كتاب الزمن كله. ٤- كتاب الإنسانية كلها. ص١٧- ٧٠.

سماوي ليس ككتب السماء. قد فضّله الله علي كل كتاب أنزل. فضله علي توراة موسي، وإنجيل عيسي، وصحف إبراهيم، لأنه امتاز بميزات منها:

١ - أنه كتاب معجز [١]:

جعل الله في آياته البيان والبلاغة، أعجز العرب وهم أصحاب الألسنة وأرباب الفصاحة أن يأتوا بأقصر سورة من مثله، وحقق عليهم الغلبة. وصدق الله العظيم ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢ - وامتاز كذلك بالتيسير: فالله قد يسره للذكر والحفظ. فلن تجد كتابا سماويا كالقرآن يُتلي ويحفظ بسهولة، ويفهم منه العام والخاص، والفيلسوف والجاهل، والعالم والأمي ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [الدخان: ٥٨]، ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾[القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]

﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١]، ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ [يوسف: ١، القصص: ٢]، ميسر مبين واضح. ويحفظه من المسلمين عشرات الآلاف حتي من الصبيان. ولم تجد القسيسين ولا رجال الكهنوت أنفسهم يحفظون التوراة أو الإنجيل.

فالقرآن صاحب هذه الميزة الكبري. يحفظه الحافظون، ويتعبد بتلاوته القارئون والسامعون، وبذلك يوصي رسول الله فيقول: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٢] ويقول: (من قرأ القرآن وعمل به؛ أُلبس والده يوم القيامة تاجاً من

---

(١) ذكر شيخنا حفظه الله في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟»: أن الإعجاز لا يتم ولا يتحقق التسليم به إلا إذا توافرت له شروط ثلاثة:

١ - أن يوجد التحدي به، فهو الذي يدفع إلي المعارضة من الخصم.

٢ - أن يوجد المقتضي للمعارضة من الخصوم، كالدفاع عن معتقداتهم.

٣ - أن تنتفي الموانع من المعارضة.

وقد توافرت الشروط الثلاثة في إعجاز القرآن، واقرأ إن شئت قوله تعالي ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ [هود: ١٣]، وقوله ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** ﴾ [يونس: ٣٨]، ص ٣٨، ٣٩.

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧) عن عثمان.

نور؛ ضوءه مثل ضوء الشمس، ويُكسي والده حلتين لا يقوم لهما الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن)[1].

هذا في شأن الذي يقرأه؛ فما بالكم بالذي يعمل به؟ وهذا حث للناس علي أن يُحفظِّوا أبناءهم القرآن وإن كنا في زمن نخشي علي مستقبل ضياع القرآن.

٣- الميزة الثالثة: أنه محفوظ لا يعتريه تبديل ولا تغيير، ولا نقص ولا زيادة؛ لأن الذي تولي حراسته ليس بشرا من البشر؛ وإنما رب القوي والقدر. قال عز وجل ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩] لقد قرأ صبي قول الله تعالي: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فقال: (وما محمد ﷺ إلا رسول) فوكزه صبي بجانبه، وقال: من أين زدت علي القرآن؟ فالصبي نفسه يشعر بأن القرآن الكريم لا ينتقص منه ولا يزاد عليه ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢].

ليس في الدنيا كتاب سماوي لم يتغير، بل لعب رجال الدين بالكتب السماوية، وحرفوا الكلم من بعد مواضعه، فإذا بالتوراة غير التوراة، والإنجيل عبارة عن أناجيل شتي، بلغت العشرات كإنجيل يوحنا وإنجيل مرقس، وإنجيل متي وإنجيل لوقا. أما القرآن الكريم فهو باق بعين الله محفوظا ومحروسا، ﴿ **وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٢].

ذلكم هو القرآن الكريم:

كمنهاج للفرد: يحيي قلبه، وينير عقله، ويشد عزمه، ويضع له الآداب، ويحل مشاكله، ويُحيي نفسه بتقوي الله.

وكدستور للدولة ومنهاج للمجتمع، وقانون للحكومة، فسنتحدث عنه في الأسبوع القادم إن شاء الله.

---

(١) رواه الحاكم عن بريدة وقال: صحيح علي شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٥٦٨) وذكره الألباني في صحيح الترغيب (١٤٣٤).

الحض علي قراءة القرآن :

يقول النبي ﷺ : « اقرأوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه »(١)، وقال ﷺ : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف »(٢).

وقال ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »(٣).

وقال ﷺ : « إن لله أَهْلِينَ من الناس. قالوا : من هم يا رسول الله؟ فقال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته »(٤).

* * *

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤) عن أبي أمامة الباهلي.

(٢) رواه الترمذي في فضائل القران (٢٩١٢) عن ابن مسعود، وقال : حديث حسن صحيح غريب، وذكره الألباني في الصحيحة (٣٣٢٧).

(٣) رواه البخاري في فضائل القران (٥٠٢٧) عن عثمان بن عفان.

(٤) رواه الحاكم في مستدركه وقال : يروي من ثلاثة أوجه، أجودها عن أنس، ووافقه الذهبي (١/٥٥٦) ورواه ابن ماجه (٢١٥) والنسائي في الكبري (٨٠٣١) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٨).

(٩)

القرآن الكريم دستور للدولة(١)

الحمد لله. أنعم علينا بخير كتاب أنزل، واختصنا بأفضل نبي أرسل. محمد رسول الله ﷺ والقرآن الكريم.. نعمتان من نعم الله علينا؛ إذا قمنا بشكرهما، وأدّينا حقهما فقد ضمنا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وإذا أعرضنا عنهما، وغفلنا عن حقهما فقد خسرنا خسرانًا مبينًا.

نحمده تعالي ونتوب إليه ونؤمن به ونتوكل عليه، ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وصحبه، ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضوان الله عمن دعا بدعوته، واهتدي بسنته، وسلك سبيله، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

تحدثنا في الأسبوع الماضي: عن القرآن ككتاب سماوي، وأن الله تبارك وتعالي اختصه دون الكتب السماوية – دون التوراة والزبور والإنجيل وصحف إبراهيم – بخصائص لا توجد في غيره.

اختصه بأنه كتاب ميسر ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]

واختصه بأنه كتاب معجز ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

واختصه بأنه كتاب محفوظ من التغيير والتبديل ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، واختصه بأنه

(١) ألقيت هذه الخطبة في يوم الجمعة: ٢٦ ربيع آخر ١٣٧٣هـ الموافق أول يناير ١٩٥٤.

كتاب مهيمن علي هذه الكتب كلها، يجمع كل ما فيها: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨]، ويزيد عليها ما تحتاجه الإنسانية في كل عصر وفي كل مصر، وفي كل زمان ومكان. فهي النجوم الساطعة، والمصابيح الهادية والقرآن هو الشمس المُشْرِقة، والمصباح الساطع المنير.

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفىء القنديلا

تحدثنا عن القرآن ككتاب سماوي كمنهاج للفرد: يحيي قلبه، ويضع له الآداب، ويحل مشاكله، ويحيي قلبه بتقوي الله. ونريد أن نتحدث اليوم عن القرآن كدستور يجب أن تحكم به الدولة، وأن تسير علي منهاجه كل حكومة، وأن تتبع هديه كل أمة.

القرآن كتاب إلهي:(١)

هذا القرآن دستور لم تصنعه لجنة من الناس، ولم يؤلفه جماعة من البشر، فإن أي جماعة من البشر يصدرون قانونا، ويؤلفون دستورا، لا يخلو قانونهم، ولا يخلو دستورهم، مما فيهم من عيب ونقص ﴿ **وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾

[النساء: ٢٨]

الإنسان عاجز، كليل الذهن، قليل العلم، فلابد أن يكون الدستور فيه من ضعف الإنسان ما فيه. ثم لكل جماعة هوي؛ فلن يخلو الدستور من هوي لواضعيه، ينفذون إليه وإن لم يشعروا، أما القرآن فهو دستور الله، شرع الله العزيز الحكيم، كلام الله الذي أتقن كل شيء، شريعة الذي أحسن كل شيء خلقه وكل شيء شرعه.

---

(١) هذه إحدي خصائص القرآن الكريم؛ والتي تحدث عنها فضيلة الشيخ بالتفصيل في كتابه: (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟). ومما قاله فضيلة الشيخ هناك: فهو إلهي المصدر: مائة في المائة (١٠٠٪) لفظا ومعني، أوحاه الله إلي رسوله ونبيه محمد ﷺ عن طريق (الوحي الجلي) وهو نزول (الرسول الملكي) جبريل علي (الرسول البشري) محمد، وليس عن طرق الوحي الأخري. ص ١٩ وما بعدها.

إن أفضل ما وصلت إليه الإنسانية هو المصباح الكهربائي، فأين هذا من نور الشمس الإلهي؟ أين نور الصناعة من نور الطباعة؟ إن الإنسان يصور تمثالا من حجر أو حيوان، وهل يستطيع أن يجعل فيها حياة، ويجعله يسعي ويتحرك علي قدميه، ويحس بشعور، وينطق بلسان؟ لا يستطيع أن يفعل هذا. لأنه فرق بين قدرة الإنسان وقدرة الرحمن.

وهل يستوي وحي من الله منزل وقافية في العالمين شرود؟

ميزات القرآن :

القرآن الكريم يمتاز عن الدساتير كلها بميزات :

الميزة الأولي : بأنه دستور كامل :

وكماله من كمال منزله وشارعه. الكمال الذي لا يدركه عيب ولا تشوبه شائبة من الجهل والهوي : ولو شئنا أن نقارن بين أي قانون من قوانين القرآن، والقانون الذي وضعه الواضعون، وشرعه الشارعون، ووضعوه بأدمغتهم، فهيهات هيهات فأين الثريا من الثري؟

الميزة الثانية : أنه دستور شامل :[1]

لقد جعل لكلّ مشكلة حلاً، ولكل معضلة علاجا، ووصف لكل داء دواءً، ولكل جرح «مرهما»، ولكل مرض علاجا، هو صيدلية كبري. الله مركب أدويتها، والمسيطر عليها، وصدق الله العظيم : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء: ٨٢]، شفاء للفرد، شفاء للأسرة، شفاء للمجتمع، شفاء للعالم كله ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧] ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ [فصلت: ٤٤].

القرآن الكريم كتاب شامل ودستور عام، عالج كل مشاكل الإنسان : الإنسان

---

(١) ذكر فضيلة الشيخ في كتابه : (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) أن من خصائص القرآن : أنه كتاب الدين كله، ومما قاله الشيخ : والقرآن كذلك كتاب الدين كله، فهوعمدة الملة، وروح الوجود الإسلامي. منه تستمد العقيدة، وتؤخذ العبادة، وتلتمس الأخلاق، وتتوفر أصول التشريع والأحكام. ص ٤٩ وما بعدها.

مادة، والإنسان روحا، والإنسان عقلا، والإنسان عاطفة، الإنسان فردا والإنسان مجتمعا. فلا غرو أن يكون فيه: سياسة، واقتصاد، واجتماع، وثقافة وفكر وسلم وحرب، وروحانية، وعمل، وصلاة وجهاد، جمع فأوعي، وصدق الله العظيم: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

كان سيدنا أبو بكر يقول: « والله لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله ».

وقف عبد الله بن عباس ترجمان القرآن يوما أمام المرآة يصلح من هندامه، ويصفف من شعره، ويجمّل من نفسه، فقال له نافع مولي عبد الله بن عمر: أتجمل نفسك؛ والناس يرحلون إليك من أطراف البلدان ليتعلموا منك. فقال: وماذا في هذا؟ أتزين لامرأتي كما تتزين لي امرأتي، وهذا في كتاب الله! قال واين نجد هذا فى كتاب الله، قال: فى قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[1] [البقرة: ٢٢٨]. هكذا كانوا يفهمون روح القرآن، ويأخذون منه كل شيء.

القرآن هو دستور شامل.. يقول بعض الناس ما للقرآن والسياسة؟ وما له وللاقتصاد؟ وما له وللمجتمع؟! ونقول لهم: إن لم تؤمنوا بهذا فاشطبوا من القرآن آيات شتي. تتعلق بالسياسة الخارجية والداخلية، فيه هداية الفرد وفيه نظام الأسرة، وفيه إرشاد المجتمع، وفيه توجيه الحكومة، لقد وضع الخطوط الرئيسية، ورسم الأهداف العامة لحياة الفرد وحياة الأمة كيف نترك هذا؟[2].

---

(١) رواه البيهقي في الكبري (٧ / ٢٩٥) وابن أبي شيبة في مصنفه بلفظ: إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة لأن الله يقول: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) وما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها لأن الله يقول: (وللرجال عليهن درجة).

(٢) تحدث فضيلة الشيخ عن خصيصة الشمول في كثير من كتبه ومحاضراته، وخطبه وندواته، وللمزيد من هذا راجع علي سبيل المثال ما كتبه في:

١- شمول الإسلام.
٢- الخصائص العامة للإسلام.
٣- السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها.
٤- من فقه الدولة في الإسلام.
٥- فتاوي معاصرة.

وغيرها من كتب الشيخ كثير.

هذا الكتاب وإن فيه سياسة — أتراه أمرا فى الكتاب غريباً
إن كانت تؤذيكم سياسته دعو — ه ونقبوا عن غيره تنقيبا
أو اعرضوه على الرقيب فربما — أفتى فغادر نصفه مشطوبا
يا قوم سحقا للرقيب وأمره — فكفى برب العالمين رقيبا[1]

لو اتبعناه لكنا في طليعة الأمم، ومقدمة الصفوف، إن الإنسانية لن تسعد ولن تهتدي إلا إذا اتبعت منهج الله وهداه وإذا اعرضت عنه كان مصيرها ضنك المعيشة في الدنيا، وعذاب الله فى الآخرة.

وهذا، ما قاله الله لآدم وزوجه حين خرجا من الجنة: ﴿ **اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾.

سئل أحد العلماء: إنك تقول: إنك رأيت في القرآن أمثال العرب والعجم

---

(١) هذه الأبيات للأديب الشاعر الدكتور: حسان حتحوت، ولفضيلة الشيخ أبيات رائعة يتهكم فيها علي القائلين بفصل الدين عن السياسة، أو الدين عن الدنيا، ذكرها في قصيدة (في ذكري المولد النبوي) وفيها يقول:

يا خير منٍ ربت الأبطال بعشته — ومن بنى بهمو للحق أركانا
خلفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم — تضوع بين الورى روحا وريحانا
كانت فتوحهم براً ومرحمة — كانت سياستهم عدلاً وإحسانا
لم يعرفوا الدين أورادا ومسبحة — بل أشربوا الدين محرابا وميدانا
فقل لمن ظن أن الدين منفصل — عن السياسة: خذ يا غرُّ برهانا
هل كان أحمد يوما حلس صومعة — أو كان أصحابه فى الدير رهبانا؟!
هل كان غير كتاب الله مرجعهم — أو كان غير رسول الله سلطانا؟!
لا، بل مضى الدين دستورا لدولتهم — وأصبح الدين للأشخاص ميزانا
يرضى النبى أبا بكر لدينهمو — فيعلن الجمع: نرضاه لدنيانا

انظر: نفحات ولفحات صـ ٤٩، ٥٠.

كلها، فهل تجد في القرآن[١] (دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلي قيام الساعة)؟ فقال: نعم. في قول الله ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقوله تعالي: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨]

فقيل له: (الحجر المغصوب في الدار رهن بخرابها) فقال: نعم، في قوله تعالي ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا** ﴾ [النمل: ٥٢].

فقيل له: هل تجد معني المثل القائل: (أعطه تمرة فإن أبي فأعطه جمرة)؟ فقال: في قوله تعالي: ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ [الزخرف: ٣٦].

فقيل: هل تجد المثل القائل: (خير الأمور الوسط)؟ قال: نعم في أربعة مواضع في البقرة: ﴿ **بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ** ﴾ [البقرة: ٦٨]، وفي الإنفاق: ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وفي وصف الله لعباده المؤمنين ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٧]، وفي أمر الله لرسوله – ﷺ – بالصلاة ﴿ **وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ١١٠][٢].

---

(١) للإمام السيوطي رحمه الله كتاب اسمه: (التحبير في علم التفسير) وقد ذكر رحمه الله في هذا الكتاب العلوم التي تتعلق بالقرآن الكريم وعد منها اثنتين بعد المائة، جمع فيها ما سبق إليه في هذا الفن، وجاء بجديد لم يسبق إليه، وكان هذا همه في تأليف هذا الكتاب، قال رحمه الله: (فظهر لي استخراج أنواع لم أسبق إليها، وزيادات مهمات لم يستوف الكلام عليها، فجردت الهمة إلي وضع كتاب في هذا العلم أجمع فيه – إن شاء الله تعالي – شوارده، وأضم إليه فوائده، وانظم في سكله فرائده، لأكون في إيجاد هذا العلم ثاني اثنين، وواحد في جمع الشيئين) وبعد أن ذكر هذه الأنواع قال: (فهذه مائة نوع ونوعان، زوائدي فيها خمسون نوعا، وها أنا أشرع في بيانها مستعيناً بالله، ومتوكلا عليه، وحبذا ذلك اتكالاً). انظر: التحبير في علم التفسير (٨١، وما بعدها) ط وزارة الأوقاف بدولة قطر/ ط الأولي ١٩٩٥.

(٢) انظر التحبير في علم التفسير. ٥١٩– ٥٢٢.

وهكذا كان القرآن لسلفنا الصالح مرجعهم في كل أمر، وبغيتهم في كل حكم، فاتخذوه هاديا، وساروا وراءه، فأفلحوا به ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهذه هي الميزة الثانية من ميزات القرآن: أنه شامل. شمل كل ما يفتقر إليه الإنسان هداية.

إن أي دستور ينظم ناحية ويترك أخري. ينظم علاقة الفرد بالحاكم. أما علاقة الأفراد بعضهم ببعض، أو علاقة الفرد بنفسه فلا شأن له بهذا. ينظم العقوبات للمسيء، أما كيف ينظم المكافآت للمحسن؟ فلا شأن له بهذا. أما القرآن فيشمل كل هذه النواحي؛ لأنه كتاب الله الكريم ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١] ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢].

الميزة الثالثة: أنه كتاب مقدس:

له في كل نفس قدسية، وفي كل قلب تأثير، إن أي دستور وضعيّ لا يمكن أن يؤثر في القلوب، أو يهز الأعصاب، ويبكي العيون، إلا القرآن الذى يتأثر به ﴿ **الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر: ٢٣].

أي دستور يؤثر في النفس هذا التأثير؟! إلا دستور سماوي تقدسه النفوس، وتعظمه القلوب، لأنه نازل من عند ربهم. إن أي إنسان يستطيع أن يدخل بالدساتير الأخري المراحيض، وقد يضعه تحت رجليه، أما القرآن فلا يمسه إلا متوضئا مغتسلا متطهرا، ولا يدخل به المراحيض، ولا يلمس ورقه وهو جنب، ولا يقرأه جنبا، بل يحترمه ويقدسه، وهذا مما يدفع الناس إلي العمل به ﴿ **فَلَا**

أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الواقعة: ٧٥ - ٨٠]

الميزة الرابعة: في هذا الدستور أنه كتاب خالد:(١)

إن أناسا كثيرين منّا عاشوا عمرا طويلا، ورأوا دستورا يُوضَع وآخر يُلْغي.. وُضِع دستور في سنة ١٩٢٣م، وألغاه صدقي في سنة ١٩٣٠م، ثم أعيد مرة أخري. وهذا قد أُلْغي في عهد الثورة، وهناك لجنة تضع دستورا آخر. أما القرآن فلا يمكن أن يتغير فيه سطر بل كلمة، بل حرف، لأن حارسه وراعيه والمتكفل بحفظه ليس إنسانا من البشر، وإنما خالق الخلق ومالك الملك، ورب الأرض والسماء ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أي دستور في الدنيا يمكن أن تجتمع فيه هذه الميزات؟!

الكمال: الذي لا يلحقه نقص. **والشمول**: الذي لا يترك ناحية إلا عالجها. **والقدسية**: التي تلج كل نفس إنسان فتعظمه وتحترمه. **والخلود**: الذي يبقيه إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها. ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

موقفنا من القرآن:

هذا هو القرآن. فماذا كان موقفنا منه. لقد فرّطنا فيه أفرادا، وفرّطنا فيه أُسَرا، وفرّطنا فيه جماعات. أين هو منا؟ أين هو من حياتنا؟

القرآن كتاب كنا نحفظه فهو الآن مهدد بخطر!! لقد كانت مصر مشهورة بتحفيظ القرآن. إن الكتاتيب قد بادت، وإن المدارس التي أنشأها

---

(١) عبر فضيلة الشيخ عن هذه الميزة في كتابه: (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) بأنه كتاب للزمان كله، ومما قاله فضيلة الشيخ: (ومن خصائص القرآن، أنه كتاب الزمن كله وكتاب الإنسانية كلها، وكتاب الدين كله، وكتاب الحقيقة كلها).

ومعنيي أن القرآن كتاب الزمن كله: أنه كتاب الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل أو أجيال، ثم ينتهي أمده، أعني أن أحكام القرآن وأوامره ونواهيه ليست موقوتة بوقت ما، ثم يتوقف العمل بها ص٦٣.

(دانلوب) المستشار الإنجليزي الذي وضع مناهج وزارة المعارف هي خطة للقضاء علي القرآن . فليس في المدارس لحفظ القرآن نصيب يذكر، وهذه مشكلة خطيرة، فبعد سنوات قليلة لن نجد من يحفظ القرآن .

لابد من وجود أناس يدرسون الإسلام(١)، ويحفظون القرآن، وينطلقون يعلمون الناس الاستنجاء والصلاة وأحكام المعاملات .

إنه بعد سنوات قليلة لن تجد الأزهر . وإن مستقبل الثقافة الإسلامية مهدد بخطر عظيم . . من ذا الذي يترك ابنه حتي يحفظ القرآن، ثم يلتحق بمعهد في المنصورة أو في طنطا والمدارس كثيرة بجواره؟! وقبل أن يدخل الطالب الأزهر يكون التلميذ في السنة الثانية الإعدادية . ويتوظف قبله، ويأخذ مرتبا أحسن منه . وها نحن الآن نطلب المساواة بمن هم أقل منا(٢) .

إنه أمر مدبر علي حفظ القرآن وعلي دراسة الإسلام، وعلي الطائفة التي قال الله فيها : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة : ١٢٣] .

وإننا نتمني والله لو عاد الزمان القديم الذي كان علماء الإسلام منصورين علي الحكام، الزمان الذي كان يوقف فيه عشرات الألوف (من الأموال) علي العلماء، علي الأزهر، ليضمنوا لأبناء الدين مستقبلا كريما حتي لا تمد أيديهم إلي الحكام .

هجران تلاوة القرآن قراءة :

أين قراءة القرآن؟ لقد فقدنا حتي قراءة القرآن . ولم يعد يقرأ بالروح التي

---

(١) لاحظ الشيخ في الآونة الأخيرة اهتمام كثير من الوزارات والهيئات والمؤسسات بحفظة القرآن الكريم، وإقامة المسابقات العالمية، وقد لفت الشيخ أنظار العديد من المسؤولين عن هذه المسابقات إلي ضرورة الاهتمام أيضا بالدراسات القرآنية التي تخدم القرآن وواقع الناس .

(٢) هذه المطالب وغيرها نادي بها فضيلة الشيخ من عشرات السنين منذ أكثر من نصف قرن، وكانت البداية حين كوّن الشيخ هو ومجموعة من زملائه لجنة أطلقوا عليها : (لجنة البعث الأزهري) وهذه المجموعة آلت علي نفسها أن ترفع صرح الأزهر عاليا، أو تموت تحت أنقاضه، وقد سجّل الشيخ أهداف هذه اللجنة في كتابه : (رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد) كما أشار إليها في مذكراته، وزاد عليها وفصل فيها، ووقف وقفة متأنية مع المناهج الدراسية، انظر ابن القرية والكتاب (ج١ / ٢٢٠ - ٢٣٩) .

يجب أن يُتلي أفضل كتاب بها. إننا نقرأه الآن علي أنه ألحان ومغاني، لا علي أنه أسرار ومعاني، نسمعه علي أنه صوت فلان الجميل وألحان المقريء الشهير. وإننا في مأتم من المآتم، نذهب لنستمع فلانا فإذا كان غيره أعرضنا عنه، لأنه لا تعجبنا ألحانه ومغانيه، مع أن الله وصف سامع القرآن بقوله: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة: ٨٣].

هجران العمل بالقرآن:

أين العمل بالقرآن؟ أين كتاب الله في حياتنا. إنك تمشي في الشارع فتري مظاهر لا تتمشي مع الإسلام، سر في طنطا، سر في القاهرة، سر في الإسكندرية، لاتجد فرقاً بينها وبين بلاد أوروبا. الخمارات هي الخمارات، والقمار هو القمار، والمقاهي هي المقاهي، والنساء المتبرجات المتهتكات هن النساء المتبرجات المتهتكات، والناس هم الناس، فأين القرآن فينا؟ أتظنون أنه يكفي أن لنا اتحاداً للمقرئين ورابطة للقراء. وأن في مصر عددا من الأصوات الجميلة تشنف أسماعنا. لا. لا. إننا نخشي أن يحادنا رسول الله، ويخاطبنا القرآن يوم القيامة، فماذا نقول حينما يقول رسول الله: ﴿ **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴾ [الفرقان: ٣٠]. ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي: إنك قد أنزلتني لأُقضي في المحاكم فإذا بهم يجعلوني تلاوة في المآتم؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني لهداية الأحياء فجعلوني للقراءة علي الأموات؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني للتشريع والتوجيه فجعلوني في التسلية والترفيه؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني لأكون حرزا للإنسانية كلها من الضلال فجعلوني حرزا يعلق في صدور النساء والأطفال؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك نزلتني لأكون سنة للرقيِّ فجعلوني تعاويذ للرقي؟[1].

ماذا نقول إذا خاصمنا القرآن فخصمنا، وحادنا رسول الله فغلبنا، ولم نجد جوابا شافيا، فبأي لسان نتكلم، وبأي لغة نجيب.

واجبنا نحو القرآن:

يا قومنا: الرجعة الرجعة إلي كتاب الله، العودة العودة إلي دستور السماء، الذي ينظم حياة الفرد والعائلة والمجتمع والحكومة.

يا قومنا: القرآن يجب أن تستمد منه قوانين الدولة، فقد تستفتون في القريب أو البعيد في دستوركم. فإن كان قرآنيا فأقروه، وإن كان بعيدا عن القرآن فارفضوه ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ - الْفَاسِقُونَ - الْكَافِرُونَ** ﴾ [الآيات: ٤٤، ٤٥، ٤٧ من سورة المائدة]، ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٠].

أيها المسلمون: أول واجب علينا: أن نقرأه بتدبر ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩]، وأن نستمع إليه بتأمل وتأثر ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾ [الأنفال: ٢]. وأن نتبع هديه ونعمل به في حياتنا الخاصة والعامة ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ** ﴾

---

(١) لفضيلة الشيخ أبيات رائعة تتضمن هذا المعني ذكرها في ديوانه الأول في قصيدة بعنوان: (مناجاة في ليلة القدر) ومما قال هناك:

هذا الكتاب غدا في الشرق	وأسفاً شمساً تضيء ولكن بين عميان
يحاط بالطفل حرزاً من أذى وردى	وفيه حرز الورى من كل خسران
يتلى على ميت في جوف مقبرة	وليس يحكم في حي بديوان
فكيف نرقى ومعراج الرقى لنا	أمسى يجر عليه ذيل إنسان

انظر: نفحات ولفحات (ص٤٣، ٤٤).

[الأنعام: ١٥٥]. وأن نحكم به دستورا وقانونا ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. وأن نبلغه إلي الإنسانية كلها ليحميها من ضلالة، وينقذها من جهالة ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

روي الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون بعدي فتن كقطع الليل المظلم. قلت - أي علي -: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله. فيه نبأ من قبلكم. وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل.. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق علي كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولم تنته الجن حين سمعته حين قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١]. هو حبل الله المتين، والنور المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، ومن قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلي صراط مستقيم»[١].

وقال ﷺ: «القرآن شافع مشفع، من جعله أمامه قاده إلي روضة من رياض الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلي النار»[٢].

* * *

---

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦) وذكره الألباني في ضعيف الترمذي (٥٥٤).

(٢) سبق تخريجه.

(١٠)

«المحنة» سنة الله في أصحاب الدعوات[1]

الحمد لله يجزي الصادقين بصدقهم، ويعاقب المجرمين علي افترائهم.

الحمد لله القائم علي كل نفس بما كسبت، والمجازي لها بما عملت، والعالم بطوايا الصدور وإن خفيت ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٣- ١٤]. لا تخفي عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية. يؤدب من طغي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقي ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٧٣].

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة من يعترف بالعبودية له، والإذعان لأمره ونهيه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ابتلي فصبر، وانتصر فشكر، فكان خير الصابرين، وأفضل الشاكرين.

ورضوان الله علي آله وأصحابه ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضي الله عمن دعا بدعوته، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في ٢٨ رجب ١٣٧٣هـ الموافق ٢ ابريل ١٩٥٤م، وهي أول خطبة لفضيلة الشيخ بعد أن قضي مع الإخوان في المعتقل مدة تقرب من السبعين يوما. (الاعتقال الأول في عهد الثورة).

أما بعد فيا معشر المسلمين:

رسالة إلي المرجفين:

لقد عدنا إليكم، وقد ظن كثير من الغافلين ألا نعود.. وحُق لنا أن نخاطب هؤلاء بقول الله للمنافقين: ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا** ﴾ [الفتح: ١٢ – ١٣].

ظن هؤلاء أن الرسول الذي خرج للغزو لن يعود هو وأصحابه سالمين، ولكن الله كذبهم، وعادوا سالمين غانمين منصورين.

الابتلاءات سنة:

ظن آخرون أن لن يعود رسول الله بعد أن أخرج من مكة مطرودا مشرداً.. خرج منها خفية من قومه.. خرج منها في حلك الظلام خائفا يترقب. ولكن الله خيّب ظنون المنافقين، وحطم أحلام الكافرين، وعاد رسول الله إلي مكة فاتحا بعد أن خرج منها طريدا.

عاد إليها جهارا، وقد خرج منها خفية.

عاد إليها نهارا، وقد خرج منها ليلاً.

عاد يحطم الأصنام التي كانت حول الكعبة وهو يقول: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١].

أيها الناس: إن دولة الباطل ساعة، وإن دولة الحق إلي قيام الساعة.

إن الحق لابد أن ينتصر مهما طال به المدي، ومهما امتدت الأيام.

إن عين الله لا تنام. وإن رقابة الله لا تغفل.

أفكار مغلوطة وأفهام خاطئة:

أيها الناس: إننا نريد أن نُصَحح أفكار الناس. فإن كثيرين يظنون أن الذي ابتلي وعُذِّب فذلك دليل علي ضعف إيمانه، وانحرافه عن الحق. وكذبوا والله، فإننا لو مشينا علي هذا الفكر الضال؛ لكان الأنبياء والمرسلون كلهم ضالين ومنحرفين.

أي نبي وأي رسول عاش داعيا إلي الله، مجاهدا في سبيله، ناصرا للحق، خاذلا للباطل، ولم يمتحن؟؟ ولم يضطهد من قومة؟؟

من ثمرات المحن[1]:

إن سلسلة النبوة حلقات دامية كلها، وقد صب عليها الأذي والاضطهاد. إن لله سنة في خلقه لن تتبدل، وقانونا ثابتا لا يتحول. إن الله يربي عباده بالمحن، ويصقل جواهرهم بالابتلاء، ويصفي نفوسهم بالاضطهاد، حتي لا تعرف إلا إياه، ولا ترجع إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه، ولا تفزع إلي سواه، ولا تنظر إلي غيره، ولا تدعو إلا إياه، وحتي ترسل الزفرات الحارة، والدعوات الصارخة، تهز قوائم عرش الله.

قد يسخر الساخرون بالقلوب المؤمنة، وبالدعوات المظلومة. ولكنا نقول لهم:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطي ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء

فيمسكها إذا ما شاء ربي ... ويرسلها إذا نفذ القضاء

طريق الدعوة محفوف بالمخاطر:

أيها الناس: إن أنبياء الله جميعا قد اضطهدوا، وإن الله لم يرسل رسولا إلا وأدبه بدروس الأذي والاضطهاد والابتلاء.

---

(١) ذكر شيخنا الفاضل في كتابه (الصبر في القرآن) حكما لهذه المحن ألخصها فيما يلي:

١- تطهير الصف من أدعياء الإيمان، من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، فإبان العافية والسراء يختلط فيها الحابل بالنابل، والخبيث بالطيب، وإنما يقع التمييز بين الأصيل والدخيل بالمحن والبلاء.

٢- تربية المؤمنين، وصقل معادنهم، وتمحيص ما في قلوبهم فإنهم ينضجون بالمحن كما ينضج الطعام بالنار.

٣- زيادة رصيدهم ومقامهم عند الله، فهو يرفع درجاتهم، ويضاعف لهم حسناتهم، أو علي الأقل يكفر خطاياهم. انظر: الصبر في القرآن، ص١٨، ١٩ بتصرف.

إنك لا تستطيع أن تشرب كوبا من الشاي إلا إذا أدخلته النار فينضج، والمؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا انصهر في أفران المحن[١]، وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إن نوحا عليه السلام ظل يدعو ألف سنة إلا خمسين عاما، ويقال عنه: مجنون وازدجر.

وإن إبراهيم عليه السلام قد أوذي من قومه؛ حتي ألقوه في النار.

وإن إسماعيل عليه السلام قد تعرّض للذبح.

وإن لوطا عليه السلام قد أخرجه قومه من قريتهم، أو أرادوا إخراجه، لا لشئ إلا لخُلقه الجميل، ولسانه النظيف، وقلبه الطاهر ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

وإن موسي عليه السلام من أول يوم وُلد ربّاه الله علي المحن، فألقي في اليم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

---

(١) لشيخنا كلام نفيس في الصبر ذكره في كتابه «الصبر في القرآن» ومما قاله في هذا الموضوع:

لقد عرف عُشاق المجد وخُطّاب المعالي، وطُلاب السيادة، أن الرفعة في الدنيا كالفوز في الآخرة، لا تنال إلا بركوب متن المشقات، وتجرع غصص الآلام، والصبر عن كثير مما يحب، وعلي كثير مما يكره، وبدون هذا لا يتم عمل، ولا يتحقق أمل، ومن تخيل غير هذا الطريق كان كالذي قال لابن سيرين: إني رأيتني في النوم أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح!! فقال له: أنت رجل كثير الأماني والأحلام، تتمني ما لايقع، وتحلم بما لا يتحقق، وفي شعر الحكم نقرأ قول أحدهم:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله   لن تنال المجد حتي تلعق الصبر

انظر: الصبر في القرآن طبعة مكتبة وهبه، ط الثالثة ١٩٨٩م.

وإن يوسف عليه السلام منذ صغره قد لقي ما لقي، فقد ألقي في الجب، ولا ذنب له، وبيع بثمن بخس دراهم معدودة، كما تباع الشياه، ثم نراه يخدم في بيوت الأمراء كما يخدم الأرقاء. يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي هذا الرسول النسيب الحسيب، يخدم كما تخدم العبيد، ثم يتهم كما يتهم ذوو الفاحشة، ثم يسجن ويلبث في السجن بضع سنين كما يسجن المجرمون!

إن زكريا عليه السلام نشره اليهود كما تنشر الخشب.

وإن السيد الحصور يحيي ذبح كما تذبح الأنعام.

وإن عيسي عليه السلام قد تآمر عليه اليهود، لولا أن رفعه الله إليه.

وإن رسول الله ظل في مكة ثلاثة عشر عاما وهو يذوق العلقم من الجبهة المشركة، ثم يذهب إلي المدينة فيلقي من عنت المشركين ودسائس اليهود، ومكر المنافقين.

كل هذا ليزداد صفاءً ويقيناً وقرباً من ربه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

هؤلاء هم الأنبياء فإن أردتم أن تروا غيرهم فمن ذا ترون؟

والصحابة علي دربهم سائرون:

أترون إلي عمر وقد مزقت أشلاءه يد مجوسية كافرة؟

أترون إلي عثمان وقد قتل وهو يتلو كتاب الله؟

أترون إلي عليّ وقد ضرب في شهر رمضان وهو ذاهب إلى صلاة الفجر؟

أترون إلي الحسين وقد قتل ظمآن إلي شربة الماء؟

والدعاة والمصلحون علي الطريق:

أترون إلي الدعاة من بعدهم والمصلحين؟

أترون إلي ابن تيمية وقد عاش سنين من عُمره في السجون حتي قال:

لا أجزع من سجني ولا نفيي ولا قتلي، فسجني خلوة لعبادة الله، ونفيي سياحة في سبيل الله، وقتلي شهادة في سبيل الله.

أترون إلي جمال الدين الأفغاني[1] وقد أخرج من مصر ونفي منها؛ لأنه رئيس جمعية سرية من الشباب ذوي الطيش مجتمعة علي فساد الدين والدنيا!

أترون إلي حسن البنا وقد قتل في شارع كبير من شوارع القاهرة، ليقدم رأسه هدية في عيد ميلاد ملك؟

هكذا كان أنبياؤنا المرسلون. وهكذا كان المصلحون والمجددون.. كما قال رسول الله ﷺ: إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[2].

الناس عند نزول المحن:

حظ كل إنسان من المحنة ومن المصيبة ما تحدث المحنة في نفسه: رضا يطمئن إلي غايته ومنهجه، أو سخطا فينكر عبادته ودعوته. وصدق الله العظيم: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ [الحج: ١١].

والقائل سبحانه: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [العنكبوت: ١٠].

---

(١) الأستاذ جمال الدين الأفغاني من الشخصيات التي تضاربت فيها الأقوال، وكثر حولها اللغط، حتي تطاول عليه الكثيرون، وقد نال تلميذه محمد عبده نصيباً من هذا اللغط، والشيخ القرضاوي تعرّض في كثير من كتاباته للشيخ الإمام محمد عبده، وأستاذه جمال الدين الأفغاني، وأكد ما كان للرجلين من مآثر، واعتذر عما كان لهما من زلات، والكمال عزيز. انظر ما كتبه فضيلة الشيخ القرضاوي في كتابه (من أجل صحوة راشدة) ص ٤٢، ٤٣، ولقاءات ومحاورات ج١ / ص٧٥.

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣١) عن أنس وحسنه الألباني فى الصحيحة (١٤٦).

ومن هنا لم يكن الناس عند نزول المحن سواء، وإنما هم أنواع، فمنهم:

١- قوم تحدث المحنة في نفوسهم سخطا وفزعا.

٢- وقوم تحدث المحنة في نفوسهم صبرا جميلا علي قضاء الله.. أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٧].

٣- وقوم تحدث المحنة في نفوسهم الرضا بقضاء الله تبارك وتعالي، أولئك الذين يعلمون أن الله يختار لهم الخير حيثما كانوا، ويتدبرون الأثر القدسي إذ أوصي الله إلي داود فقال: «يا داود أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد».

يتدبرون الأثر القائل: (إن الله عز وجل جعل الفرح والروح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في السخط والشك)[1].

٤- وقوم تحدث المحنة في نفوسهم أكثر من الصبر والرضا، وهو: الشكر والسرور بقضاء الله تبارك وتعالي، فيرون المحنة منحة، والنقمة نعمة، والبلية هدية[2].. يرون فيها نصر الله كما قال عبد الله بن عمر: «ما أصبت بمصيبة

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً علي ابن مسعود (١/٢٢٢).

(٢) ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في منزلة الصبر: أن الصبر في المحن يستعين العبد عليه بثلاثة أشياء، وعد منها: تهوين البلية، وذكر أن البلية تهوّن بأمرين:

الأول: أن يعد نعم الله وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه - بالنسبة إلي أيادي الله ونعمه - كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي. وتعداد أيادي المنن: يتعلق بالحال. ويَحكي عن امرأة من العابدات أنها عثرت. فانقطعت إصبعها. فضحكت. فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطع أصبعك؟ فقالت: أخاطبك علي قدر عقلك. حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها.

انظر: تهذيب مدارج السالكين ص٣٥٩، ٣٦٠.

إلا كان لله عليّ فيها ثلاث نعم. النعمة الأولي: أنها لم تكن في ديني، والنعمة الثانية: أنها لم تكن أكبر منها، والنعمة الثالثة: أنني أرجو ثواب الله عليها.

لابد من المحنة لأنها سنة الله في أصحاب الدعوات ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا، والله يقول للمؤمنين: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ويقول: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤] ويقول: ﴿ **الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

أيها الناس: هذه سنة الله في أصحاب الدعوات.

الدنيا دار التعب:

ونظرة أخري حتي في غير أصحاب الدعوات، في طبيعة هذه الحياة الدنيا.. إنها لا تخلو من عنت ومشقة.. ودلوني بربكم علي إنسان مرتاح النفس، هاديء الضمير، سعيد الفؤاد، ولا يكدر حياته مكدر.. دلوني عليه نكن مثله.. ليس في هذه الدنيا سعيد، لا غني ولا فقير، ولا ذو سلطان ولا خامل.. ربما كان أصحاب الجاه والسلطان أشد الناس ألما وأكثرهم مرارة وتعبا ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ [البلد: ٤].

من أول يوم ينزل فيه الإنسان من بطن أمه يجد العناء. وقد قيل لسيدنا علي: صف الدنيا: فقال: ماذا أصف من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء؟ من افتقر فيها حزن، ومن اغتنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، وفي متشابهها العتاب.

إذا كان أهل الدنيا متعبين، وطلاب الآخرة متعبين. مادام التعب ضرورة، فلنتعب للآخرة بدلا من أن نتعب للدنيا، ولنتعب لله بدلا من أن نتعب للناس،

ولنتعب للرحمن بدلا من أن نتعب للشيطان، اجعلوا تعبكم ومعاناتكم للآخرة وللإسلام أيها الناس.

نسأل الله تبارك وتعالي أن يتقبل أعمالنا، إنه نعم المولي ونعم النصير.

يقول رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي علي الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من جابههم إلا ما أصابهم من لأواء (أذى)، حتي يأتي أمر الله»[(٢)].

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله..

هكذا الدنيا أيها الناس.. كل إنسان معرض فيها لبلية نازلة، أو لنعمة زائلة، أو لجانحة في نفسه، أو في أهله، أو في ماله، أو فيمن يحب من أهله وعشيرته، ربما كان أشد الناس تعبا هم الذين تعدونهم سعداء، وربما كان أشد الناس سعادة هم الذين تعدونهم مغربين أو مضطهدين.

لأن المؤمن يشعر بالأمان في نفسه، والاطمئنان إلي مصيره، وإن خاف الناس من حوله ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٩]

وقديما قال إبراهيم لقومه حينما حاجوه. وناقشوه: ﴿**أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ** (أصنامكم الكبيرة) **وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ**

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٩٩) عن صهيب.
(٢) رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة.

أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾
[الأنعام: ٨٢]

لقد قالت امرأة عمر حينما قال لها: لأشقينك - لأرينك الشقاء والهوان - فقالت: لا تستطيع يا عمر أن تشقيني. فما كانت سعادتي في مال تمنعني منه، ولا في زينة في صدري ولا في أذني لتقطعها عني، وما هي في شيء من هذه الدنيا ولكني يا عمر أري سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي[1].

إننا نسعد أيها الناس بعقيدتنا..

إننا نسعد أيها الناس بدعوتنا..

إننا نسعد أيها الناس بإيماننا..

ليست سعادتنا في فخامة الدور، ولكنها في طوايا الصدور.

وليس إيماننا في البنيان والطوب، ولكن في شغاف القلوب.

فليعملوا ما شاءت لهم أهواؤهم وأغراضهم فإن القافلة تسير، وإن دين الله باق، وإن دعوة الله ماضية **﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾** [الأنعام: ٨٩].

---

(١) لسماحة الشيخ في «الملحمة النونية» شعر في هذا المعني، يقول فيه:

تالله ما الطغيان يهزم دعوة ... يوماً وفي التاريخ بِرَ يميني
ضع في يدي القيد ألهب أضلعي ... بالسوط ضع عنقي علي السكين!
لن تستطيع حصار فكري ساعة ... أو نزع إيماني ونور يقيني!
فالنور في قلبي وقلبي في يدي ... ربى وربى ناصرى ومعيني!
سأعيش معتزا بحبل عقيدتي ... وأموت مبتسما ليحيا ديني!

انظر: نفحات ولفحات ص٩١، ٩٢.

ورد أن في يوم الجمعة ساعة ، إجابة لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجيب له[1] .

اللهم نسألك رحمة من عندك تجمع بها شملنا، وتلم بها شعثنا، وتقوِّم بها عوجنا، وتصلح بها فسادنا، وتهدي بها قلوبنا، وترفع بها شأننا، وتزكي بها أعمالنا . .

ربنا أعنا ولا تعن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وأمكر لنا ولا تمكر علينا، واهدنا ويسر الهدي إلينا، وانصرنا علي من بغي علينا .

* * *

---

(١) يشير فضيلة الشيخ إلي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال : « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه الله إياه » متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٤٩٥) رواه البخاري في الجمعة (٩٣٥) ومسلم في الجمعة (٨٥٢)، وذكر ابن القيم للعلماء في هذه الساعة أحد عشر قولاً، رجح القول بأنها بعد العصر، انظر: زاد المعاد (١ /٣٧٦– ٣٧٨) .

(١١)

الناس أصناف أربعة[١]

الحمد لله، لا يزيد في ملكه حمد الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين.

الحمد لله. لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [الجاثية: ١٥]

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أدي الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا علي المحجة البيضاء، علي الطريقة الواضحة الغراء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضي الله عمن دعا بدعوته، واهتدي بسنته، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

واحشرنا اللهم في زمرة هؤلاء الطيبين، يوم يحشر المتقون إلي الرحمن وفدا ويساق المجرمون إلي جهنم وردا.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

أصناف الناس:

الناس في هذه الدنيا أصناف شتّي، وأنواع كثيرة:

١- صنف يعيش للشهوة، فهذا حيوان.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في يوم الجمعة: ٦ شعبان ١٣٧٣هـ الموافق ٩ إبريل ١٩٥٤م.

٢– صنف يعيش للأذي : فهذا سبع .

٣– صنف يعيش للباطل : فهذا شيطان .

٤– صنف يعيش للحق : فهذا ملاك .

الصنف الأول : من يعيش لشهوته :

من الناس من يعيش في هذه الدنيا ولا غاية له، ولا مبدأ له، ولا فكرة له، ولا هدف له، تسأله كيف يعيش؟ ولم يعيش؟ وإلي أين يسير؟ وفي أي طريق يمشي؟ فلا يعطيك جوابا، بل ربما لا يعرف معني السؤال .

هذا جحد نعم الله الكبري عليه . فلماذا أنزل الله له الكتب؟ ولماذا أرسل له الرسل؟ ولماذا منحه العقل الذي به يميز؟ والقلب الذي به يحس؟ والإرادة التي بها يرجح ويختار؟

هذا لم يعرف قدره، فتراه حيا كميت، وموجودا كمفقود، وإنسانا كحيوان . همّه كما قال القائل :

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

هذا صنف من الناس لا يمكن أبداً أن نعده في زمرة الإنسانية، وأن نحسبه علي الطائفة البشرية . يعيش في الدنيا كأنه ليس منها، يعيش كأنه ليس فيها، لا يحس بالحياة، ولا تحس به الحياة، لا يشعر بحقيقة الوجود، ولا يشعر بسر الوجود، هذا هو الصنف الذي حدثنا عنه الله تبارك وتعالي فقال : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

لهم حواس ولهم مشاعر؛ ولكنهم عطّلوها، وغطوا عليها، وأهملوها . فكانوا كالأنعام؛ بل كانوا أضل من الأنعام، وإنما كانوا أضل من الأنعام، وكانوا أحط درجة، وأنزل شأنا لأن الحيوان معذور .

لماذا هذا الصنف أضل من الأنعام؟

وهذا الصنف من الناس أضل من الأنعام لحقيقتين:

الحقيقة الأولي: أن الأنعام لا عقل لها تفكر، ولا حسّ به تشعر، ليس لها تلك القلوب الخافقة، وليس لها تلك الأنفس الناضجة، وليس لها تلك الأفكار العالية، لم تنزل عليها الكتب، ولم ترسل إليها الرسل، فلا عجب إذا سارت وراء شهواتها، وانحطت في دركاتها، وانغمست في ملذاتها، أما هذا الإنسان العجيب الذي سخر الله له السماوات والأرض؛ ما عذره إذا أهمل سر الله في كيانه؟ لا عذر له.

لهذا كان مثل هذا الصنف من الناس أضل من الأنعام سبيلا!!

والحقيقة الثانية: أن الأنعام والبهائم، والجواميس والأبقار، والخيل والبغال والحمير: لها مهمة تؤديها، ولها رسالة لا تتأخر عن أدائها.

الجاموسة إذا دعيت للحرث والنسل لا تتردد، ولا تتأخر عن أن تجر المحراث، ثم هي تربي أولادها، ثم تأتينا باللبن خالصا سائغا للشاربين. فهي تؤدي مهمتها، وتقوم برسالتها، لا تتمرد ولا تعصي، فما بالك بالإنسان ومهمته عبادة الله وحده، وخلافة الله في هذه الأرض، فما بالك بهذا الذي لا يعرف مبدأ يعيش له، وإنما يعيش للشهوات، يعيش للبطن وللمعدة، يعيش للفرج وللغريزة، يعيش للمرأة، يعيش للهو واللعب، يعيش لهذه الغايات الضئيلة التي تفنى.

الصنف الثاني: من يعيش لأذي غيره:

وهناك صنف آخر: لا يكتفي فقط أن يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب؛ بل راحته في إيذاء الناس، وسعادته في ظلم الناس، طبيعته طبيعة الوحوش الضارية، والثعابين النفاثة، والعقارب اللادغة، لا يرتاح ولا ينشرح إلا بنفث السموم، تسمع له القول المعسول، واللفظ اللين، ولكنه يضمر في نفسه شرا.

لو كشفت عن أسنانه وأضراسه لوجدتها أسنان وحش ضار، وأنياب نمر

مفترس، ولو كشفت عن ثيابه لوجدت تحت الثياب كلبا عقورا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

لا تقل: إن هذا الصنف بشر، إنهم شر من السباع والوحوش، لأن الوحوش لا تؤذي فرائسها بقصد الأذي والعدوان، بل هي تقصد أن تشبع جوعها، وتملأ بطنها، بخلاف هؤلاء الذين يؤذون لغرض الأذي.

الصنف الثالث: من يعيش للباطل:

وهناك صنف ثالث: يعيش لمبدأ؛ ولكن لمبدأ باطل، ويحيا لفكرة؛ ولكن لفكرة ضالة، إنه قد ضل وخُدع، إنه قد غُرّر بعقله، وانحرف تفكيره، فسار وراء السراب يظنه ماء، وظن الورم شحما، وظن الشر خيرا والباطل حقاً، هذا هو المخدوع كما قال الله تعالى: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ [فاطر: ٨] وقال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤].

ولهذا كان من دعاء السلف: اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. وكان من دعاء المسلمين في كل يوم في سبع عشرة ركعة: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة: ٦ -٧].

المغضوب عليهم هم: الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه، خانهم الشيطان.. والضالون: هم الذين انحرفوا عن طريق الحق، لأنهم جهلوه ولم يعرفوه، أو التبس عليهم الحق بالباطل، واختلط عليهم الحابل بالنابل، كالذي ضل في الصحراء، فلم يعرف له وجهة: أبشرق أم بغرب؟

فاللهم اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم؛ غير المغضوب عليهم ولا الضالين.. آمين.

الصنف الرابع: من يعيش للحق:

وهناك صنف رابع: هو الذي يعيش لغاية كريمة، يعيش لمثلُ عليا، يعيش لفكرة رفيعة، يعيش لهدف نبيل، يعيش لعقيدة سامية، ولمبدأ حق.

إنه لا يعتقد أن الله سبحانه قد هيّأ له هذا الكون، وأوجد فيه سر الحياة، وأنزل عليه الكتب، وأرسل إليه الرسل؛ لا يعتقد أن هذا كله ليعيش عيشة الحيوان، بل ليعيش إنسانا كريما يرتفع بنفسه إلي الله تعالي، ويسمو بروحه إلي الملأ الأعلي، إلي الملائكة المقربين.

هؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** ﴾ [البينة: ٧].

غايات نبيلة وأخري وضيعة:

لقد قال الله تعالي مبينا للناس الغايات الكريمة من الغايات الوضيعة: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٤ – ١٥]. هل أدلكم علي أفضل من الحرث والأنعام، والنساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة؟ نعم أنبئنا يا رب!! ﴿ **لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾

[آل عمران: ١٧]

أولئك الذين عرفوا حقيقة وجودهم، أولئك الذين أدركوا سر حياتهم، أولئك الذين عرفوا أن كل ما في الوجود لا يساوي حبة خردلة، وأن الدنيا

بأرضها وسمائها، وبحارها وأنهارها، وزروعها وأشجارها، وجنّها وإنسها، وفضتها وذهبها، لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما شرب كافر منها شربة ماء[1].

تسبيحة أفضل من ملك سليمان !:

لقد حكوا أن سليمان بن داود مرّ بملكه العريض، وموكبه العجيب - فيه الجن والإنس والطير، من كل صنف ولون - علي رجل فلاح يلقي بذرته في الأرض، يبذر الحب ويرجو الثمار من الرب، فرأي فخامة ملكه وضخامته؛ فقال معجبا بهذا الملك: لقد أوتيت يا ابن داود ملكا عظيما، فبلغت مقالته سليمان، فقال في معرفة المتواضعين وتواضع العارفين: والله لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود. فإن التسبيحة في صحيفة المؤمن تبقي، وما أوتي ابن داود يزول ويفني.

هذا هو منطق المؤمنين، هذا هو فقه أصحاب القلوب: الذين بحثوا عن السعادة الحق فوجدوها، ولم يضلوا الطريق إليها.

ليست هذه هي السعادة[2]:

إن السعادة ليست في المال؛ فالمال ظل زائل.

وليست في الجاه؛ فالجاه نجم آفل.

وليست في الأولاد؛ فالولد لا يبقي لك، وإن بقي فلن تبقي له.

وليست في الملك فالملك لا يدوم.

---

(١) إشارة: إلي حديث سهل بن سعد: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي كافراً منها شربة ماء» رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢١) وابن ماجه في الزهد (٤١١٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٨٩).

(٢) لشيخنا حفظه الله في كتابه (الإيمان والحياة) موضوع نفيس عن السعادة بعنوان: (الإيمان والسعادة) وفيه يقول الشيخ: السعادة هي جنة الأحلام التي ينشدها كل بشر، من الفيلسوف في قمة تفكيره وتجريده، إلي العامي في قاع سذاجته وبساطته، ومن الملك في قصره المشيد، إلي الصعلوك في كوخه الصغير، ولا تحسب أحداً يبحث عن الشقاء لنفسه أو يرضي بتعاستها.

إن كل ما في الدنيا ومن في الدنيا إلي زوال.. كل جمع إلى شتات.. وكل حي إلى ممات،.. وكل ملك إلى فوات..

هب الدنيا تساق إليك عفوا   أليس مصير ذاك إلى انتقال؟
ومـا دنيـاك إلا مـثل ظل   أظلـك ثـم آذن بـالـزوال!

هذا هو شأن الدنيا!!

السعادة الحقة في القلوب:

لقد عرف أرباب العقول النيرة، وفقه أصحاب القلوب البصيرة: أن سعادة المرء ليست في مظهر من مظاهرها، ولا في مال من أموالها، ولا في عرض من أعراضها الزائفة، إنما سعادتها الحقة فيما ينبع من شغاف القلوب الطاهرة، وفيما يرفع إلي الله تبارك وتعالي من العمل الصالح.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، **﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾** [النساء: ١٣٩]

هكذا عرف المؤمنون.. وهكذا فقه العارفون.. وهكذا يتربي الشباب الطاهرون.

يـريد العـبـد أن يُعطي مناه   ويـأبـي الله إلا مـا يـريـد
يقـول العبـد: فائدتي ومـالي   وتقـوي الله أفـضل ما يفـيـد
ولست أري السعادة جمع مال   ولكـن التـقي هو السـعـيـد

السعادة إذا ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة.

السعادة شيء معنوي لا يُري بالعين، ولا يقاس بالحجم، ولا تحتويه الخزائن، ولا يُشتري بالدينار، ولا بالجنيه، أو الروبل، أو الدولار.

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه.. صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير.

هؤلاء هم الناس حقاً:

هذا الصنف الرابع هو الذي يعيش للغاية الحقة، يجب أن نعده وحده من الناس، ويجب أن نحسبه وحده من المؤمنين الصادقين.

إن الإنسان ليس إنسانا بضخامة جسمه، ولا بجمال منظره، ولا بفخامة مظهره، ولا بما أوتي من مال وجاه، وإنما هو إنسان بهذه المضغة التي بين جنبيه، هو إنسان بهذا القلب الذي به يصلح أو يفسد، ويسعد أو يشقي، قال تعالي: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وفي الصحيحين قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»(١).

فأصلحوا أيها الناس هذه القلوب.

كيف نعرف الحق من الباطل:

أيها الناس: بماذا نعرف المبدأ الحق من المبدأ الباطل؟

المبدأ الحق: هو الذي يتصل بالله تعالي، هو الذي يأمر به الله، لأن معني الحق: الثابت الذي لا يتغير.

فكل متغير وزائل هو الباطل: لا يملك أساسا له.

والحقيقة الثابتة في النفوس، الراسية في القلوب، التي لا يعتريها تغيير ولا زوال هي: الله تبارك وتعالي: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص: ٨٨].

فليس في الدنيا حق إلا الله.

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٠٢٨) رواه البخاري في البيوع (٢٠٥١) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير.

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾
[يونس : ٣٢]

إن كل ما تظنه في الدنيا مما سوي الله حقا، فأنت به مخدوع، فكم من شيء اعتقدت أنه حق وزال، ولكن الحق الباقي : هو الله تبارك وتعالي ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ [الحج : ٦٢]. من جهل هذا فى الدنيا سيعرفه في الآخرة.

من عميت عينه عنه اليوم فسينكشف الغطاء غدا ﴿ **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ [ق : ٢٢] ﴿ **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** ﴾ [النور : ٢٥].

أيها الناس :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل　　　وكل نعيم لا محالة زائل

هذه أصدق كلمة قالها شاعر كما قال رسول الله ﷺ(١)، فقيسوا المبدأ الحق بصلته بالله، وبكتابه، وبدينه، وبرسوله. فهو الحق الذي لا يمكن أن يزول؛ مهما تألبت عليه القوي، وتجمع عليه الناس، وكاد له الكائدون، وتربص به المتربصون، فإن الله من ورائهم محيط، وإن ربك لبالمرصاد، وإن عين الله لا تغفل، وإن الله لا تأخذه سنة ولا نوم.

﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾
[الزخرف : ٨٠]

اختر لنفسك صنفاً :

أيها الناس : هؤلاء هم أصناف الناس :

صنف : ليس له فكرة ولا مبدأ ولا غاية، يعيش لبطنه وفرجه، ويدور حول

---

(١) إشارة إلي الحديث المتفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٤٥٤) : (أصدق كلمة قالها الشاعر؛ كلمة لبيد . .) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١) ومسلم في الشعر (٢٢٥٦) عن أبي هريرة.

أمعائه وأهوائه، ويحيا لمأكله ولمشربه، ولملبسه أو مسكنه، لامرأته أو لأهله، أو لأولاده، يعيش لمصلحته الذاتية، ومنفعته الشخصية.

وصف ثان: يعيش لإيذاء الناس، كما تعيش العقارب، والثعابين، ولا يتمكن إلا ليتمكن لنفسه، ولا يحسن القول والكلام إلا ليجد الفرصة لإيذاء خلق الله.

وصنف ثالث: خُدع عقله، فمشي وراء الأحلام ،وظن الباطل حقا، والضلال هدي، فهذا لا يهتدي حتي ينكشف له الغطاء، ويتضح الصبح لذي عينين، فإن الأمر سيظهر في الآخرة.

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [النور: ٣٩]

وصنف رابع: هو الذي يعيش لغاية، ويحيا لفكرة، ويعمل لهدف رفيع نبيل، فهؤلاء هم المؤمنون ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨].

فاللهم اجعلنا منهم، وانفعنا بهم.

يقول رسول الله ﷺ: « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات؛ لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقي الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه – أي طلب البراءة لدينه وعرضه – ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام ، كالراعي يرعي حول الحمي، يوشك أن يرتع فيه، ألا إن لكل ملك حمي، ألا إن حمي الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب »[١].

وقال ﷺ: « إن الله لا ينظر إلي صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم »[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) عن أبي هريرة، وفي رواية (إن الله لا ينظر إلي أجسادكم ولا صوركم، ولكن ينظر إلي قلوبكم ».

وقال ﷺ: «إن من ورائكم لفتنا كقطع الليل المظلم، للعامل فيها أجر خمسين منكم» قالوا: منهم يا رسول الله. قال: «بل منكم لأنكم تجدون علي الخير أعوانا، وهم لا يجدون علي الخير أعوانا»[1].

والحمد لله رب العالمين . . .

* * *

---

(١) قال الحافظ العراقي في الإحياء: أخرجه الترمذي وحسنه، وأبو داود وابن ماجه، وللحديث رواية أخري عند الطبراني في الكبير (١٧/ ١١٧) وفي الأوسط (٣/ ٢٧٢) عن عتبة ابن غزوان بلفظ: «من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم، قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال: بل منكم» قال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن شيخه بكر بن سهل عن عبد الله بن يوسف وكلاهما قد وثق، وفيهما خلاف (٧/ ٢٨٢) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٤).

(١٢)

جهاد الجزائر (١)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ له الملك وله الحمد، وهو علي كل شيء قدير.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلي الله عليه وعلي آله وصحبه، ومن نهج نهجه، واتبع سنته، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد .. فيا أيها العرب أيها المسلمون:

هل أتاكم نبأ الجزائر المؤمنة المجاهدة؟ ذلك الجزء العزيز من وطننا العربي الكبير، والذي يُعد واسطة عقد المغرب العربي، وفلذة كبد العروبة في الشمال الإفريقي.

عطفتان مختلفتان:

إن الحديث عن الجزائر العربية يثير في النفس عاطفتين مختلفتين: يثير الغضب والحقد والكراهية إذا ذكرت فرنسا ووحشيتها، ويثير الإشفاق والإعجاب والتقدير إذا ذكرت الجزائر وبسالتها..

ثورة مدوية كأنها الرعد:

لقد نكبت الجزائر بالاستعمار الفرنسي في غفلة من الزمن سنة ١٨٣٠م، وكانت أول قُطْر عربي حلّت به كارثة الاستعمار. ولكن الجزائر الأبيّة لم تركع علي قدميها صاغرة، ولم تفتح ذراعيها للمستعمر، بل قاومت وصمدت، وبذلك وضحت غايتها، وقام أبناؤها بحركات عديدة ضد بغي فرنسا، قُتل فيها الألوف، وعشرات الألوف، وهُدمت منازل ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً،

---

(١) نص الخطبة التي أذيعت من إذاعة القاهرة من مسجد الزمالك، في أول رجب ١٣٧١ هـ الموافق ١٩٥٧م.

وأبيدت قري بأسرها، فلم يثن ذلك للجزائريين عزما، ولم يَفُلّ لهم حدّا، بل كانوا كالشعلة المتقدة كلما هبت عليها الريح زادت اشتعالا، ولم يزالوا مصممين علي التحرر من عبودية فرنسا، وتحطيم قيود الذل والهوان، حتي قامت ثورتهم المباركة الأخيرة منذ ثلاث سنوات، مُدويّة كأنها الرعد، كاسحة كأنها العاصفة، راسية كأنها الجبل، جبارة كأنها قدر من الأقدار.

وجُن جنون فرنسا، فجمعت جموعها، وحشدت جيوشها؛ تزحف من البر وتضرب من البحر وتقذف بالحمَم من الجو.

نصف مليون جندي فرنسي بكل ما لدي فرنسا من أسلحة حديثة بل بأسلحة أوربا الغربية، وحلف الأطلنطي كله، بهذا كله وقفت فرنسا تحارب جيش التحرير؛ المحدود العدد، الضئيل السلاح.

هل أخاف هذا العَدد والعدد أبناء الجزائر؟ لا. ثم لا. إنهم نظروا إليه نظرة خبير بشباب فرنسا المنحل المنهار، ورددوا ما قاله الرسول ﷺ حين نظر إلي جموع المشركين يوم هوازن: «تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله»(١) وكانوا مثالا رائعا للمؤمنين(٢) ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

جهود ابن باديس ورفاقه:

وطار لب فرنسا من تصميم الأحرار، وضربات المجاهدين؛ فاعتقلت الزعماء الخمسة، تحسب أن الثورة ستخمد نارها، وجهلوا أن حركة الجزائر ليست حركة أشخاص، ولكنها حركة أمة، ويقظة عملاق، وامتداد حضارة، وانتفاضة تاريخ.

إنها نتيجة تعليم طويل المدي وتربية عميقة الجذور لعلماء مخلصين ورجال مؤمنين ﴿ **صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٠١) عن سهل بن الحنظلية، والحاكم (٢/٩٣) والنسائي في الكبري (٥/٧٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٨٣).

(٢) هم الصحابة الذين حضروا غزوة أحد، وقد جاءهم أن أبا سفيان ومن معه أجمعوا على السير إلي المدينة ليستأصلوا المسلمين، فقال الرسول ومن معه: ﴿ **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾، قال ابن عباس: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها محمد ﷺ، حين قالوا (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ...) رواه البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

إنها ثمرة لما غرسه الإمام المجدد : عبد الحميد بن باديس ورفقاء دربه : الإبراهيمي، وإخوانه من أعضاء جمعية العلماء الجزائريين المسلمين، الذين وقفوا أمام الاستعمار الفرنسي يقاومون (فرنسته) بالأسلمة والتعريب وتجهيله للشعب بالتعليم، ويربون الجيل الحر الذي حمل اليوم السلاح ليحارب الوحش الاستعماري، أو الاستعمار الوحشي .

ابن باديس هو الذي حفّظ الشعب الجزائري النشيد الخالد :

شعب الجزائر مسلم — وإلى العروبة ينتسبْ

من قال : حاد عن أصله — أو قال : مات قد كذبْ

حرب علي العروبة والإسلام :

أيها العرب أيها المسلمون : لقد عرف الفرنسيون المستعمرون أن قوام الشخصية الجزائرية هو العروبة والإسلام، فحاولوا بكل ما استطاعوا من قوة وكيد أن يحطموا تلك الشخصية لتنهار مقاومتها، ويذوب كيانها، ويسهل ابتلاعها وإدماجها .

حاربت فرنسا اللغة العربية، وأصدر أحد وزراء خارجيتها قرارا بأن اللغة العربية لغة أجنبية بالنسبة لجميع سكان الجزائر، واعتبر تعليمها « محاولة عدائية » ضد فرنسا لصبغ الجزائر بالصبغة العربية .

وحاربت فرنسا الحرة المتسامحة!! الدين الإسلامي حربا خسيسة فاجرة، وحسبنا هذا النص الواحد دليلا علي سياسة فرنسا مع الإسلام :

قال أحد الفرنسيين في الإدارة الإسلامية : (لقد بلغ مدي إذلالنا للدين الإسلامي أنه أصبح يتعين علي كل من يرغب في شغل منصب من مناصب الإمامة والإفتاء أن يعمل جاسوسا لفرنسا!! وهو لا ينال بعد ذلك تقدما أو ترقية إلا بقدر ما يظهر من وفاء، ويثبت من طاعة للإدارة العامة الفرنسية) .

فشل ذريع لفرنسا :

تلك كانت سياسة فرنسا في قرن وربع قرن من الزمان : سياسة فرنسة الجزائر، وإلغاء شخصيتها العربية المسلمة . فهل أفلحت سياسة فرنسا؟ لا، وأيم الحق : إن جهودها الجبارة المتتابعة، المؤيدة بالحديد والنار، والعلم والمال، والخبث والدهاء؛ باءت بالفشل الذريع، وبقيت الجزائر عربية صريحة العروبة، مسلمة

عـمـيـقـة الإسـلام، وأضـافـت إلي كـتـاب الـعـروبـة والإسـلام صـفـحـة خـلود جـديـدة، أثبـتـت بـهـا أن الـعـروبـة أصـلب عـودا، وأشـد قـوة، وأن الإسـلام أعـظم صـمـودا واستعصاء علي كل محاولات الخادعين والمخادعين.

أيها المسلمون: لقد تجلّت الجزائر المؤمنة بربها وبنفسها وبحقها في جيش تحريرها المنصور، الذي ألقي علي الطغاة الفرنسيين دروسا بليغة في احترام الشعوب، وعلمهم أن في الزوايا خبايا، وأن في العرين أسودا لا يستباح حماها، وأن الجزائر ليست غنيمة باردة ولا لقمة سائغة، ولكن طعمها مر المذاق، ولحمها سم زعاف.

النعام تستأسد:

ولما فشل جيش فرنسا في مواجهة ثلاثين ألفا من المجاهدين الذين لا يملكون سوي البنادق والرشاشات ولّي وجهه شطر المدنيين الآمنين. جيش فرنسا الذي خر علي ركبته منذ الضربة الأولي للألمان سنة ١٩٤٠م، وفاز ببطولة العدو أمام جنود هتلر!! هؤلاء النعام يريدون أن يكونوا أسودا تثبت زئيرها ونابها ومخلبها، ولكن علي من؟؟ علي النساء الحوامل، والفتيات العذاري، والأطفال الرضع، والشيوخ المحطمين.

وحوش في لبوس بشر:

لقد صب الاستعمار الفرنسي جام غضبه علي القري الآمنة فحرق بلادا بأسرها، وهدم دورا ومنازل، وقتل أعدادا هائلة من الناس، وتفنن في صنوف التنكيل والتعذيب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت!

ألم تروا إلي القرية العامرة، تمر عليها في الصباح نابضة بالحياة آهلة بالسكان وادعين، وبالزراع كادحين، وبالأطفال لاعبين، فتمر عليها في المساء فلا تجد مكان الدور إلا خرائب، ولا مكان الحياة إلا موتا، ولا مكان الآدميين إلا أشلاء متناثرة: سلطت عليها الآلات الجهنمية فجعلتها حصيدا كأن لم تغن بالأمس؟

ألم تروا! إلي الرجل الأعزل، أو المرأة الضعيفة، أو الصبي الناعم الأظفار أمسك به كلاب الصيد من الفرنسيين فصبوا عليه صفائح البنزين، ثم أشعلوا في جسده النار؛ ليتلذذوا برؤية تلك الشمعة الآدمية وهي تحترق، وهم بين الضحك الوحشي، والعربدة النكراء؟!!!

ألم يأتكم حديث القرية الجزائرية التي دخلوا عليها كالريح العقيم، فساقوا أهلها كما يسوق الجزار الشياه إلي المجزرة، وأمروهم أن يخلعوا ملابسهم، ويعروا أجسادهم رجالا ونساء، كبارا وصغارا، تحت ضغط السياط التي تلهب الظهور، والمدافع المصوبة إلي الصدور، ثم يحدث ما يستحي من ذكره اللسان، وتقشعر من هوله الأبدان!!

وكم من سيدة شريفة أو فتاة عذراء قتلت من أجل ذلك نفسها؛ حتي لا تدنس عرضها!! وكم من رجال - بعد هذه المناظر - اعتصموا في الجبال مصممين علي الانتقام للعرض والشرف أو الموت في ميدان الجهاد.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

فرنسا نسيت تاريخها:

أيها العرب أيها المسلمون:

تلك هي فرنسا!! مهد الثورة، وأم الحرية، وبلد الإخاء والمساواة. كما يزعمون ولا يستحون!!!

هي فرنسا!! التي سبرنا غورها، وعجنا عودها؛ فعرفتنا وعرفناها منذ قرون:

عرفتنا فرنسا في العصور الوسطي حين تكتل الغرب الصليبي للاعتداء علي الشرق الإسلامي، فلقنها صلاح الدين الأيوبي درسا قاسيا لم تكن لتنساه؛ فلما نسيته وعادت تزحف بجيوشها إلي مصر، واحتلت دمياط واتجهت نحو المنصورة لقيها جيش مصر، فهزمها شر هزيمة، وأخذ ملكها «لويس التاسع» أسيرا، وحبس في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولم يفك أسره إلا بعد دفع فدية ضخمة، وأصبح الفرنسيون بعدها موضع الازدراء والسخرية، حتي تندر بهم الشاعر المصري ابن مطروح فقال:

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق عن قؤول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسين ألفاً لا ترى منهمو غير قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها لعل عيسى منكمو يستريح
إذا كان باباكمو بذا راضيا فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد قبيح

دار ابن لقـمـان على حـالـهـا   والقيـد باقٍ والطواشي صبيح[1]

أيـهـا العـرب أيـهـا المسلمون: اعرفـوا عـدوكـم حـتـي تحـذروا منه، وتُوجـهـوا القوي إلي حربه لتقتضي منا توحيد الجهود، وإعداد العدة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾[الصف: ٤].

وفي الحديث: يقول الرسول ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق علي المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبدا، ولكن لا أجد سعة فيتبعوني، ولا تطيب أنفسهم فيتخلفون بعدي، والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل» [2].

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله ﴿ **بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [الصف: ٩].

أما بعـد:

أفليس من العجب أن يتفق الغرب المسيحي مع إسرائيل اليهودية؟ ولكن العارفين يعلمون أن الغرب الاستعماري لا دين له، كما أن إسرائيل الصهيونية لا دين لها: الاستعمار والصهيونية كلاهما لص عالمي مهمته أن يسرق ويقتل، وغايته خراب البلاد، وذل العباد، وإشاعة الفساد، لهذا تعاونا واتفقا ﴿ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [الجاثية: ١٩].

---

(١) انظر: الحروب الصليبية: أسبابها نتائجها. حملاتها/ سيد علي الحرير – تحقيق عصام شبارو – ط. دار التضامن (١ /٢٥٣).

(٢) رواه مسلم في الجهاد (١٨٧٦) عن أبي هريرة.

لقد كان هناك في الماضي من يقول: (ما لنا وللجزائر الآن؟ نحن في قضية مصر؛ فكيف نوزع الجهود؟ ونبعثر القوي هنا وهناك) ولكنا عرفنا اليوم أن معركتنا – نحن العرب – واحدة، وإن نشب القتال في جبهات شتي، وأن عدونا واحد وإن ظهر في ثياب أشخاص متعددين. فإذا سدّدنا إلي هذا العدو سهما في أي شخص من أشخاصه وفي أي جبهة من جبهاته؛ فإنما نصيب أعداءنا جميعا.

وإن أية حركة تقوم بها – أيها العربي المسلم في مصر – لنصرة إخوانك الجزائريين ضد فرنسا أو لنصرة إخوانك اليمنيين ضد بريطانيا، أو لنصرة إخوانك الفلسطينيين ضد إسرائيل، إنما هي في الواقع حركة ضد الاستعمار والعدوان علي مصر.

يا ثمانين مليونا من العرب[1]: جميل أن تُضْربوا من أجل الجزائر تعبيرا عن مشاعركم وإعلانا لتضامنكم، ولكن الأجمل والأحري: أن تتحول العواطف والمشاعر إلي مال وسلاح يقدمان للجزائر.

يا أربعمائة مليون من المسلمون: هبوا من مرقدكم فإن الإسلام يفرض عليكم أن تمدوا أيديكم، وتقفوا بجوار إخوانكم بالنفس والمال.

يا أحرار العالم، ومحبي السلام، وأنصار الإنسانية في كل مكان: ها هي فرنسا قد انتهكت حرمة المواثيق الدولية. واعتدت علي حقوق الإنسان، وأقامت من أهل الجزائر موانع بشرية واقية، فقولوا كلمتكم، وقفوا عدوان المعتدين، فقد قالت الجزائر كلمتها وسجلتها بالدم الزكي الغالي علي صفحات التاريخ.

أما أنتم – يا أبناء الجزائر الأعزاء – فامضوا علي بركة الله في جهادكم، فالعرب جميعا من ورائكم، ومئات الملايين من المسلمين بجانبكم، وجميع

---

(١) هذه الأرقام كانت في خمسينيات القرن الماضي، ولم تكن هي الأرقام الحقيقية للمسلمين أو العرب، وإنما كانت أعدادهم تفوق هذه بكثير.

الأحرار في صفكم، وجند السماء الخفي يحارب معكم، والله تعالي يؤيدكم بنصره، ويرعاكم بعينه، والعاقبة للمتقين، ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، و﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾

[الحشر: ١٠]

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وأقم الصلاة..

* * *

(١٣)

لماذا نرفض العلمانية؟[١]

الخطبة الأولي:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالي من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلن تجد له وليّا مرشدا، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، خصّنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأتم علينا النعمة بأعظم منهاج شرع منهاج الإسلام: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].

وأشهد أن سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبيبنا؛ محمداً عبدُ الله ورسوله، معلّم النّاس الخير، وهادي البشرية إلي الرشد، وقائد الخلق إلي الحق، ومخرج الناس من الظلمات إلي النور بإذن ربهم إلي صراط العزيز الحميد.

اللهم صلّ وسلّم وبارك علي هذا النبي الكريم، وعلي آله وصحابته، وأحينا اللهم علي سنته، وأمتنا علي ملّته، واحشرنا في زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

رفضي الحوار مع علماني في قناة الجزيرة:

في الأسبوع الماضي شاركتُ في حلقة في قناة الجزيرة الفضائية القطرية حول الإسلام والعلمانية. اتصل بي الإخوة المسئولون في الجزيرة، وطلبوا إليّ أن

(١) أُلقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في ١ صفر ١٤١٧هـ - ٦/ يونيو/ ١٩٩٧م.

أشارك فاعتذرت في أول الأمر، وقلت لهم: إن كان ولابد من هذه الحلقة فليس الشخص الذي ترشحونه هو المناسب للحوار فيها، لأن الأصل في الحوار بين الإسلام والعلمانية أن يكون الإنسان مؤمناً بالإسلام باعتباره عقيدة علي الأقل، ولكنه يشكك أو يرتاب في الشريعة أو في أحكام معينة من الشريعة. أمّا أن يكون الشخص ملحداً لا يؤمن بالإسلام، لا يؤمن بالله ربا، ولا بالإسلام دينا، ولا بالقرآن منهاجا، ولا بمحمد رسولا، بل لا يؤمن بالألوهية أصلاً، ولا بالرسالات السماوية، ولا بالوحي الإلهي، فكيف نلتقي مع مثل هذا الإنسان؟ وماهي الأرضية المشتركة بيننا وبينه؟

لو كانت الحلقة حواراً بين الإيمان والإلحاد لكان هذا مناسباً، أما أن يكون بين الإسلام والعلمانية فليس هذا هو الشخص المناسب. وذلك أني قرأت لهذا الشخص من قديم كتابه (نقض الفكر الديني) الذي ينقض فيه الفكر الديني، إسلامياً كان أو مسيحياً أو أي دين، وينكر الأديان جملة وتفصيلا. وزادها بكتاب آخر سمّاه (ذهنية التحريم) أنكر فيه الأديان، ووقف فيه أمام كلّ مؤمن بالله.

ومع أنه رجل ناصري من الناحية السياسية، فقد عاب علي عبدالناصر أنه بعد حرب الخامس من حزيران – أو يونيو – ١٩٦٧م بعث إلي الملك حسين يقول له: إننا قوم نؤمن بالله، ونؤمن أن الله تعالي لن يتخلي عنا، ولعله يفتح علينا بنصر من عنده. عاب ذلك علي عبد الناصر وقال: هذه رجعة إلي الوراء وانتكاسة، كيف يدخل الدين في هذه القضية؟!

فهذا رجل لا دين له، ولذلك كان اعتراضي علي الرجل من أول الأمر.

إلحاح إخواني إثنائي عن الرفض:

ولكن الإخوة سامحهم الله قالوا: إننا ارتبطنا بالرجل، ولابد من لقاء معه. وقد رشحت لهم عدداً من الإخوة الذين يمكنهم أن يحاوروه، ولكن يبدو للأسف أنهم لم يجدوا واحداً ممن رشحتهم، واضطروا أن يعودوا إليّ، ويلحوا عليّ أن أشارك في هذا الحوار أو في هذه الحلقة. وأنا رجل أضعف أمام الإلحاح، واستجبت لهذا الأمر، وكان هذا اللقاء الذي شاهده وسمعه الكثير منكم، أو قرأ التعقيب عليه في الصحف المختلفة.

محاور لا يتحلى بأدب الحوار:

المهم نحن لسنا ضعفاء، نحن مستعدون أن ننازل كل ملحد وكل مكابر، على أن يكون إنسانا يعرف أدب الحوار وأدب الاختلاف. ولكن الرجل للأسف لم يكن يعرف أدب الحوار.

قلت له من أول الأمر: إن الإسلام يدعونا إلي الحوار بالتي هي أحسن. ففي الموعظة اكتفي بأن تكون موعظة حسنة: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل: ١٢٥]. ولكنه في الجدال قال: ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥]. وذلك أن الموعظة تكون مع الموافق، والجدال يكون مع المخالف.

ولكن هذا الرجل لم يعرف الجدال بالتي هي أحسن، إنما عرف الجدال بالتي هي أسوأ، عرف المماراة بالباطل، فكان يجادل في كل شيء.. في كل قضية.

حتي حينما قلت: إن الإسلام يسع الناس بمراتبهم المختلفة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، والله تعالي جعل هؤلاء جميعاً من الأمة المصطفاة ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ٣٢] فهؤلاء من الأمة المصطفاة. هذه اعترض عليها وقال: أنتم إذن مثل اليهود.. أنتم شعب الله المختار! هذا كلام تضليل وتهريج في الحقيقة، لأن شعب الله المختار شعب ذو نسب معين، وهم الإسرائيليون الذين ينتسبون إلي إسرائيل. أما الأمة المصطفاة فأمة ذات مباديء وأصول، وقيم ومناهج، فلا مانع أن تُفضل أمة لفلسفتها ومناهجها. وخيريتها جاءت من الإيمان بالله، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي أمة ليست لنفسها، أنبتها الله، صنعها الله ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣] أمة مجعولة لم تُجعل لنفسها ولكن للناس.. لهداية الناس.. لنفع الناس.. لإسعاد الناس.. لإخراج الناس من الظلمات إلي النور ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لقد انتهت الحلقة التي استمرت حوالي الساعتين، ولكن للأسف بسبب هذه المماراة بالباطل لم نجب الإجابة الشافية للصدور عن الأسئلة التي أثارها مقدّم البرنامج، فمقدم البرنامج أثار أسئلة مهمة، وكان ينبغي أن تُعطي حقها في الإجابة، ولكن التشويش والمماراة بالباطل أفسدت علينا الجو.

تساؤلات لها أجوبة:

هناك تساؤلات: هل يقف الدين عائقا عن تقدم المجتمعات الإسلامية؟ هل الإسلام سبب في التخلف الذي تعانيه أمتنا؟ هل تقدمت الأقطار التي تبنت العلمانية؟ هل نحن في حاجة إلي العلمانية أو هي أمر دخيل علينا من عند غيرنا؟ هذه أسئلة مهمة.

هل الدين عقبة أمام التقدم؟

الدين - وخصوصاً الإسلام - لا يقف عائقا أبداً أمام التقدم، بالعكس، الدين قوة هادية ﴿ **وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن: ١١]، ينير الطريق للإنسان، يجعل الأمور أمامه واضحة، بحيث لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا يقدم رجلاً ويؤخر أخري.

الإنسان المؤمن المتدين عرف غايته، وعرف طريقه، فاستقام له الأمر، ومضي قدما إلي الأمام.

والإيمان قوة حافزة، تحفز الإنسان علي الخير.. علي العمل.. علي الإنتاج، تجعله يتعبد لله بالعمل، يعتبر العمل في دنياه.. في معاشه.. في كسب رزقه.. في عمارة الأرض عبادة وجهاداً في سبيل الله.

هذا ما تحتاج إليه أمتنا.

الإيمان قوة حافزة، وقوة ضابطة أيضا، تضبط سلوك الإنسان، تردعه عن الشر، تزعه عن المنكرات، تجعله إنساناً ملتزماً لا يبيع ضميره، ولا يبيع شرفه، ولا يبيع وطنه، ولا يبيع قيمة من القيم بملء الأرض ذهبا.

هذا هو الإيمان، هذا هو الدين.

الدين لا يقف عقبة أبداً، إلا الدين الخرافي. وهذا هو الذي حدث في

أوروبا حينما كانت الكنيسة تتحكم في رقاب الناس وفي ضمائرهم. وقفت الكنيسة مع الملوك ضد الشعوب، ومع الاقطاعيين ضد الفلاحين، ومع الرأسمالية ضد العمال، مع الجمود ضد التحرر، مع الجهل ضد العلم، مع الظلام ضد النور، ولذلك ثار الناس عليها، وقالوا قولتهم الشهيرة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس. لسنا في حاجة لا إلي الملوك، ولا إلي رجال الدين، هؤلاء أفسدوا الدنيا، وهؤلاء أفسدوا الدين. هذا ما حدث.

كان هناك محاكم التفتيش في أوروبا التي حاكمت العلماء، وأحرقت جثثهم، لأنهم اكتشفوا أشياء غير ما كان عليه العلم المعروف في الكنيسة.. العلم المدرسي. (جاليليو) و(كوبر نكس) وغيرهما اكتشفوا أشياء جديدة، هذه الأشياء الجديدة كانت عندنا نحن المسلمين. اكتشفوا أن الأرض كروية، وهذا أمر كان يدرسه طلاب المسلمين، ابن حزم في (الفصل في الملل والأهواء والنحل) يدلل علي كروية الأرض بعدة أمور[1]، في كتب التوحيد مثل (شرح المواقف) في كتب التفسير مثل (تفسير الرازي) كانوا يتحدثون عن هذه الأمور وكأنها قضايا مسلمة. وكان الغربيون يعتبرون من وصل إلي هذه النتيجة (مهرطقاً) وملحداً وجاحداً للدين، ويستحق أن يعاقب. عاقبوا الناس حتي بعد موتهم، بعد أن ماتوا حاكموهم وأحرقوا جثثهم! وهذا ليس عندنا.

التدين المرفوض:

الدين الذي يقف عائقاً هو الدين الذي يتبني الخرافات، يتبني الجبرية في العقيدة، يتبني الشركيات في التوحيد، يتبني الشكلية في العبادة، والسلبية في الأخلاق، والمظهرية في الحياة، والسطحية في التفكير، والجمود في الفقه، هذا هو الذي يمكن أن يجمد الحياة، ونحن ضد هذا النوع من التدين، نحن نحارب هذا النوع من التدين.

---

(١) انظر: (مطلب بيان كروية الأرض) في الجزء الثاني من (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ص ٢٤١ - ٢٥٥، تحقيق الدكتورين: محمد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، نشر مكتبات عكاظ بالسعودية، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

التدين الذي يلغي شخصية الإنسان ويقول: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح! - مع أن الصحابة كانوا يناقشون رسول الله ﷺ في كثير من آرائه ويقولون له: ليس الأمر كذلك يا رسول الله وإنما هو كذا وكذا(١).

التدين الذي يقول للناس إذا رأوا المنكر يستشري، والفساد يتفاقم، والشر يستعلن ويستعلي: دعوا الملك للمالك، واتركوا الخلق للخالق، أقام العباد فيما أراد! هذا النوع من التدين هو الذي يفسد الحياة ويدمرها.

التدين الحقيقي:

التدين الحقيقي هو الذي يعطي المؤمن القوة لمقاومة الباطل.. لمقاومة الطاغوت.. للوقوف في وجه الشر.. للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. لنصيحة أئمة المسلمين وعامتهم.

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

«أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر»(٢).

---

(١) كما فعل الحباب بن المنذر حينما جاء إلي النبي ﷺ قبيل معركة بدر فقال: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل. ثم أشار عليه بمكان أفضل ليعسكر فيه المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» ثم أمر بإنفاذه. والأمثلة علي هذا كثيرة. لكن مما ينبغي ان نلحظه هو أن هذه المناقشة منحصرة في أمور دنيوية بحته لا علاقة لها بالتشريع ولا مبنية علي الوحي، فلا تكون دليلا ولا يلزم اتباعها، ولهذا بوب الإمام مسلم لهذه المسألة في صحيحه فقال: (باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا علي سبيل الرأي).

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري، وكذا أبو داود والترمذي، وفيه: عطية العوفي، ضعفوه. ورواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة الباهلي، قال البيهقي: وإسناده لين، وقال: وله شاهد مرسل بإسناد جيد، ثم ساقه عن الزهري بلفظ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر». ورواه أحمد والنسائي والبيقهي في الشعب والضياء عن طارق ابن شهاب، قال في الرياض: رواه النسائي بإسناد صحيح، وكذا قال المنذري فالمتن صحيح (فيض القدير للمناوي: ٢ / ٣٠ - ٣١) برقم ١٢٤٦). رواه أحمد (١٨٨٢٨) عن طارق بن شهاب، =

« سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلي إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »[1].

« إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم فقد تودع منهم »[2].

« إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا علي يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »[3].

هذا هو الذي جاء به الإسلام.

في القنوت.. قنوت ابن مسعود المعروف في المذهب الحنفي، من ضمن عباراته: « نشكرك اللهم ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك ». انظروا إلي هذه الألفاظ: « نخلع ونترك من يفجرك »، هذا هو الإسلام.

ماهو التقدم الذي يريدون؟ التقدم المادي؟

الإسلام والتقدم:

الإسلام يُعني بالتقدم المادي، والتقدم الروحي، التقدم الحسي، والتقدم المعنوي.

التقدم المادي أساس العلم، والإسلام يعتبر كل علم نافع فريضة علي الأمة، ينبغي أن تتفوق الأمة في كل العلوم بحيث لا تكون عالة علي غيرها، وبحيث

= وقال مخرّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٥٨٢)، والبيهقي في الكبرى (٧٨٣٤).

(١) رواه الحاكم والديلمي والضياء المقدسي عن جابر بن عبد الله، قال الحاكم: صحيح. وتعقبه الذهبي بأن فيه (حفيد الصغار) لا يُدري من هو. وعند الطبراني عن ابن عباس، قال الهيثمي: وفيه ضعف (فيض القدير للمناوي: ٤ / ١٢١ برقم ٤٧٤٧). ولكن الشيخ الألباني صححه من طريق رواها الخطيب في تاريخه انظر: الصحيحة رقم (٣٧٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (٦٧٧٦، ٦٧٨٤) عن عبد الله بن عمرو وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لانقطاعه، وصححه الشيخ شاكر، ودافع عن تصحيحه دفاعاً بليغاً، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار بإسنادين رجال إسناد أحدهما رجال الصحيح. (٧/ ٢٦٢) ورواه الحاكم (٤/ ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (١) عن أبي بكر، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ورواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨) والترمذي في التفسير (٣٠٥٩) وابن ماجه في الفتن وبنحوه (٤٠٠٥) وقال النووي في الأذكار والرياض: أسانيده صحيحة.

تكتفي اكتفاء ذاتيا فيما يتعلق بالعلوم والتكنولوجيا. ولذلك قال علماؤنا من قديم: إن تعلم الطب والهندسة والرياضيات وغير ذلك فرض كفاية علي الأمة، وكذلك تعلم الصناعات.

ومعني هذا أن الإسلام يفرض علي الأمة، بالتضامن، أن تكون أمة قوية: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. كيف تعدّ الأمة ما استطاعت من قوة؟ تعد نفسها علميا وتكنولوجيا، هذه فريضة علي الأمة.

العلم عندنا ليس مقابل الدين، الفكر ليس مناقضا للإيمان، الحكمة ليست مناقضة للشريعة، هذا في أديان أخري، أما عندنا فهناك تآخي بين هذه القيم بعضها وبعض، الدين عندنا علم، والعلم عندنا دين.

وقد رأينا كثيرا من علمائنا أئمّة في علوم الدين: الفقة والتفسير ونحو ذلك، وأئمة في علوم أخري[١]. كان الفخر الرازي إماماً في التفسير، وفي الفقة، وفي أصول الفقة وله كتبه المعروفة، وقالوا: كانت شهرته في الطب لا تقل عن شهرته في التفسير والفقه وأصول الفقة.

ابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية الصغري، كان من فقهاء الشافعية، ترجم له ابن السبكي في كتابه (طبقات الشافعية).

كذلك وجدنا العلامة ابن رشد أعظم شارح لأرسطو، وبعض مؤرخي الفلسفة اعتبره أعظم فيلسوف إسلامي علي الإطلاق، وهو طبيب شهير له كتاب (الكليات في الطب) انتفعت به أوروبا عدّة قرون وترجموه إلي اللاتينية، وهو كذلك فقيه مالكي من أعظم الفقهاء، وكان قاضيا شرعيا، وله كتابه الشهير (بداية المجتهد ونهاية المقتصد).

ليس عندنا صراع بين الدين والعلم كما عرف ذلك في تاريخ أوروبا[٢].

---

(١) انظر كتاب فضيلة الشيخ «تاريخنا المفترى عليه» فصل «تاريخ له مآثر ومفاخر» ص١٢٥.

(٢) انظر: رسالة (الدين في عصر العلم) - أو الفصل الأول من كتاب (بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين) لسماحة العلامة القرضاوي. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

إن كانوا يريدون التقدم العلمي، فالإسلام يرحب بالتقدم العلمي، ويعتبره فريضة علي الأمة الإسلامية في مجموعها.

الإسلام والتقدم الاقتصادي:

إن كانوا يريدون التقدم الاقتصادي، فالإسلام يفسح المجال للاقتصاد. تعاليم القرآن والسنة جاءت تدعو إلي زيادة الانتاج، وإلي ترشيد الاستهلاك، وإلي سلامة التداول، وإلي عدالة التوزيع، وتجند الأمة تجنيداً لترتفع بمستواها.

لم يعتبر الإسلام المال كما اعتبرته المسيحية: (لا يدخل الغني ملكوت السموات حتي يدخل الجمل في سم الخياط) كما رُوي عن المسيح. لا، ليس في الإسلام هذا. حكوا أن رجلا جاء إلي المسيح عليه السلام يقول: أريد أن أؤمن بك وأتبعك، قال له: اذهب فبع مالك واتبعني! لم يقل الإسلام ذلك، بل قال: (نعم المال الصالح للرجل الصالح»[1]، وقال: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر»[2] وكان عليه الصلاة والسلام يدعو الله فيقول: «اللهم إنِّي أسألك الهدي والتقي والعفاف والغني»[3]، وامتن عليه ربه فقال: ﴿ **ووَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾ [الضحي: ٨] أي وجدك فقيرا فأغناك. وكان يستعيذ بالله من الفقر والكفر[4]، أي يعتبر الفقر مصيبة يستعاذ بالله من شرها. هذا ما جاء به الإسلام.

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١٧٧٦٣، ١٧٧٦٤) عن عمرو بن العاص، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. ورواه ابن حبان (٣٢١٠) والطبراني في الأوسط (٣٢١٣) والحاكم (٢/٢٣٦).

(٢) جزء من حديث، وتمامه (فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟) رواه أحمد (٧٤٤٦، ٨٧٩٠) عن أبي هريرة، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح علي شرط الشيخين، ورواه النسائي في الكبرى (٨١١٠) وابن حبان (٦٨٥٨).

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢١) عن ابن مسعود.

(٤) رواه أحمد (٢٠٤٠٩) عن أبي بكرة: أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وعذاب القبر» وقال مخرّجو المسند: إسناده قوي على شرط مسلم، ورواه ابن أبي شيبة (٣/٣٧٤) والبزار (٣٦٧٥) والنسائي في المجتبي (٣/٧٣).

فإذا كان التقدم يعني التقدم الاقتصادي فأهلاً وسهلاً به، الإسلام يرحب بذلك ويدعو إليه، ويحارب الفقر بكل وسيلة، وأول الوسائل: العمل.. تجنيد الأمة لتعمل.. لتنتج، لا تعيش أمة مستهلكة، لا تعيش مستوردة وغيرها يصدر إليها كما هو الحال في بلادنا نحن المسلمين، نستورد الأقوات، ونستورد السلاح، ونستورد الصناعات الثقيلة، وهكذا[1].

نحن نقول: التقدم لا يقف الدين عائقا أمامه.

الإسلام والتقدم الصحي:

إن كانوا يريدون تقدم الصحة، فالإسلام يريد أمة سليمة الأجسام، قوية الأبدان: «المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف»[2]. ولأول مرة في جوّ الدين يسمع الناس هذه الكلمة «فإن لجسدك عليك حقا»[3]، الناس كانوا يسمعون: (إن لربك عليك حقا) إنما أن يكون للبدن حق علي الإنسان فأول مرة يسمعون هذا.

ومن حق هذا البدن عليك أن تطعمه إذا جاع... أن تريحه إذا تعب.. أن تنظفه إذا اتسخ.. أن تداويه إذا مرض فـ«ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء»[4] «عرفه من عرفه وجهله من جهله»[5].. أن تحافظ عليه وتقيه من الأمراض فـ«الوقاية خير من العلاج»، فهذا حق البدن.

---

(١) انظر: فصل (القيم والأخلاق في مجال الانتاج) وفصل (القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك) من كتاب (دور القيم والاخلاق في الاقتصاد الإسلامي) لسماحة الشيخ القرضاوي. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قطعة من حديث رواه البخاري في الصوم (١٩٧٥) عن عبد الله بن عمرو.

(٤) رواه البخاري في الطب (٥٦٧٨) عن أبي هريرة.

(٥) جزء من حديث رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود، وأوله: «ما من داء إلا وله دواء» قال العراقي: وإسناده حسن، وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك «إلا الهرم». انظر: (إحياء علوم الدين للغزالي بتخريج العراقي: ٤ / ٢٨٤).

الإسلام جاء يدعو إلي أن يحافظ الناس علي صحتهم بالعلاج، وبالوقاية قبل العلاج، ومن هذه الوقاية: النظافة.. الطهارة التي هي شرط في صحة الصلاة، وأول ما يدرس المسلم في كتب الفقه: كتاب الطهارة.

الإسلام يريد الإنسان النظيف، النظيف مادياً، والنظيف معنويا، ويقول ﷺ: «حق لله علي كل مسلم: أن يغتسل في كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده»[1]، علي الأقل كل أسبوع مرة، هذا هو الحد الأدني. والمسلم تعتريه أشياء طبيعية توجب عليه الاغتسال وتوجب عليه الوضوء كلما أراد الصلاة أو أحدث.

جاء الإسلام يحافظ علي الأمة، وينهاهم عن التبول والتبرز في الطرقات، وفي الظل، وفي موارد المياه، وغير ذلك[2]، واعتبر ذلك مما يجلب اللعنة. ونهي عن المسكرات والمخدرات[3]، وتناول كل ما يضر ببدن الإنسان، فإن الإنسان لايجوز له أن يقتل نفسه ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾ [النساء: ٢٩]. هذا ما جاء به الإسلام.

الإسلام والتقدم العسكري:

إن كانوا يريدون التقدم العسكري والقوة العسكرية، فالإسلام قال: «﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ [الحديد: ٢٥] بأس شديد، إشارة إلي الصناعات الحربية، ومنافع للناس: إشارة إلي الصناعات المدنية، واعتبر من يصنع السهم مثل الذي يرمي به، هو شريك في الأجر، ويعتبر من المجاهدين.

---

(١) رواه البخاري في الجمعة (٨٩٦) ومسلم في الجمعة (٨٤٩) عن أبي هريرة.

(٢) ذكرت عدداً من الأحاديث الدالة علي هذه المسائل في هامش الصفحتين ٢٣، ٢٤ من الجزء الرابع من هذه السلسلة (خطبة: الرياضة في الإسلام).

(٣) انظر خطبتي: (اليوم العالمي لمكافحة المخدرات) و(الشباب ووباء المسكرات) في الجزء الرابع من هذه السلسلة.

الصناعة الحربية نوع من الجهاد، لأنه لاجهاد إلاّ بأسلحة. وإذا كنت لا تصنع السلاح فسوف تضطرّ إلي أن تستورده من عدوّك كما هو حالنا اليوم. لا نملك صناعة الأسلحة وإنما نشتريها، يعطينا غيرنا ما لا يحتاج إليه من الأسلحة بعد أن ينفد وقتها يتخلص منها ببيعها لنا.

الإسلام يعطينا كل ما يحتاج إليه التقدم، الإسلام يعطينا الحوافز للوصول إليه، ويعطينا المناهج الصحيحة للوصول إليه بطريق صحيح، فلا يمكن أن يكون الدين عائقاً في طريقنا إلي التقدم.

بالعكس، الذين يريدون أن يفرغوا أمتنا من الجانب الديني، يريدون أن تدخل معركتها مع أعدائها خاوية ضعيفة رخوة العود.

اليهود يجندون الدين في المعركة معنا. ما الذي جمع اليهود من الشرق والغرب، ومن الشمال والجنوب؟ لقد عاشوا في أوطان مختلفة، وبيئات مختلفة، جمعوهم علي أساس التوراة والتلمود، جمعوهم علي أساس العقيدة الدينية، ودفعوهم للمعركة من أجل هدف ديني هو: أرض الميعاد. فكيف نرضي أن يستغل العدو الدين في المعركة ضدّنا ونحن نطرد الدين من حياتنا ونريدها علمانية صريحة؟ لحساب من هذا؟ ليس لحساب أحد إلا لليهود ومن وراء اليهود.

اليهود يدخلون المعركة ومعهم التوراة، ونحن ندخلها وليس معنا القرآن، يقولون: موسي، ولا نقول، محمد مع أننا أولي بموسي منهم، يعظمون يوم السبت، ونحن لا نعظم يوم الجمعة، يقولون: الهيكل، ولا نقول: المسجد الأقصي!.

من هو عدو الأمة؟ عدوّ الأمة هو الذي يريد أن يفرغ هذه المعاني من ضمير الأمة، لتدخل الأمة المعركة مجردة من أسلحتها الحقيقية.. سلاح الإيمان.

تجربتان معاصرتان مع الدين:

نحن جربنا معركتين:

١- معركة (٥ يونيو ١٩٦٧م)، وبالأمس كانت ذكراها، مرت ثلاثون سنة

علي هذه الذكري الأليمة الحزينة، يسمونها معركة الأيام الستة، والحقيقة أنها معركة الساعات الست، لأن الساعات الست الأولي بينت نتيجة المعركة، انكشف كل شيء. كان شعار هذه المعركة (برّ.. بحر.. جو)، ولم ننتصر في برّ ولا بحر ولا جوّ، لأننا لم نجندّ جنودنا تحت اسم (الله)، لم نقذف في قلوبهم شرارة الإيمان. كنا نقول لهم: حاربوا ووراءكم فلانة المطربة، وفلان المطرب، وفلانة الممثلة، ويوزعون عليهم صور المطربين والمطربات والممثلين والممثلات. لم يوزعوا عليهم المصاحف، لم يقولوا (لا إله إلا الله) كما قال الله تعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾

[الأنفال: ٤٥]

هكذا ينبغي أن نعلّم أبناءنا إذا خاضوا المعركة، أن يذكروا الله، أن يقولون: (اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم).

كان الواجب أن يتطلعوا إلي السماء، ولكنهم علّموهم أن يتطلعوا إلي كل جهة إلا إلي جهة السماء.. إلا إلي الله عز وجل. فكانت النتيجة أن حدث ما حدث: هزيمة سموها (نكسة)، وضياع سيناء والضفة الغربية والجولان.

هكذا كانت النتيجة.

وأصبحت السياسة العربية وقد تغيرت تماما، بعد أن كانت قبل ذلك تقول: إزالة اسرائيل هي الهدف، بعد عدوان (٥ حزيران ١٩٦٧) لم يعد الهدف إزالة إسرائيل، وإنما (إزالة آثار العدوان)! كأن العدوان الجديد أضفي الشرعية علي العدوانات القديمة فأصبحت مقبولة، وأصبح ما أخذت إسرائيل من قبل حلالاً زلالاً لها. (حيفا) و(يافا) و(عكا) و(اللد) و(الرملة) وغيرها أصبحت ملكاً خالصا وحقا لها بهذا الاعتراف: إزالة آثار العدوان!

٢- معركة (٦ أكتوبر ١٩٧٣م) أو (العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ)، أنا

أفضل أن اسمي هذه المعركة: معركة العاشر من رمضان، لأن رمضان كانت له نفحاته وإيحاءاته. في هذه المعركة حدث شيء آخر، الجنود دخلوا المعركة تحت شعار (الله أكبر). الله أكبر فعلت فعلها: عبروا القناة، اقتحموا خط بارليف، وصلوا إلي القنطرة، وكان يمكن أن يصلوا أكثر وأكثر.

إن أمتنا لا يمكن أن تُجنَّد إلاّ تحت لواء الإيمان.. تحت راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله). أمسك بالمصحف وقُد هذه الأمّة تنقاد وراءك، وتفعل الأعاجيب، وتتخطي المستحيلات.

كل أمة لها مفتاح لشخصيتها كمفتاح السيارة، لا تستطيع أن تقود سيارة بمفتاح سيارة أخري، إنما كل سيارة لها مفتاح خاص، ومفتاح أمتنا: الدين.. الإيمان.. أن نجندها ونفجر طاقاتها المكنونة باسم الله.

حينما تقول لها: يا رياح الجنة هبيّ، ويا خيل الله اربكي، ويا كتائب الله سيري، ستجد هذه الأمة وقد تحولت إلي فرسان.. إلي أبطال. الإنسان العادي يصبح بطلا لأن الإيمان سار في أعماقه، وخالط بشاشته قلبه، فتحول إلي إنسان آخر، كما رأينا الصحابة رضوان الله عليهم.

كيف أنشأ الإسلام الحضارة العربية؟

ما الذي غير الصحابة؟ ما الذي أنشأهم خلقاً آخر؟ كانوا يعبدون الأصنام، ويشربون الخمور، ويعيشون في اللهو واللعب، فجاء الإسلام فغيرهم، صبت في عروقهم الإيمان الصحيح.. التوحيد.. أن لا إله إلا الله.. لا يستحق العبادة إلا الله.. لا يُرجي ولا يخشي إلا الله.. لا يخضع له ولا يُذلّ له إلا الله، فأنشأ من هؤلاء أمة جديدة.

العرب لم تكن لهم فلسفة اليونان، ولاقانون الرومان، ولا تمدن الفرس، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين، كانوا أمة بيان وبلاغة، لم يكن عندهم ما عند تلك الأمم، كانت تغلب عليهم الأمية والبداوة. ما الذي نفخ في هذه الأمة الروح وجعلها في أقل من قرن تمتد شرقا وغرباً وشمالاً وجنوبا؟ وصلت إلي الصين

شرقاً ووصلت إلي إسبانيا (الأندلس) غربا، وأصبحت أمة ضخمة أقامت دولة العدل والإحسان، وحضارة العلم والإيمان. ما الذي فعل ذلك؟ إنه الإسلام.

يقولون: هل للإسلام علاقة بتخلف الأمة؟ لا والله، ولو كان للإسلام علاقة بالتخلف الذي نعانيه ما تحضرت أمتنا من قبل، كانت هي أمة الحضارة الأولي. نحن الآن يقولون عنّا: (العالم الثالث)، وربما كان بعضنا في العالم الرابع لو كان هناك عالم رابع!

كنّا نحن العالم الأول، وكانت حضارتنا هي الحضارة السائدة في العالم كله، منها يتعلم الناس، جامعاتنا هي موئل الطلاب في العالم، كتبنا وكتب علمائنا هي المراجع، لغتنا العربية هي لغة العالم. هكذا كنا قرونا، ليس قرنا ولا قرنين ولا ثلاثة، قروناً عدة ونحن في الصف الأول، ونحن أساتذة الحضارة، منا تعلم الأوربيون، أخذوا المنهج العلمي التجريبي منا وطبقوه وتخلفنا بعد ذلك، تقدموا وتخلفنا، واستيقظوا ونمنا، ونشطوا وقعدنا.

نحن عندنا من الحوافز، وعندنا من القيم، وعندنا من المناهج، ما يمكن أن يعيدنا إلي ما كنا فيه مرة أخري، ولسنا في حاجة إلي العلمانية قط.

التناقض بين العلمانية والإسلام:

العلمانية حلت مشكلة عند الغربيين، ولكنها هي نفسها مشكلة عندنا، لأنها تجعل المسلم في صراع بين عقيدته ومجتمعه، بين ما يؤمن به وما يعيشه. المسلم يعتقد أن الله أنزل القرآن حكماً في كل شيء ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ المائدة: ٤٩]. لا يجوز أن يترك بعض ما أنزل الله حتي لا نكون كبني إسرائيل الذين قال الله فيهم: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٥]. فالمسلم الذي يعيش في دولة علمانية تأخذ ببعض الكتاب وتدع بعضا، تؤمن ببعض وتكفر ببعض، يعيش في صراع دائم وفي قلق

مستمر بين ما يؤمن به وبين ما يعايشه ويشاهده. فالعلمانية مشكلة وليست حلاً لمشكلة في ديارنا.

يمكن للمسيحي أن يقبل العلمانية لأن المسيح قال له: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله(١). قَبِلَ قسمة الحياة وقسمة الإنسان. أمّا الدين عندنا فلا يقبل هذه القسمة، الإنسان وحده، والحياة وحدة.

قد نقسم الإنسان نظرياً إلي جسم وروح، وعقل وعاطفة، ولكنه شيء واحد، والحياة نهر واحد ونسيج واحد، ما يؤثر في جانب منها يؤثر في الجانب الآخر، ولذلك عندنا: قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد. لا يقبل الإسلام شريكا مع الله، لا قيصر ولا كسري ولا أحد، الله هو مالك هذا الكون كله، ومدبر هذا الكون كله، وحاكم هذا الكون كله، وهو الذي يأمر وينهي، ويشرع ويحلل ويحرم ﴿ **لله من في السمـوات ومن في الأرض** ﴾ [يونس: ٦٦] ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. ﴿ **ولله ملك السموات والأرض** ﴾ [آل عمران: ١٨٩]

تركيا نموذج(٢):

فالعلمانية في بلادنا تكوّن مشكلة ولا تحل مشكلة.

---

(١) وهذا الكلام المنسوب إلي المسيح عليه السلام علي فرض صحته، فإن أقصي ما يمكن أن يدل عليه - كما يري الأستاذ محمد قطب - هو أنه يقول لهم: إننا لم نؤمر الآن بقتال قيصر، فإذا فرض عليكم الجزية ولا قبل لكم اليوم برد سطوته عنكم، فادفعوا له الجزية حتي يأتي اليوم الذي يؤذن لكم فيه بالقتال لإخضاع قيصر لشريعة الله، ولكن الكنيسة حملت هذا الكلام - علي فرض صحته - فوق ما يحتمل وزعمت أن معناه أن من حق قيصر أن يحكم عالم الأرض علي أن يحكم الله عالم السماء، أو أن الأبدان لقيصر يفعل ما يشاء في الحياة الدنيا، ولله الأوراح في الآخرة. وهكذا سمحت للعالم المسيحي أن يحكمه القانون الروماني في كل شئونه، وأن ينحصر سلطان الله علي عباده في الشعائر التعبدية والأحوال الشخصية. وتم بذلك فصل العقيدة عن الشريعة، وتم المسخ الكامل لدين الله. انظر (مذاهب فكرية معاصرة) لمحمد قطب، ص (١٦- ١٧).

(٢) للمزيد من معرفة ما قامت به العلمانية في تركيا، راجع ما ذكر فضيلة الشيخ في كتابه: «التطرف العلماني في مواجهة الإسلام» فصل «العلمانية المتطرفة: النموذج التركي» طبعة أندلسية للنشر والتوزيع. المنصورة. مصر.

وقد رأينا البلاد التي تبنت العلمانية ماذا فعلت؟ أول بلد تبني العلمانية (تركيا)، ولم يرضي بذلك الشعب التركي. الشعب التركي قاوم وقدم الآلاف وعشرات الآلاف من الضحايا والشهداء، ولكن انتصرت العلمانية التي كانت مؤيدة من القوي الغربية والقوي الصليبية، انتصرت بالحديد والنار.. بالعنف والدم، وفرضت نفسها علي الشعب التركي، وألغت تراث هذا الشعب، حالت بينه وبين تراثه الذي كان مكتوبا بالحروف العربية. كانت التركية مثل الفارسية ومثل الأردية ومثل كثير من اللغات الإسلامية في آسيا وأفريقيا، كانت مكتوبة بالحرف العربي، ألغوا الحرف العربي، فأصبح هناك حاجز متين بين الأجيال الجديدة وبين هذا التراث، لا يستطيعون أن يقرأون ولا يعرفون.

حرموا علي المسلمة أن ترتدي الحجاب، ولازال هذا إلي اليوم، حرم ذلك أتاتورك وأصدر قانوناً يمنع المسلمة أن تلبس الحجاب، لم يجعلوا هذا من الحرية الشخصية.

حرّموا علي المشايخ أن يلبسوا العمامة والجبة، خطباء المساجد كان لكل منهم عمامة وجبة، يلبسها في المسجد، فصاروا لا يستطيعون أن يخرجوا بها إلي الشارع، القانون يمنع هذا.

حرموا الأذان باللغة العربية، حتي كلمة (الله أكبر) هذه منعوها باللغة العربية. ولم يُبح ذلك إلا في الستينات، حينما جاءت حكومة (عدنان مندريس) رحمه الله وغفر له، فأعاد الأذان باللغة العربية، وسمع الناس بعد سنين طويلة لأول مرة من المآذن (الله أكبر الله أكبر) فخروا سجودا في الشوارع شكراً لله عز وجل.

وجاء عدنان مندريس وسمح ببعض الأنشطة الدينية منها: إنشاء المدارس القرآنية.. مدارس تحفيظ القرآن، وإنشاء مدرسة أو اثنتين لتخريج الأئمة والخطباء. عمل بعض الإنفتاح فكانت النتيجة أن قام الجيش وانقلب عليه، وأخذه وأعدمه وأخفي قبره عن الناس.

وهذا الجيش هو الذي يقاوم التوجه الإسلامي اليوم، الجيش التركي هو حامي حمي العلمانية - أتاتورك الذي مات من عشرات السنين يحكم تركيا من قبره - ويرفض توجه الشعب إلي الإسلام، والمعركة قائمة اليوم بين التوجه الإسلامي والتوجه العلماني، التوجه العلماني يؤيده الجيش وتؤيده من ورائه القوي الغربية وتؤيده إسرائيل والصهيونية.

فشل الأنظمة المستوردة في بلادنا :

هل نحن نرحب بهذه العلمانية؟ العلمانية التي تتعاون مع إسرائيل عدو الإسلام والمسلمين، ومع الصهيونية المغتصبة المعتدية ضد الفلسطينيين وضد العرب وضد المسلمين وضد المسجد الأقصي، من يرحب بالعلمانية هذه؟ وماذا كسبت تركيا من وراء العلمانية؟ لم تكسب شيئا. قالت كاتبة تركية حصيفة هذه الكلمة: كنا أول دولة في الشرق فأصبحنا آخر دولة في الغرب! أي أصبحنا ذيلا للغرب، حتي الغرب في بعض الأحيان لا يعترف بها ويقول: إن تركيا لها حضارة غير حضارتنا - رغم ارتمائها في أحضان الغرب وسيرها في ركابه - وثقافة غير ثقافتنا.

هذه الأمة مفتاح شخصيتها الإسلام :

إن الأمة الإسلامية لا ينفعها أن تتبني العلمانية، بالعكس، العلمانية شر عليها وخطر علي مادياتها ومعنوياتها. هذه الأمة أمة مسلمة، مفتاح شخصيتها الذي يحركها ويفجر طاقاتها ويستخرج مكنونات ابداعاتها هو الإسلام. حركها بالإسلام تتحرك، قُدها بالإسلام تنقد، الإسلام وحده هو الجدير بتحريك هذه الأمة وتجنيدها، والخروج بها من مآذق التخلف الذي تعانيه.

للأسف كل الأمة الإسلامية تقريبا في دائرة البلاد النامية. هناك بلاد بدأت تنهض مثل ماليزيا وأندونيسيا، ولكن لازلنا في الجملة في دائرة البلاد النامية، والبلاد النامية - كما قلت لكم من قبل - تعبير مؤدب مهذب للبلاد المتخلفة، ولا يخرجنا من هذه الدائرة إلي دائرة أعلي إلا إذا عدنا إلي هويتنا الحقيقية، وعرفنا

من نحن؟ نحن مسلمون، لا يمكن أن نعيش بغير الإسلام، الإسلام هو هويتنا، هو انتماؤنا، هو محور حياتنا، هو أساس وجودنا، لا مبرر لوجودنا إلا بالإسلام.

إذا تبنينا الرأسمالية وانتصرنا فلم ننتصر نحن، الرأسمالية الغربية هي التي انتصرت. إذا تبنينا الاشتراكية وانتصرنا فليس هذا انتصارا لنا، هو انتصار للاشتراكية العالمية. إنما ننتصر إذا انتصرنا بالإسلام وللإسلام.

لابد لأمتنا أن تتبني هذا الدين ولا شيء غيره، وقد قالها إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وبماذا صلح أول هذه الأمة؟ بالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، بالإسلام الأول، الإسلام الذي لا يضاف إلي عصر من العصور، ولا إلي دولة من الدول ولا إلي شخص من الأشخاص، لا يُضاف إلا إلي القرآن والسّنّة.

الإسلام الأول هو أساس حياتنا، ومبرّر وجودنا، وأساس نهضتنا وتقدمنا، فإذا اعتصمنا به فقد اعتصمنا بالحبل المتين وهُدينا إلي الصراط المستقيم.

أقول قولي هذا، واستغفر الله تعالي لي ولكم، فاستغفروا إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له يسبح له ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو علي كل شيء قدير. وأشهد أن سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، البشير النذير والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلي آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدي بسنته وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد، فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالي فيها خيرا إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شرّ.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم افتح لنا فتحا مبينا، واهدنا صراط مستقيما، وانصرنا نصرا عزيزا، وأتم علينا نعمتك، وأنزل في قلوبنا سكينتك، وانشر علينا فضلك ورحمتك، اللهم انصرنا علي أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا علي اليهود المعتدين الغادرين، اللهم انصرنا علي الوثنيين المتعصبين، اللهم انصرنا علي الصليبيين الحاقدين، اللهم انصرنا علي الملاحدة الجاحدين، اللهم انصرنا علي الطغاة الجبارين، اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم. اللهم رد عنا كيدهم، وفُلّ حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلا علي أحد من عبادك المؤمنين، وخذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر يارب العالمين.

اللهم انصر إخوتنا المجاهدين في سبيلك، اللهم انصر إخوتنا في فلسطين وفي لبنان، وانصر إخوتنا في كشمير وفي السودان، وانصر إخوتنا في الفلبين وفي كل مكان.

اللهم اجمع كلمة المختلفين من هذه الأمة علي الهدي، وقلوبهم علي التقي، ونفوسهم علي المحبة، وعزائمهم علي عمل الخير وخير العمل.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية، في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن إيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئنا، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين. اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

عباد الله، يقول الله تبارك وتعالي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

(١٤)

معركة الإسلام والعلمانية[١]

الخطبة الأولي :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

أمتنا اليوم – ومنذ سنين وعقود – تخوض أخطر معاركها الفكرية. أخطر المعارك الفكرية التي تخوضها أمتنا في مشرق ومغرب هي معركة الإسلام والعلمانية.

العلمانية تعني: فصل الدين عن الحياة، عزل الدين عن المجتمع والدولة، حصر الدين في ضمير الفرد، فإن خرج فإلي المسجد، ولكنه ليس حراً طليقاً في المسجد يقول ما يشاء علي المنبر.

كيف تسللت العلمانية إلي ديارنا :

الإسلام والعلمانية ضدّان لا يلتقيان، ولهذا كانت المعركة بينهما أطول المعارك زمنا، وأعمقها تأثيراً، وأوسعها ميدانا، وأكثرها ضحايا. منذ أن دخل الاستعمار إلي بلاد المسلمين وهذه المعركة قائمة.

ظل المسلمون يحكّمون شريعتهم ويرجعون إليها في شئونهم، القاضي يحكم بالشريعة، والمفتي يفتي بالشريعة، والمسلم يعمل في خاصة نفسه وأهله بالشريعة، والتعليم في الكتاتيب والجوامع والمدارس يمضي علي الشريعة،

---

(١) القيت في جامع عمر بن الخطاب. بالدوحة في ٨ صفر ١٤١٧هـ – ١٣/ ٦/ ١٩٩٧م.

والتقاليد في الحياة الاجتماعية تحكمها الشريعة، حتي دخل الاستعمار بلاد المسلمين فعزل الإسلام عن الحياة، وجاء بقوانين من بلاده الأجنبية الغربية وحكمها في أعناق المسلمين، وأخضع التعليم لتأثيرات ومفاهيم غير إسلامية.

في مصر كان الذي يقود التعليم ويضع فلسفته ومناهجه: قسيس معروف اسمه (دنلوب)، كان وراء العملية التعليمية كلها. التقاليد أصبحت تتغير، بعد أن كانت المرأة المسلمة تلبس الملابس المحتشمة بدأت الطبقات العالية أو الارستقراطية كما يسمونها يقلدون الخواجات، والآخرون يقلدون هذه الطبقات، وهكذا بدأت الحياة تتغير بهذا المنهج التعليمي الجديد.

وهناك آخرون لم تكن بلادهم مستعمرة، ولكنهم فرضوا علي قومهم العلمانية، كما في تركيا.

كانت تركيا دولة الخلافة، وكانت الخلافة العثمانية تمثل آخر تجمع للمسلمين تحت راية العقيدة، علي ما كان بهذه الخلافة من مآخذ ونقاط ضعف وعيوب لا ننكرها، ولكنها كانت تقف سداً منيعاً أمام الاستعمار وأمام الصهيونية. رفض السلطان عبدالحميد أن يفرط في شبر من أرض فلسطين لليهود، وقد جاؤوا بملايين الجنيهات الذهبية، بعضها لشخصه وبعضها للدولة، ولكن الرجل أبي أن يفرط في شبر أرض من فلسطين لليهود.

تطرف العلمانية التركية:

ثم جاء كمال أتاتورك الذي انتصر بقوة المسلمين من ناحية، وبتآمر الحلفاء من ناحية أخري، فقد كانوا يتنازلون له ويتراجعون لأنهم يعلمون أنه مكسب للغرب. وانتهت الحرب معهم، وكانت النتيجة إلغاء الخلافة الإسلامية، وإلغاء الشريعة الإسلامية، وإلغاء التعليم الإسلامي، وإلغاء التقاليد الإسلامية، وإلغاء الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية.

حتي التقاليد ألغوها، لا يسمح لإنسان أن يلبس الطربوش وهذه حرية

شخصية، لا يسمح لامرأة أن تلبس الحجاب وهذه حرية شخصية وفريضة دينية، لا يسمح لشيخ أن يمشي في الشارع يلبس جُبّة وعمامة وهذه حرية شخصية.

وهكذا فرضت العلمانية التركية التقاليد الأجنبية والقوانين الأجنبية، حتى الأحوال الشخصية – التي بقيت في كثير من بلاد المسلمين تمثل الجانب الإسلامي الشرعي في الناحية القانونية.. الزواج والطلاق والميراث والأسرة وهذه الأشياء – لم تبق في تركيا للمسلمين.

حُرم تعدد الزوجات، حُرم الطلاق، سُوّي بين الذكر والأنثى في الميراث، أجيز للمسلمة أن تتزوج بغير المسلم! الأمور القطعية التي لا تجوز في الإسلام بحال من الأحوال والمعلومة من الدين بالضرورة أنكرتها العلمانية التركية، فهي علمانية مرتدة من غير شك.

مبررات فرض العلمانية في بلادنا:

بماذا بررت العلمانية التركية موقفها؟ أصدروا تقريراً قالوا فيه ما خلاصته: إن الحياة متغيرة والدنيا متطورة والإنسان يتغير من وقت إلي آخر، ولكن الدين والشريعة ثابتة، ولا يمكن أن نعالج الحياة المتغيرة المتطورة بشريعة ثابتة جامدة، ولهذا ينبغي أن يظل الدين بين الإنسان وربه، وأن تحكم الحياة بقوانين يضعها الناس لأنفسهم، أو يستوردونها ويقتبسونها من غيرهم، وبهذا تمضي الحياة!

هل هذه قضية صحيحة؟ لا، ليست الحياة كلها متغيرة، وليست الشريعة كلها ثابتة، القضيتان خاطئتان. الحياة فيها جزء ثابت وجزء متغير، والإنسان فيه جزء ثابت وجزء متغير، والكون فيه جزء ثابت وجزء متغير، فالدعوة بأن الحياة والدنيا والكون كله متغير دعوة غير مسلمة وغير صحيحة.

نحن في هذا الكون هناك أشياء ثابتة لا تتغير: الشمس والقمر والنجوم والأرض وسنن الله في الكون، هذه أشياء نعيش عليها وعاش عليها أجدادنا وعاش عليها الناس منذ آلاف السنين، ولكن هناك أشياء تتغير: هناك أراض خضراء تتصحر وهناك أراض صحراوية تخضر، هناك جزر تنشأ وجزر تذهب، هناك

أشياء متغيرة، إنما جوهر الكون ثابت. الحياة فيها أشياء ثابتة وأشياء متغيرة، والإنسان فيه أشياء ثابتة وأشياء متغيرة.

الإنسان تغير، تغير ما يأكله، تغير ما يلبسه، تغير سكنه، تغيرت معارفه، تغيرت أدوات سلاحه وأدوات طبخه، بعد أن كان يضع الشيء علي النار مباشرة صنع (وابور كاز)، وبعد ذلك صنع هذا الموقد (البوتكاز)، وبعد ذلك صنع الموقد الكهربائي. ولكن الإنسان هو الإنسان، لازال يأكل، ولا زال يشرب، ولازال يحتاج إلي الطعام وإلي الشراب، ولازال كما قال الله تعالي لآدم: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾ [طه: ١١٨- ١١٩] أي لا تشعر بوقدة الشمس والحر، الجوع والعري والظمأ والضحي هذه أشياء ثابتة، حاجات الإنسان الأساسية هي هي.

منذ كانت البشرية أسرة واحدة من رجل وامرأة وأولادهما.. آدم وحواء وأولادهما، قتل ابن آدم الشرير أخاه الطيب الخير: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٧ -٣٠]. وبعد أن قتله لم يكن يعرف ماذا يصنع بهذه الجثة، حتي بعث الله له غراباً يعلمه. وهذا دليل علي أن هذا هو أول ميت في التاريخ، لم يعرف ميت قبل ذلك ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** ﴾ [المائدة: ٣١]، الآن الناس يعرفون كيف يخفون آثار الجثث، وكيف يضعون محلولات كيماوية فتزيل آثار الجثة تماما.

تطورت أساليب الإنسان ولكن الإنسان هو الإنسان، لازال قابيل وهابيل، لازال الخير والشر يتصارعان، لازالت الفضيلة والرذيلة، لازال الإنسان الظالم المعتدي والإنسان الطيب المستسلم، جوهر الإنسان لم يتغير.

اطبخ بما شئت، اركب ما شئت، اركب رجليك، أو اركب حماراً، أو دابة، أو اركب سفينة شراعية، أو أركب سفينة بخارية، أو اركب السيارة أو الطائرة أو الصاروخ، أنت أنت، جوهر الإنسان هو هو.

فالذين يزعمون أن الحياة متغيرة، كأنهم يوهموننا أن جوهر الحياة وجوهر الإنسان وجوهر الكون متغير لا، الجوهر ثابت، التغير في الأغراض.. في الصور.. في التفاصيل، أما الجوهر أما الحقيقة فهي هي.

الشريعة بين الثبات والتغير:

فقضية أن الحياة متغيرة ومتطورة وأن الشريعة ثابتة وجامدة ولا تقبل التغير والتطور، قضية خاطئة تماما، وليس الأمر كما يقولون.

العقيدة ثابتة لأن الله واحد، ولا يمكن أن يكون اثنين بعد ذلك أو ثلاثة، هناك ملائكة لله موجودون هذه حقيقة لا تتغير، هناك يوم آخر هذه حقيقة ثابتة.

أما الشريعة ففيها دائرتان:

دائرة لا تقبل التجديد ولا التطور ولا التغيير، وهذه التي ثبتت أحكامها بنصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة. وهي كما قلت لكم من قبل محدودة جداً وقليلة جداً، ولكنها مهمة جداً جداً، لماذا؟ لأنها تمثل ثوابت الأمة، الثوابت التي لا يجوز اختراقها ولا يجوز الخروج عليها بحال من الأحوال، هذه دائرة.

وهناك دائرة واسعة تقبل التجديد، وتقبل الاجتهاد، وتقبل التطور.

من عوامل السعة والمرونة في شريعة الإسلام:

ومن أجل هذا نقول: إن الشريعة فيها عوامل عدة للسعة والمرونة ألفت فيها كتابا من قديم[1]، من هذه العوامل:

---

(١) عنوانه: (عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية)، طبعة دار الصحوة للنشر عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، ثم طبعته بعد ذلك مكتبة وهبة بالقاهرة.

العامل الأول:

أن الله لم يقيد الناس بنصوص في كل شيء، بل هناك أمور ليس فيها نص قط، تركها الله سبحانه وتعالي منطقة فراغ تشريعي ليس فيها أمر ولا نهي سميتها منطقة (العفو) أخذنا من الحديث الشريف:[1] «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسي شيئا» ثم تلا قول الله تعالي: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. الله لا ينسي: ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَي﴾ [طه: ٥٢]، ترك هذه الأشياء قصدا لتكون عفواً، نملأها باجتهادنا في ضوء النصوص المحكمة، بالقياس علي المنصوص، بالعمل بالمصلحة المرسلة، بالعمل بالاستحسان، بمراعاة العرف، بالاستصحاب، بكذا بكذا، هكذا أوسع الله علينا.

في الحديث الآخر من الأحاديث الأربعين النّووية يقول: «إن الله حدّ حدوداً فلا تعتدوها، وفرض أشياء فلا تضيّعوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[2]. سكت عن هذه الأشياء رحمة من الله تعالي، فهذه منطقة متروكة ليس فيها أمر ولا نهي.

أشياء تركها الله تعالي لنا، وخصوصاً الأشياء التي تتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان، لا تكاد تجد فيها نصوصا. الاجراءات الإدارية والأشياء السياسية تجد فيها نصوصا محدودة، والباقي متروك لاجتهاد الناس.

هذا أول عامل من عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية.

---

(١) رواه البزار ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٥٥)، والحاكم في المستدرك (٢ / ٣٧٥) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي (عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية للقرضاوي: ص١٢).

(٢) رواه الدارقطني وحسنه النووي في الأربعين، وحسنه قبله أبو بكر السمعاني في أماليه وفي إسناده مقال بينه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية للقرضاوي: ص١١).

والعامل الثاني:

أن الأشياء التي نص عليها القرآن والسنة كثيراً ما يكون النص عليها بطريق كلي.. بطريق إجمالي، يضع فيها قاعدة، يقرر فيها مبدأ، ثم يترك التفاصيل لاجتهاد المسلمين حسب الزمان والمكان والحال، كما في قضية الشوري، الله قرر الشوري: ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشوري: ٣٨] ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولكن كيف تكون الشوري؟ من المستشار؟ من هم أهل الشوري أو أهل الحل والعقد؟ وكيف نختارهم؟ لم يفصل الله في هذا، لأنه لو ألزمنا بصورة مفصلة من الشوري لأصبحت شرعا ثابتاً إلي يوم القيامة، ولكن الله أجمل في هذا وترك التفصيل لاجتهادنا، رحمة منه بنا، وفضلا منه علينا.

هذا أيضا عامل من عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية.

العامل الثالث:

عامل ثالث: أن مانص الله عليه بتفصيل نص عليه في أغلب الأحيان بنصوص فيها مرونة، تحتمل تعدد الاجتهادات واختلاف الأفهام والتفسيرات، ولو شاء عز وجل لجعلها كلها نصوصا قاطعة في ثبوتها ودلالتها. ولكنه جعل هذه النصوص فيها الحقيقة وفيها المجاز، وفيها المطلق والمقيد والخاص والعام، والمنطوق والمفهوم، وما يفهم بالإشارة وما يفهم بالعبارة إلي آخره، حتي تتسع الشريعة لاختلاف الأفهام والعقول، واختلاف الأزمان والعصور، واختلاف البيئات والأحوال، فهذه رحمة من الله تبارك وتعالي.

ولهذا تعددت المذاهب وتنوعت المشارب واختلفت المدارس الفقهية، ما بين أثري يقول بالأثر، وما بين ظاهري يأخذ بالظاهر، وما بين قياسي يأخذ بالرأي، وما بين مقاصدي يأخذ بالمقاصد، اتسعت الشريعة لذلك.

ودخلت الشريعة الإسلامية بلاد الحضارات القديمة، دخلت بلاد فارس وبلاد الروم وبلاد الشام وبلاد مصر وشمال أفريقيا، ولم يضق ذرعها بأي حادثة من الحوادث ولا بأي واقعة من الوقائع. بل كان فقهاؤها قادرين علي أن يضعوا

لكل مشكلة حلاً ولكلّ داء دواءً من صيدلية الشريعة نفسها، لا باستيراد من غيرها.

فهذه أيضا من عوامل السعة والمرونة.

العامل الرابع:

من عوامل السعة والمرونة: أن الشريعة فيها أشياء لأوقات السعة والاختيار، وأشياء لأوقات الضرورة والاضطرار.

الإسلام يراعي الضرورات فيبيح فيها المحظورات، الله تعالي في أربع آيات من كتابة أباح أكل المحرمات عند الضرورة: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٧٣] ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٣] ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الأنعام: ١٤٥] ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النحل: ١١٥].

وهناك ضرورات تعتري الفرد وضرورات تعتري المجتمع، وأحكام هذه مفصلة في أحكام فقهنا الإسلامي الثري العريض.

العامل الخامس:

وهناك عامل خامس: وهو ما قرره المحققون من علماء الأمة: أن الفتوي تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال. وهذا ما ذكره ابن القيم رحمه الله، وما ذكره قبله العلامة شهاب الدين القرافي المالكي، وذكره بعد علامة الحنفية المتأخرين ابن عابدين، وذكره الكثيرون.

وقد ذكرت لكم ما قاله ابن تيمية حينما مر علي جماعة من التتار يشربون الخمر، فقال لهم بعض أصحابه: يا أعداء الله تشربون الخمر أم الخبائث؟! فقال: دعهم فإن الله إنما حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن سفك الدماء ونهب الأموال! «خليهم» في سكرهم ولهوهم، إذا صحصحوا قتلوا الناس ونهبوا أموالهم.

انظر كيف نظر إلي مقصد الشريعة، وكيف وجد أن هؤلاء ينبغي أن يُفتوا بأمر آخر غير الأمر العادي. يمكن أن تترك صاحب المنكر علي منكره إذا خفت أن يأتي بمنكر أشد من هذا المنكر وأعظم منه نُكرا. هذا ما ينبغي لنا أن نعلمه.

العلامة الإمام ابن أبي زيد القيرواني من أئمة المالكية صاحب كتاب (الرسالة) المشهورة، اتخذ بيتا في طرف المدينة واتخذ له كلباً للحراسة، فزاره بعض العلماء فقالوا: يا أبا محمد، كيف تتخذ كلباً وأنت تعلم أن مالكاً رضي الله عنه يكره اقتناء الكلاب؟ فقال: لو كان مالك في زماننا لاتخذ أسداً ضاريا! نحن في زمن قلّ فيه الأمن ويخاف فيه الناس.

فهذه كلها تدلنا علي أن الشريعة ليست – كما يقول هؤلاء – جامدة ثابتة. لا، الشريعة فيها قابلية للمرونة والتطور والتغير.

إذا فتح باب الاجتهاد لأهله في محله، فالعلماء المجتهدون قادرون علي أن يصنعوا طباً لكل أدواء الناس وأمراضهم من صيدلية الشريعة.

فهذا ما قاله هؤلاء الذين أرادوا أن يبرروا العلمانية.

هل الإسلام دين مثالي لا يصلح للتطبيق؟!

وآخرون أرادوا أن يبرروا العلمانية فقالوا: إن الإسلام دين مثاليّ وشريعته شريعة مثالية، لا تصلح للتطبيق في الواقع، ولذلك لم نجد الشريعة طُبقت إلا في عهد الخلفاء الراشدين، بل في عهد أبي بكر وعمر فقط، وأبو بكر عاش في الخلافة سنتين ونصف وعمر هذا كان فلتة لا تتكرر!

هكذا يقول هؤلاء، وهذا كذب علي التاريخ وعلي الإسلام. الإسلام ليس شريعة مثالية محلقة في الخيال، لا، الإسلام دين واقعي يشرع للإنسان من حيث هو إنسان، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «ساعة وساعة»[1] يعني ساعة

(١) جزء من حديث حنظلة، وفيه يقول ﷺ: «والذى نفسى بيده! لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة، على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات» رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠).

لقلبك وساعة لربك، والقرآن يقول: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ٣٢]، وكل هؤلاء من الأمة المصطفاة، حتي الظالم لنفسه لم يخرج من الأمة.

الإسلام يشرع للناس جميعا، يشرع للإنسان العالي الذي هو أعلي من القاعدة، وللإنسان الوسط، وللإنسان الذي هو دون القاعدة، يراعي الجميع، يراعي أن الناس مستويات مختلفة. ومن أجل هذا شرع العقوبات لأنه يعلم أنه سيكون هناك أناس مخطئون، ومن أجل هذا أباح الضرورات، ومن أجل هذا جعل أحكاما للإنسان إذا أكره، وأحكاماً للإنسان إذا غضب، كطلاق الغضبان وغير ذلك.

الشريعة الإسلامية شريعة واقعية بكل معني الكلمة، تجمع بين النظرة إلي المثالية والنظرة إلي الواقع، توازن بين هذا موازنة لا يقدر عليها إلا خالق الإنسان وواهب الحياة، الله هو الذي وضع هذا النظام المتوازن للناس.

دعوي أن الشريعة مثالية لا تصلح للتطبيق هذا ليس صحيحاً، الشريعة وسعت المخطئين والمصيبين، والأغنياء والفقراء، والحكام والمحكومين، والرجال والنساء، والمجتمعات الحضارية والمجتمعات البدوية، وسعت هؤلاء جميعاً بأحكامها وقواعدها، وهي القواعد الواسعة المرنة التي وضعها فقهاء هذه الأمة: الأمور بمقاصدها.. المشقة تجلب التيسير.. لا ضرر ولا ضرار.. يتحمل الضرر الأدني لدفع الضرر الأعلي.. يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.. لا يُزال الضرر بالضرر أو لا يُزال الضرر بضرر مثله أو أكبر منه. قواعد تسع الحياة كلها.

الذين يقولون: إن الشريعة الإسلامية شريعة مثالية هذا ليس صحيحا، الشريعة واقعية مائة في المائة (١٠٠٪)، وهذا حكمت الأمة خلال اثني عشر قرنا علي الأقل قبل أن يدخل الاستعمار بلاد المسلمين. هل كان للمسلمين خلال تلك القرون شريعة غير هذه الشريعة؟

يقولون: لم تطبق إلاَّ في عهد أبي بكر وعمر! وسائر حكام المسلمين الذين

أتوا من بعدهما هل وجد أحد منهم رفض الشريعة؟ لا يمكن، لو فعل ذلك لكان مرتداً والخروج الناس عليه. القانون الذي كان يحتكم إليه الجميع ويحكم به القضاة في العالم الإسلامي كله هو الشريعة الإسلامية، وهو الذي كان يفتي على أساسه المفتون. حينما يقع للإنسان قضية: زواج أو طلاق أو ميراث أو معاملة مالية إلي من كان يذهب الناس؟ كانوا يذهبون إلي المفتي ويسألونه. فالشريعة تحكم الأفراد وتحكم المجتمع.

الشريعة الإسلامية كانت هي الحاكمة خلال هذه الفترة ثم هم يذكرون الحكام المسلمين كأنهم كلهم ظلمة وطغاة، ليس هذا صحيحاً.

شبهات حول تاريخنا الإسلامي:

نحن نقول عن معاوية مثلا: إنه رجل انحرف عن سنن الراشدين، لأننا نحاكمه إلي عمر بن الخطاب وإلي علي بن أبي طالب، ونحن حينما نحاكمه إلي هؤلاء نجد: أنه قزم أمام هؤلاء العمالقة.

ولكن لو نظرنا إليه بالنسبة لملوك عصره لوجدناه من أعدل الحكام، ولو لم يكن كذلك ما تنازل له إمام جليل مثل الحسن بن علي الذي ذهب وقال له: أتنازل لك عن الخلافة، وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري:[1] «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين».

لو كان معاوية بالسوء الذي تصوره كتب التاريخ المحرّفة - وللأسف تاريخنا فيه تحريف كثير ومسخ كثير ويحتاج إلي كتابته من جديد بأقلام مؤمنة - ما تنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهما.

هناك أناس صوروا هارون الرشيد وكأنه رجل خلاعة وفجور، مع أنه كان يغزو عاماً ويحج عاما، وفي العام الذي لا يحج فيه يبعث بثلاثمائة عالم يحجون علي نفقته، وكان رجلاً إذا وعظ بكي. وامتدت الدولة الإسلامية في عصره

---

(١) في صحيحه عن أبي بكرة رضي الله عنه في كتاب فضائل الصحابة باب: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما رقم (٣٦٢٩).

وبلغت الأَوْج في العلم والحضارة. هل يمكن أن تبلغ الدولة هذا المبلغ من رجل يصفونه كأنه رجل لهو ولعب وخلاعة، هذا كله من تزييف التاريخ[١].

ثم لماذا لا يذكر هؤلاء العمالقة أمثال: عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود الشهيد وتلميذه صلاح الدين الأيوبي؟ لماذا لا يذكرون المظفر سيف الدين قطز والظاهر بيبرس؟ ولماذا لا يذكرون (اورانك زيب)[٢] الذي حكم خمسين عاما في الهند، وكان مثالاً للحاكم الراشد، ومع أنه كان ملكاً من أعظم الملوك كان لا يأكل إلا من كتابة يده، وكان خطه جميلاً فكان يكتب المصاحف بخط يده؟

لماذا يصورون لنا تاريخنا على أنه ظلمات بعضها فوق بعض؟ هذا التاريخ ظل محكوماً بالشريعة الإسلامية، حتى الحجاج الثقفي على ظلمه وجبروته وطغيانه حينما أخذ جنوده رجلاً في مقابل ابن عمّ له لم يجدوه فاعتقلوه، ووقف الرجل أمام الحجاج يسأله فيم اعتقلت؟ قال له: إنه جني جان من عُرض عشيرتي فأخذتُ بسببه. قال له الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجنى عليك وقد تعدى الصحاحَ مباركَ الجُرْب[٣]
ولربّ مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب

قال الرجل: ولكني أيها الأمير سمعت الله تعالى قال غير ذلك. قال: ويحك وماذا قال الله؟ قال: قال على لسان يوسف حينما قالوا له عن أخيه: ﴿ **إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** ﴾ [يوسف: ٧٨ – ٧٩]. فقال الحجاج: صدق الله وكذب الشاعر، خلّوا سبيل الرجل.

---

(١) رد الشيخ القرضاوي على دعاوي من ادعوا بأن تاريخنا الإسلامي تاريخ مظلم، مملوء بالظلم والجور والعسف، والميل عن حدود الله، والبعد عن الشوري والعدل فكتب شيخنا كتابه الممتع: (تاريخنا المفتري عليه) طبعة دار الشروق بالقاهرة، فليراجع لأهميته.

(٢) انظر في التعريف به ما كتبه أديب الفقهاء الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تحت عنوان (بقية الخلفاء الراشدين)، في كتاب (رجال من التاريخ)، ص (٢١٠ – ٢٢٠)، ط: دار الفكر بدمشق.

(٣) يعني: الأجرب قد يعدي السليم (القرضاوي).

الحجاج ينحني أمام النّصّ الإلهي! ما كان في هذه الأمة أحد يجرؤ علي أن يعطل أحكام الله علانية، إنما كان هناك من ينحرف من أجل الدنيا . . من أجل الهوي . . من أجل قرابة، أما الشريعة فكانت هي الحكم والمرجع الذي يرجع إليه الجميع.

ويقول بعض العلمانيين: كيف تريدون لنا أن نحكم بالشريعة الإسلامية في عصر ترك الناس فيه الدين؟ نحن في عصر العلم ولسنا في عصر الدين، الغرب تحرر من الدين فنهض وارتقي وأصبح يحكم نفسه بقوانين وضعية، فلماذا لا نقلد الغرب حتي نرتقي مثله؟

ونقول لهؤلاء: إن الغرب له دينه ولنا ديننا، لسنا عبيداً للغرب حتي نقلده، نحن لنا ديننا وميراثنا وشريعتنا، الغرب ليس عنده شريعة مثل شريعتنا. الغرب حكمه رجال الدين حكما مستبداً ظالما، وقفوا مع الجهل ضد العلم، ومع الظلم ضد العدل، ومع الاقطاع ضد العمال. ولكن المسجد غير الكنيسة، والإسلام غير المسيحية، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت النصاري، فلماذا تطبقون علينا ما طبقه أولئك؟ نحن شيء غير هؤلاء.

لسنا أسري للغرب ولسنا عبيداً للغرب حتي يحكم علينا تاريخه، تاريخنا تاريخ مشرق، العصور التي يسمونها عندهم (العصور الوسطي المظلمة) هي العصور الذهبية عندنا، أقمنا فيها حضارة العلم والإيمان ودولة العدل والإحسان، وكنا سادة العالم لعدة قرون.

ماذا عند هؤلاء الذين يريدون أن يفرضوا علينا العلمانية؟ وماذا وراء العلمانية؟ وماذا كسبت الدول التي حكمتها العلمانية؟ والله ما كسبت شيئا، لأنها قهرت شعوبها ولازالت تقهرها.

العلمانية والحرية الدينية:

ماذا بين حزب الرفاه الإسلامي في تركيا وبين العلمانيين هناك؟ إنهم يريدون أن يلغوا المدارس القرآنية! آلاف المدارس القرآنية أنشأها الشعب هناك ليعلموا

أولادهم وبناتهم القرآن، وهؤلاء يريدون إلغاء هذه المدارس! ما الذي يؤلمكم أيها العلمانيون؟ ما الذي يضيركم من هذا الأمر؟ أيها الجيش العلماني في تركيا، ما الذي يضايقك في أن يحفظ الولد أو البنت: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص: ١-٤]؟!

يريدون إلغاء المدارس القرآنية وهي بالآلاف، يريدون إلغاء معاهد الأئمة والخطباء أو تقليصها، يريدون أن لا تطالب الحكومة بإعطاء حق المرأة المسلمة في لبس الحجاب! المرأة المتبرجة لها حق أن تلبس (المني جب) و(الميكروجب) وأن تعرّي الصدر والظهر والساقين والذراعين لأن هذا من الحرية الشخصية، وليس من الحرية الشخصية أن تغطي المرأة شعرها! هذا عجيب.

ماذا تريد العلمانية في بلاد المسلمين؟ تريد أن تقهر المسلم علي ما لا يريد.

بعض البلاد العلمانية في شمال أفريقيا[1] تجعل الحجاب جريمة! المرأة المحجبة ترتكب جريمة إذا لبست الحجاب، لايجوز لها أن تدخل المدرسة، لايجوز لها أن تدخل الجامعة، لايجوز لها أن تُوظّف في الحكومة، لايجوز لها أن تدخل مستشفي للعلاج أو للولادة إلا إذا خلعت حجابها!

هذه هي العلمانية.

إنها تقهر الناس، وتقتل حرية الأفراد، وهم يدعون أنهم دعاة الحرية. أين الحرية؟ إنهم يريدون حرية الكفر لا حرية الفكر، حرية الفسوق لا حرية الحقوق، حرية الإلحاد والطغيان لا حرية الإنسان.

هذا ما يريده هؤلاء.

بعض هؤلاء يعتبرون الصلاة جريمة وخصوصا الصلاة في المساجد. حدثني

---

(١) الدولة هي تونس: وقد عرّى فضيلة الشيخ النظام العلماني في هذه الدولة، في كتابه: «التطرف العلماني في مواجهة الإسلام... نموذج تركيا وتونس» طبعة أندلسية للنشر والتوزيع. المنصورة. مصر.

بعض الشباب في تلك البلاد أنهم كانوا يذهبون ليصلوا الفجر في المسجد فكان رجال الأمن يمسكون بهم! قالوا: فتركنا الصلاة في المسجد وصلينا في بيوتنا، فكانوا يتطلعون إلي البيوت عند الفجر، فإذا أضيء النور عند أذان الفجر عرفوا أن هناك من يصلي، فوضعوا علامة علي هذا البيت، ووضع في القائمة السوداء!

عندما يتقدم أحدهم للعمل في وظيفة يكون من الأسئلة التي يُسأل عنها: هل تحافظ علي الصلوات الخمس؟! فماذا يقول الإنسان المحافظ؟ إن أجاب بنعم فستكون نقطة سوداء له.

هؤلاء هم الذين حرّموا تعدّد الزوجات وأباحوا الزنا كما قال شيخنا الشيخ عبد الحليم محمود في محاضرة له هنا في المعهد الديني منذ حوالي ثلاثين سنة[1]، قال: حدثني أحد الإخوة في بلد في شمال أفريقيا أن امرأته كبيرة في السن فتزوج امرأة أرملة بعقد شرعي غير موثق، فقدمت شكوي إلي الشرطة أن فلانا هذا خالف القانون وتزوج امرأة علي امرأته. وفعلاً عُمل له كمين وضُبط وهو يدخل عند هذه المرأة، وأُخذ للتحقيق معه، وقالوا له: أما علمت أن القانون يُحرم ويمنع تعدد الزوجات؟ قال لهم: نعم أعلم هذا، قالوا له: فلماذا تخالف القانون وتتزوج هذه المرأة؟ قال لهم: ومن قال لكم إنها امرأتي؟ هذه عشيقتي. قالوا له: نحن آسفون كنا نظنها امرأة لك، أطلقوا سراح الرجل!!

حرّموا ما أحل الله وأحلوا ما حرّم الله، أحلوا الزنا وهو من كبائر الإثم والفواحش: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٣٢]. حرّموا تعدد الزوجات الذي يحتاج إليه الرجل وتحتاج إليه المرأة، وأباحوا تعدّد الخليلات والعشيقات! لماذا لا يتزوج الرجل من ثانية بدل أن يفكر في الحرام؟ ولماذا لا تتزوج المرأة من رجل متزوج بدل أن تعيش حياتها بغير رجل؟

---

(١) كما ذكرها بتفاصيلها الشيخ عبدالحليم محمود رحمه الله في فتاويه، انظر: فتاوي الإمام عبد الحليم محمود الجزء الثاني. طبعة دار المعارف بمصر.

جريمة فصل الدين عن السياسة :

ماذا فعل هؤلاء بالأمة إلا أنهم قهروها؟ قهروا الأمة وحرموها من هذا الدافع الديني، حرموها من صلتها بالدين . . بالله عز وجل .

كان أحد رؤساء الوزراء[1] يفاوض جماعة من الإسرائيليين، وقال لهم : إننا نفصل بين الدين والقومية والحياة والسياسة، فلا تقوم سياستنا علي أي مرتكزات دينية .

فقام أحدهم وقال له : يا سيادة رئيس الوزراء، لكم أن تفعلوا في دينكم ما شئتم، أما نحن فعندنا (الدين والشعب والوطن) أو (التوراة والشعب والوطن) . عندهم هذه الأقانيم الثلاثة، هذا ما يفعله الإسرائيليون . هم يريدون أن تكون معركتهم قائمة علي أساس ديني، ونحن نريد أن نفرغ معركتنا من كل معني ديني .

فليتحاكموا إلي الشعوب :

إننا ندعو هؤلاء العلمانيين – إذا كانوا يتغنون بالديمقراطية ويقولون نحن ديمقراطيون ونؤمن بحق الشعب – أن يحتكموا إلي الشعب في استفتاء حر نزيه ويروا : ماذا تريد شعوب أمتنا العربية والإسلامية؟ هل تريد الشريعة الإسلامية أو العلمانية؟ هل تريد شرع الله أو قانون نابليون؟ نريد استفتاء صريحاً لنري مع من تكون الأمة؟

وستكون الأمة مع شرع الله . . مع محمد عليه الصلاة والسلام . . مع القرآن الكريم، ولن تكون أبداً مع القوانين الأجنبية ولا الأنظمة الأجنبية ولا المفاهيم الأجنبية .

ستظل الأمة مستمسكة بهويتها لا تتنازل عنها، معلنة أنها مع الإسلام

---

(١) هو رئيس وزراء مصر في عهد السادات د . مصطفي خليل، انظر تفصيل الحادثة في كتاب (الإسلام والعلمانية . . وجها لوجه) للدكتور يوسف القرضاوي . طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة .

وبالإسلام وللإسلام، وهذا ما ينبغي أن يغالي به كلّ مسلم: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [فصلت: ٣٣].

خسائر أمتنا من وراء العلمانية:

نحن ندعو أمتنا إلي أن تتمسك بدينها.. بشريعتها، وأن تطالب بذلك، وأن تصر عليه، فلا نجاة لهذه الأمة إلا بهذا الدين، ورحم الله الإمام مالك الذي قال: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)، وما صلح أولها إلا بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ.

وقد جربنا الاستيراد من الشرق والاستيراد من الغرب، جربنا الاقتباس من اليمين والاقتباس من اليسار، جربنا الرأسمالية الليبرالية المأخوذة من الغرب، وجربنا الاشتراكية الثورية المأخوذة من الشرق، فما أغنت عنّا الليبرالية ولا الاشتراكية.

ما حققنا رخاء اقتصاديا، ولا حققنا ازدهاراً..، ولا حققنا وحدة سياسية، ولا حققنا تماسكاً أخلاقيا، ولا حققنا نصراً عسكريا، ولازلنا ننزل من نكسة إلي نكسة إلي اليوم، كلّ مدّة نخسر أمام إسرائيل، (نتنياهو) مُصِرّ علي موقفه ونحن نلهث وراءه، نشحذ، نتسول.

أي أمة هذه؟!

أيها العلمانيون، ماذا صنعتم بهذه الأمة؟ خرّبتم جوانية هذه الأمة، خرّبتم نفوسها وضمائرها. نريد أن نرتفع بنفوس هذه الأمة لتكون أمة عزة وكرامة.. أمة جهاد ونضال، لا تبع نفسها ولا شرفها، ولا وطنها ولا قطعة أرض من ديارها بملك المشرق والمغرب.

أيها العلمانيون الضعفاء المستهينون بكل قيمة وبكل فضيلة، دعوا مكانكم لغيركم، لا تصلحون لهذه الأمة، أفسدتم عليها كل شيء، دعوا لها الفرصة لتجرب الإسلام.

لماذا تقفون في وجه الإسلام؟ لا تريدون للإسلام أن يحكم لا بطريقة ديمقراطية كما في الجزائر، ولا بانقلاب أبيض كما في السودان. تريدون أن تقفوا

ضد كل دولة تعلن الشريعة كما وقفتم أمام السودان، وكما تقفون اليوم أمام حزب الرفاه الإسلامي.

نحن نريد لأمتنا أن تسود، وأن تقود، وأن تتبوأ مكانتها تحت الشمس، ولن تفعل ذلك إلا تحت ظلال الدين وتحت لواء الإسلام وتحت حكم الشريعة، وهذا قانون الله ولابد أن يأتي، لابد أن يأتي.

إنهم يحاولون أن يوقفوا زحف التاريخ، إنهم يحاولون أن يوقفوا طلوع النهار، إنهم يناطحون المريخ ويوقفون سنن الله، وهيهات أن يستطيع أحد أن يوقف سنن الله، لأن سنن الله ماضية ولا يمكن أن يوقفها أحد ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣]

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالي لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد، فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا استجيب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر. اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بك أن نغتال من تحتنا. اللهم أجمع كلمة هذه الأمة علي الهدي، وقلوبها علي التقي، ونفوسها علي المحبة، ونياتها علي الجهاد في سبيلك، وعزائمها علي عمل الخير وخير العمل.

اللهم انصرنا علي أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا علي اليهود المعتدين الغادرين، وانصرنا علي الوثنيين المتعصبين، وانصرنا علي الصليبيين الحاقدين، وانصرنا علي الملاحدة الجاحدين، وانصرنا علي الطغاة الجبارين، وانصرنا علي جميع أعدائك أعداء الدين، اللهم رد عنا كيدهم وفل حدهم، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.

اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وسريع الحساب وهازم الأحزاب، اهزم أعداءنا واعداءك وانصرنا عليهم يارب العالمين. اللهم أيد إخوتنا المجاهدين في سبيلك، اللهم أيد إخوتنا في فلسطين ولبنان، وأيد إخوتنا في كشمير والسودان، وأيد إخوتنا في كل مكان، وخذ بأيدي إخوتنا الممتحنين والمضطهدين والمعتقلين، اللهم أفكك بقوتك أسرهم واجبر برحمتك كسرهم وتول بعنايتك أمرهم.

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧]

عباد الله، يقول الله تعالي: **﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾** [الأحزاب: ٥٦]. اللهم صلي وسلم علي عبدك ورسولك محمد، وعلي آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

(١٥)

الشيخ محمد الغزالي
عالم مجاهد مجدد[1]

الخطبة الأولي:

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون:

كيف يختار مدير برنامج (الاتجاه المعاكس) شخصياته؟

في يوم الثلاثاء الماضي من هذا الأسبوع المنصرم أذاعت قناة الجزيرة في برنامجها الشهير (الاتجاه المعاكس) حلقة عن: الجماعات الإسلامية، وكان طرفها أحد العلمانيين اللادينيين المتبجحين، وأحد الذين ينتمون إلى الجماعات الإسلامية، ولا أدري كيف يختار مدير البرنامج شخصياته؟ فكثيرا ما جاء بالذين يمثلون الإسلام من هذا الطراز الغريب، الذين لا يُعرفون إلا بطول اللحي، وطول اللسان، وقصر العقل والتفكير، وعدم فقه الواقع، وفقه الإسلام الحقيقي.

كما اختار الطرف الآخر من هذا النوع الذي لا يرجو الله، ولا اليوم الآخر، ولا يعترف للإسلام بقيمة ولا بمرجعية، هذا للأسف ما حدث في برنامج الاتجاه المعاكس في يوم الثلاثاء الماضي، ومما سمعناه في التعليقات علي هذا البرنامج، مداخلة هي في الواقع أقوي المداخلات وأصوبها، كانت من الأخ عبد الله أنس من لندن الذي قال لصاحب البرنامج: لقد أسأت الاختيار في كلا الطرفين، في الطرف العلماني وفي الطرف الإسلامي، فالطرف العلماني لا يمثل الديمقراطية،

---

(١) ألقيت في مسجد (عمر بن الخطاب) بالدوحة، في يوم الجمعة ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٤١٩هـ الموافق ١٢ من مارس سنة ١٩٩٩م.

بل هو رجل استئصالي يعادي الإسلام، ويعادي دعاته بكل قوة، فلا ينبغي لمثله أن يمثل العقلانية أو الديمقراطية، أو الحرية، أو غير ذلك.

وكذلك الذي جئت به يمثل الحركات الإسلامية ليس منها في شيء، فهو رجل أفتى بجواز قتل الرجل أمه وأباه، أحد الجزائريين قتل أمه وأباه، فبرَّر هذا الرجل ذو اللحية الطويلة - أبو قتادة، هؤلاء يتكنَّون بكني الصحابة، فبرَّر - قتل الرجل لأمة وأبيه، وأصدر فتوي في ذلك «البيان في جواز قتل الوالدان والنسوان».. الخ، كما بررَّ قتل بعض الدعاة الإسلاميين في الجزائر، الشيخ محمد سعيد وغيره، هذه الجماعات التي ظهرت وتنتسب إلي الإسلام، وارتكبت من الموبقات والحماقات والاعتداءات ما لا يقبله دين، ولا يقبله عقل، ولا نقل ولا شرع، ولا خلق ولا عرف ولا قانون، أبو قتادة هذا برَّر قتل الشيخ محمد سعيد، كما برَّر في فتواه قتل الرجل لأمه وأبيه، هذا للأسف ما حدث.

علماني متطرف يهاجم الشيخ الغزالي:

ومن أعجب ما ذكره هذا الشخص العلماني التونسي اسمه الشابِّي هذا: أنه هاجم شيخنا الشيخ محمد الغزالي وهاجمني معه، وقال: إن الغزالي الذي كان يرأس جامعة الأمير عبد القادر أو يديرها من الناحية العلمية؛ هو الذي بذر بذور التطرف والعنف في الجزائر، وجاء القرضاوي بعده فكمَّل دوره، وهذا افتراء علي الحق والتاريخ، وما كنت أريد أن أعيره التفاتاً، فمثل هؤلاء نقابلهم بما قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٢]، ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** ﴾ [القصص: ٥٥] كان أولانا أن نسكت عن هذا الجاهل الأحمق، المعادي للإسلام بصراحة وتبجُّح، والذي يدافع عن العلمانية اللادينية بكل وقاحة، والذي يهاجم الإسلام وشريعته بكل صراحة، ويقول: لم يعد في عصرنا مكان لتطبيق الشريعة، هذا كان أولى بنا أن نسكت عنه، لولا أن بعض الإخوة اتصلوا بي، وألحُّوا عليّ أن أتحدث.

والذي حداني أن أتحدث: هو تطاوله على الشيخ الغزالي، خصوصا أننا في هذه الأيام في الذكري الرابعة لوفاة الشيخ الغزالي رحمه الله، فالشيخ الغزالي توفي في التاسع من مارس، أي منذ أيام، فذكري الشيخ الغزالي وحقه علينا يستوجب أن نرد عنه، وأن نذود عن حرماته، لا يمكن أن يوصف الشيخ الغزالي بالتطرف ولا بالعنف، الشيخ الغزالي وقف عمره كله - وخصوصا في سنواته الأخيرة - يحارب التطرف والعنف، ويدعو إلي الاعتدال والتسامح، وإلى العقلانية.

صنفان يعاديان الشيخ الغزالي:

ولذلك نجد الذين يعادون الشيخ الغزالي صنفين من الناس: إما من المتشددين والمتطرفين من الإسلاميين، حتي إن بعضهم قابلني يوما وقال لي: ما رأيك في الغزالي؟

قلت: الغزالي حجة الإسلام، وهو الذى وقف ضد الفلاسفة وضد الباطنية.

قال: لا أسألك عن هذا الغزالي القديم، إنما أسألك عن الغزالي الجديد.

قلت: هذا عالم من كبار علماء الإسلام، ومن كبار الدعاة الذين وقفوا حياتهم، ونذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام، والوقوف في وجه أعدائه، وفي وجه التيارات الهدَّامة والمضلِّلة.

قال: ولكننا نفتي بكفره، قلت: بكفره؟! قال: نعم بكفره وردِته. قلت: لماذا؟

قال: لأنه رد بعض الأحاديث في البخاري. قلت: وبرد حديث في البخاري أو حديثين يخرج الرجل من الملِّة، لو كان الأمر كذلك لحكمنا بالردة على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، لأنها ردت بعض الأحاديث على الصحابة الذين سمعوها من النبى ﷺ، ولكنها بحكم ثقافتها قالت: لا ليس هذا صحيحا، هذا مناقض للآية الكريمة كذا وللآية كذا. فالإنسان يكفر لو رد السنة كلها، وقال: لا نأخذ عن رسول الله ﷺ، السنة ليست مصدرا للتشريع ولا للتوجيه، أما أن

يملأ الرجل كتبه بالأحاديث عن رسول الله ﷺ، ويكتب الرجل فقه السيرة وعينه تترقرق دمعا، وهو في جوار رسول الله ﷺ بالمدينة.

أما الرجل الذي عاش مدافعا عن السنة في كتبه وعن القرآن، كيف نحكم عليه بالكفر؟ فانظروا إلى هذا الحد يُتَّهم الشيخ الغزالي من المتشددين، فالذين يهاجمون الشيخ الغزالي ويعادونه، إما من هؤلاء المتشددين الذين أُغلقت عقولهم، وسُجنوا في ظواهر بعض الألفاظ، ولم يفقهوا الدين، ولم يفقهوا الحياة هذا صنف.

صنف المتطرفين من العلمانيين:

والصنف الآخر هم المتطرفون من العلمانيين، الذين يعادون الإسلام نفسه، هؤلاء من داخل المسلمين، والقوي الأخرى المعادية للإسلام من الصهيونية والصليبية والوثنية، والقوي المتربصة بهذا الدين وبأمته..

هؤلاء وقف الغزالي ضدهم في كتب عدة، وقف ضد الصهيونية، ووقف ضد الصليبية، ووقف ضد الطواغيت الذين أذلوا الأمة، وقف ضد هؤلاء في كتب شتى، وفي السنوات الأخيرة وقف جهوده على محاربة التطرف، التدين الزائف، والتدين المنقوص المغلوط، كتب الشيخ الغزالي الأخيرة: (دستور الوحدة الثقافية)، (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية)، (هموم داعية)، (علل وأدوية)، (الطريق من هنا)، (الحق المر)، (مستقبل الدعوة في القرن الخامس عشر الهجري).. الخ هذه الكتب – وعدد من الكتب – ظل الشيخ الغزالي يُبدئ ويعيد، وهمه أن يحارب هذه النزعة؛ نزعة الغلو والتطرف والتشدد، وكان يؤمن: أن الإسلام لا يُخدم إلا بهذا النوع من التدين الذي يجمع بين العقل والنقل، بين الحكمة والشريعة، بين الدين والدنيا، بين السماء والأرض، هكذا كان الشيخ الغزالي.

العلمانيون وسياسة تجفيف الينابيع:

هؤلاء هم الذين يعادون الشيخ الغزالي، ومن هؤلاء: هذا المحاور الذي كان في (الاتجاه المعاكس)، فهو محاور من دعاة الاستئصال، من دعاة فلسفة تجفيف الينابيع، وهذه فلسفة تقوم عليها بعض الدول، وهو ممن كتبوا فيها، هذه الفلسفة تقوم على تجفيف منابع التدين الحقيقي الإيجابي في التعليم والثقافة والإعلام، يجب تنقية مناهج التربية والتعليم في المدارس والمعاهد والكليات، من الحضانة إلي الجامعة، من كل شيء ينشيء الشخصية الإسلامية، المعتزة بدينها، الموالية لربها ولأمتها، الغيورة علي دينها، الآمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر.

فكل ما يتعلق بهذه الألوان من الثقافة تُحذف ولا تبقي في مناهج التعليم والتربية، أي كلام عن اليهود، والتحذير من اليهود، وعداوة اليهود، وخطر اليهود ينبغي أن يُحذف، أي كلام عن موالاة غير المسلمين ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ [المائدة: ٥١] يُحذف، أي كلام عن البطولة الإسلامية، والوقوف في وجه الباطل، والثورة علي الظلم ينبغي أن يُحذف، أي كلام ينشيء الشخصية المسلمة الإيجابية لا مكان له في مناهج التربية والتعليم، هذا ما يريده هؤلاء، وكذلك في مناهج الثقافة والإعلام، في التليفاز أو في الإذاعة، أو في الصحافة، لايوجد مكان للحديث عن هذه المعاني.

العلمانيون وتمييع الحقائق:

لقد قرأت مقالا لأحدهم في صحيفة الأهرام في القاهرة قال فيه: إننا نريد أن نعلِّم أولادنا وناشئتنا: نسبية الحقائق، أن الحقائق نسبية، ليس هناك حقيقة مطلقة، إذا كنا نقول نحن: الله واحد، فهناك من يقول: هناك آلهة ثلاثة (الله ثالث ثلاثة). هناك من يقول بالوثنية، إذا كنا نقول نحن: إن هناك آخرة وجنة وناراً، هناك من يقــول بتناسخ الأرواح، وليس هناك جنة ولا نار. إذا كنا نحن

نقول بنبوة محمد، فهناك من لا يؤمن بنبوة محمد، كل هذه الحقائق التي نعتبرها نحن حقائق مطلقة، ولا يجوز الاختلاف عليها، ولا التشكيك فيها، هؤلاء يقولون: هي حقائق نسبية، حقائق عندنا نحن، وليست حقائق عند آخرين، فلا يجوز أن نتعصب، ولا يجوز أن نعتبر هذه أشياء لا كلام فيها ولا جدال فيها، هذا ما يقوله هؤلاء، يريدون أن يجعلوا الدين عجينة لينة يشكلونها كيف يشاء، حتي العقائد الأساسية ينبغي أن تؤخذ هذا المأخذ عند الطفل المسلم، والتلميذ المسلم، هذا ما يريده دعاة تجفيف الينابيع في ثقافة الأمة وتربيتها وتعليمها وإعلامها.

وسطية الشيخ الغزالي واعتداله:

هذا الذي يهاجم الشيخ الغزالي ويقول: إنه هو الذي بذر بذور التطرف في الجزائر، وفي جامعة الأمير عبد القادر، وفي تليفزيون الجزائر، بالله عليكم هل يعقل أن يكل رئيس جمهورية لرجل أن يتولي توجيه جامعة ناشئة يتولاها ليزرع فيها التطرف ويبذر فيها العنف؟ أيعقل أن رئيس دولة – وهو الشاذلي بن جديد – يقول الشيخ الغزالي: نريد أن تعلِّم شباب الإسلام الصحيح بعيدا عن تسيب المتسيبين، وتطرف المتطرفين، هل يعقل أن رئيس دولة يكلِّف إنسانا ببذر العنف والتطرف في بلده، أهذا من العقل، أيعقل هذا؟! هذا لا يعقل أبدا.

الشيخ الغزالي كان معروفا بوسطيته واعتداله وتسامحه وعقلانيته، ولو خرج عن الوسطية يوما فإنما يخرج عنها في اتجاه العقلانية، واتجاه التسامح والتساهل والتيسير، فكيف يُتَّهم الشيخ الغزالي بأنه هو الذي بذر بذور التطرف، لا أريد أن أتحدث عن نفسي لأكمل مشوار الشيخ الغزالي في بذر بذور العنف والتطرف في الجزائر، بالعكس الشيخ الغزالي كانت مهمته في الجزائر مقاومة التطرف وهذا، ما ذكره في كتبه أنه لاقي ما لاقي من المتطرفين في المملكة حينما

كان في جامعة أم القري، وهنا في قطر حينما عاش بيننا ثلاث سنوات في كلية الشريعة في جامعة قطر وكنت عميدها في ذلك الوقت، وكذلك في الجزائر وقد بقي فيها خمس سنوات قاسي ما قاسي من المتشددين والمتطرفين، وكان مهمته: أن يبذر بذور الاعتدال والتسامح، والحوار بالعقل، الفكر مع الشرع والنقل، هكذا كان الشيخ الغزالي.

لو كان الشيخ الغزالي متطرفا ما دعته البلاد العربية والإسلامية إليها، كان يدعي في كل سنة هنا في رمضان إلي قطر، وكان يدعي إلي الكويت، وكان يدعي إلي السعودية، وقد نال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وقد وافاه الأجل حينما كان مدعوا في مهرجان (الجنادرية) وأصابه ما أصابه حينما سمع ما ينال الإسلام، وقد كان الرجل ينتفض انتفاضا حينما يسمع أي كلمة تمس الإسلام، يغضب ويزأر زأرة الليث، ولا يقف في وجهه أي أحد حينما يغضب للإسلام، هذه الغضبة الأخيرة أجهزت عليه رحمه الله، فمات وكأنما السيف في يده، مات وهو شاهر سيفه في المعركة للدفاع عن الإسلام، عاش عمره للإسلام.

الغزالي نصير المستضعفين:

عاش الشيخ الغزالي منذ عرفناه شابا صغيرا متخرجا في الأزهر الشريف، يكتب بقلمه، ويخطب بلسانه، يدافع عن الطبقات الضعيفة الكادحة، لا زلت أذكر كلماته في مقدمة كتابه (الإسلام والمناهج الاشتراكية) وهو يدعو الفقراء والمستضعفين، ويقول: يا ضحايا الفقر والجوع والحرمان: هُبُّوا، إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تُقص، وإن الأوضاع الظالمة التي تجتاحكم يجب أن تُقصي، وإن الفراغ الذي خامر بطونكم وأفئدتكم يجب أن تنزاح غُمَّته إلي الأبد.

هذا هو الغزالي نصير المستضعفين في الأرض من أول يوم، نصير المرأة التي ظلمها الناس، من أوائل كتبه كتاب: (من هنا نعلم) وقد رد فيه علي الشيخ

خالد محمد خالد وكان صديقا له، ولكنه حينما رآه انحرف عن الجادة وكتب كتابه (من هنا نبدأ) وفيه هاجم الحكم الإسلامي، وهاجم فيه العدالة الإسلامية، وسماها اشتراكية الصدقات. الخ. وقف الشيخ الغزالي يرد عليه، ويبين خطأه، ويذكر الصواب، فالحق أحق أن يتبع، ولا ينبغي للإنسان أن يخاف في الله لومة لائم.

جهاد الغزالي ضد الاستبداد السياسي :

وقف الشيخ الغزالي ضد الطغيان والاستبداد، كنا نحن في معتقل الطور سنة ١٩٤٩، وكان يحاضرنا يلقي علينا محاضرات في موقف الإسلام من الاستبداد السياسي، ونحن في المعتقل، لم يخف أن يتجسَّس علينا متجسِّسون، وأن ينقل ذلك ناقلون، ويقول : إن هذا كلام ضد الحكومة، لم يبال بذلك، وظهرت بعد ذلك هذه المحاضرات ظهرت في كتاب (الإسلام والاستبداد السياسي).

من هم عُداة الشيخ الغزالي ؟ :

وقف الشيخ الغزالي طول عمره مناديا بالإصلاح، مناديا بالتجديد، منوِّها بالشوري التي ينبغي أن تكون أساس الحياة الإسلامية ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشوري : ٣٨] مقاوما للطغيان والاستبداد أيا كان مصدره، مناديا بوحدة المسلمين في العالم، هكذا كان الشيخ الغزالي، ولذلك رحَّب به المسلمون في أقطار الأرض مشارقها ومغاربها، أينما ذهب الشيخ الغزالي رحب به دعاة الإسلام، وعلماء الإسلام في كل مكان، فكيف يقول هؤلاء عن الغزالي ما قالوه، كان الغزالي يتمثل - رحمه الله - ببعض أبيات من أبيات ديوان (الحماسة) يقول :

لقد زادنى حباً لنفسى أننى بغيض إلى كل امرىء غير طائل
وإنى شقىٌّ باللئام ولا ترى شقيا بهم إلا كريم الشمائل

إني بغيض إلي كل امريء غير طائل، ليس له طول ولا فضل، وكان يحكي

ما يقوله بعض السلف: حسبك نصرا: أن خصمك يحارب الله ورسوله، الذين يخاصمون الشيخ الغزالي من هؤلاء العلمانيين واللادينيين إنما يحاربون الله ورسوله، ويقفون ضد الشيخ الغزالي، لأنه وقف مدافعا عن الإسلام، عن دين الله، وعن سنة رسول الله، وعن كتاب الله، لم يهن يوما، ولم يُلقِ السلاح يوما، بل ظل مصابرا مرابطا مثابرا إلي آخر رمق في حياته.

إننا يا أيها الإخوة الأحبة نعجب لهؤلاء الناس المتطاولين، الذين يملكون ألسنة طويلة، ويملكون عقولا قصيرة، ويملكون هِمما واهنة، هؤلاء الناس الذين يرضخون للغرب، وللثقافة الغربية، ولتيارات التغريب، ويهاجمون الدعاة الأصلاء الذين يريدون لهذه الأمة أن تستمسك بالعروة الوثقي، أن تبقي على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين، نعجب لهؤلاء المتطاولين بالباطل الذي يقفون في وجه الجبال الشمُ، ونقول لهم ما قاله الشاعر قديما:

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه　　　أشفِق على الرأس لا تُشفق على الجبل

لن تستطيع أن تنطح الجبل، أشفق علي رأسك إذا نطحت الجبل، هؤلاء يناطحون الجبال، ولا يمكن أن ينتصروا في المعركة.

المستقبل للإسلام:

نحن مؤمنون بأن الغد لهذا الدين، والمستقبل لهذا الإسلام، وأن هذه الأمة إلي خير في جملتها، الصحوة الإسلامية ظهرت ولا يمكن أن تخمد جذوتها، الشيخ الغزالي قام في الجزائر وهيأ الله له صحوة عظيمة، لاشك أنه كان أحد الأعمدة التي اعتمدت عليها هذه الصحوة، والتي أثمرت ثمراتها، امتدت جذورها في الأرض، وبسقت فروعها في السماء، لأنها كانت ﴿ **كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا** ﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٥]

كنت أخطب في الجزائر في مثل صلاة الجمعة هذه، فيحضر في المسجد عشرات الآلاف، بعض المساجد من ثلاثة أدوار، تمتلىء الأدوار الثلاثة، والساحات حول المسجد، والطرقات والميادين المؤدية إلي المسجد، حتي تتعطل المواصلات، صحوة لم أر لها نظيرا، وكان المفروض أن تؤتي هذه الصحوة أكلها، وتحقق أهدافها، وأن يؤدي اختيار الشعب إلى من يختارهم الشعب، ولكن - للأسف - وقفت القوي المعادية للإسلام ضد هذه الصحوة، وضد نتائجها المفترضة، صناديق الانتخاب أدت إلي اختيار مجموعة من الناس هذا هو حقهم، الشعب اختار، فعليه أن يتحمل المسئولية، ولكن هؤلاء وقفوا في وجه الشعب، وقطعوا عليه اختياره، قطعوا عليه الطريق وقالوا له : أنت لست أهلا للاختيار، أنت لست راشدا، أنت في حاجة إلي وصاية، حينما اختار غير الإسلاميين كان الشعب راشدا، فلما اختار الإسلاميين كان الشعب طفلا، وكان الشعب في حاجة إلي وصاية، هؤلاء يكيلون بكيلين، معاييرهم مزدوجة، لا يعرفون الحق الصحيح، ولا العدل الصريح.

ماذا نريد من الصحوة ؟

إننا نعتقد : أن الإسلام قادم إن شاء الله، كل ما ننصح به أهل الإسلام، ودعاة الإسلام : أن يحتكموا إلي الفهم الصحيح للإسلام، ألا تشغلهم الجزئيات عن الكليات، ولا يشغلهم الشكل عن الجوهر، ولا تشغلهم النوافل عن الفرائض، ولا تشغلهم المكروهات عن المحرَّمات، لا تشغلهم الصغائر عن الكبائر، لا يشغلهم المختلف فيه عن المتفق عليه، نحن في حاجة إلي فهم صحيح لهذا الدين في ظل التسامح[1]، نحن أولي الناس بالتسامح، نحن لا نعادي إلا من يعادينا، ولا نحارب إلا من يحاربنا، وإلا فأيدينا مبسوطة لكل الناس وقلوبنا مفتوحة لكل الناس نسالم من سالمنا، ونسامح من سامحنا ولا نفرِّط في ذرة من ديننا، لا نبيع

(١) انظر في شرح هذه المطالب التي يناشد الشيخ القرضاوي الصحوة الالتزام بها، كتابه الممتع : (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلي الرشد) طبعة دار الشروق بالقاهرة.

ديننا بملك المشرق والمغرب، هذا الدين أمانة في أعناقنا، وقد كلفنا الله تعالي أن نقوم علي حراسة هذا الدين، وعلي حياطة هذا الدين إيمانا به، واتباعا له، ودعوة إليه، وغيرة علي حرماته، وجهادا في سبيله، وسنظل كذلك حتي نلقي الله عز وجل.

الشيخ الغزالي أحد مجددي الإسلام:

يا أيها الإخوة: كان الشيخ الغزالي رحمه الله إماما من أئمة هذه الأمة، كان من المجددين لهذا الدين، سمَّاه أبوه محمد الغزالي، محمد الغزالي هو اسمه، ليس لقبه الغزالي، بل سمَّاه أبوه محمد الغزالي أحمد السقا، أبوه اسمه: الشيخ أحمد السقا، لكن أباه أراد أن يكون لهذا الصبي - أو لهذا المولود - نفحة من الإمام محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد الغزالي حجة الإسلام السابق، فسمَّاه محمد الغزالي تيمنا بهذا، وفعلا كان غزالي عصره، وكان أحد المجددين لهذا الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري، كما قال النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة علي رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1] أنا من أنصار أن «منْ» في هذا الحديث للجمع وليس للمفرد، «منْ» تصلح للفرد وتصلح للجمع ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٩٧] فأعاد عليها الضمير بالجمع، ولذلك الذين يجدِّدون الدين هم جماعة، جماعات من الناس، وليس فردا واحدا، ولاشك: أن الشيخ الغزالي أحد هؤلاء الأفذاذ الذين أسهموا بجهد مشكور في خدمة الإسلام، وتجديد الإسلام، نسأل الله تبارك وتعالي: أن يغفر للشيخ الغزالي ويرحمه، ويتقبله في الصالحين، ويجزيه عما قدَّم لدينه ولأوطانه

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٧٠) والحاكم في مستدركه (٤ / ٥٢٢) والبيهقي في السنن والآثار (٥٢) وذكره الألباني في الصحيحة (٥٩٩) وعزاه إلي أبي عمرو الداني في الفتن. راجع تخريجنا للحديث في كتابنا «من أجل صحوة راشدة تجدد الدين.. وتنهض بالدنيا» ص١١ ط دار الشروق.

ولأمته خير ما يجزي به العلماء العاملين والدعاة الصادقين، وأن يبوء أولئك المتطاولون المتبجحون بإثمهم، ويجزيهم الله بما يستحقون، اللهم آمين[1].

الخطبة الثانية:

تحذير لأهل فلسطين من التفرق والفتنة:

أما بعد: فأيها الإخوة المسلمون: أتابع – ويدي علي قلبي – ما يجري من أحداث علي أرض فلسطين الحبيبة، فأنا من أحرص الناس علي ألا يواجه الفلسطيني الفلسطيني، وألا تمتد يد الفلسطيني إلي أخيه، وألا يوجه السلاح إلي صدر فلسطيني آخر، ما أحوج هذا البلد الكريم إلي أن تتحد قواه في مواجهة ذلك الاحتلال الصهيوني الغاشم، الذي يراوغ ويلاوع ويكايد، ويأخذ ولا يعطي شيئا، ويريد هؤلاء: أن يشغلونا بعضنا ببعض، أن يشغلونا بأنفسنا ليستفيدوا من وراء الخلاف والصراع، هم الوحيدون الكاسبون والمستفيدون من صراع القوي الفلسطينية بعضها مع بعض، ويجب علي إخوتنا الفلسطينيين أن يدركوا هذه الحقيقة، وما أظنها تغيب عنهم، فهي لا تغيب عن عاقل أبدا.

نريد للإخوة الفلسطينيين ما قاله الشيخ أحمد ياسين، فقال: لن تمتد يدنا بالعدوان إلي أحد من أهل فلسطين، مهما أُصبنا، ومهما نزل بنا، سنظل كخير ابني آدم الذي قال له أخوه: لأقتلنك، فقال: ﴿**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: ٢٨] لا ينبغي أن نستسلم لهذه التيارات التي تريد أن تصب الزيت علي النار، فقد قيل: إن إسرائيل، وإن رصاصات إسرائيل هي التي قتلت اثنين من الفلسطينيين أول أمس، قال بعضهم: إن ذلك من السلطة الفلسطينية، وقال بعضهم: إن هذا من

---

(١) لمزيد من التفصيل حول الغزالي وفقهه وعلمه وجوانب من حياته: انظر ما كتبه الشيخ القرضاوي في كتابه الحافل (الشيخ الغزالي كما عرفته.. رحلة نصف قرن) طبع دار الشروق بالقاهرة، وانظر كذلك: الرثاء الذي كتبه الشيخ القرضاوي إبان وفاة الشيخ الغزالي، انظر: (في وداع الأعلام) للشيخ القرضاوي. طبعة: دار الفكر المعاصر بدمشق وبيروت.

إسرائيل، ولا يُستبعد ذلك، لا نستبعد علي إسرائيل أن تعكِّر المياه لتصطاد، وأن تصطاد في الماء العكر، وأن تنتهز الفرصة لتزيد الفرقة، وتعمِّق الفجوة، وتوسع الفجوة، هذا ما ينبغي أن نحذر منه.

إننا حراص علي أي دم فلسطيني أن يراق، ولذلك حزنت كل الحزن حينما قتل اثنان من الفلسطينيين، وحزنت كل الحزن حينما قرأت اليوم: أن ٨٥ جُرحوا في رفح، ولازلت أخاف أن ينفَّذ حكم الإعدام في الأخ العطار الذي حكمت المحكمة بإعدامه، وأملنا في الرئيس الفلسطيني أن يلقي الأمر بشجاعة وحكمة، ويعرف قدر هذا الموضوع، ويطفيء النار في مهدها قبل أن يتطاير شررها ويتفاقم خطرها، وتأتي بأسوأ العواقب والنتائج.

أسأل الله: أن يسدِّده، وأن ينير طريقه، فلا يوافق ولا يصدِّق علي هذا الحكم بالإعدام، ويتفادي الخطر قبل وقوعه، اللهم آمين.

* * *

(١٦)

استنكار رواية (وليمة لأعشاب البحر)[١]

الخطبة الأولي :

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

همٌّ ثقافي يضاف إلي همومنا :

خلال الأسابيع الماضية كانت أمّتنا مشغولة بقضية ضُمّت إلي قضاياها، وهم أُضيف إلي همومها، همّ ثقافي يتعلّق بالثقافة والأدب، إضافة إلي الهموم التي تتعلق بالاقتصاد والسياسة والمصير.

هذا الهم الثقافي هو تلك الرواية التي نشرتها وزارة الثقافة المصرية، وهي الرواية التي تسمي : (وليمة لأعشاب البحر) – ولا أعرف معني هذا العنوان – لكاتب سوري لم نسمع عنه من قبل، ولكن هذه الرواية وما جري حولها شهرته، وجعلته علي كل لسان وعلي كل قلم وفي كل صحيفة وفي كل قناة فضائية.

هذه الرواية التي تحدث عنها المتحدثون ونقدها الناقدون لم أشأ أن أتحدث عنها حتي آراها، فعلماؤنا قالوا : الحكم علي الشيء فرع عن تصوره. لا يجوز أن نتكلم عن شيء كهذا مما ذكره الناس عنه، وإن كان هؤلاء الناس ثقات.

وطلبت من أحد الإخوة أن يحضر لي نسخة من هذه الرواية، وقرأت ما يقارب

---

(١) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة بتاريخ ١٥ / ٢ / ١٤٢١هـ – ١٩ / ٥ / ٢٠٠٠م. وللشيخ فتوي أيضا حول هذا الموضوع نشرت في الجزء الثالث من كتابه (فتاوي معاصرة : ص٧١١ – ٧١٧).

نصفها، أُغالب نفسي وأنا أقرأها فهي من أول صفحة تُقزز نفس الإنسان المؤمن. رواية لا تعرف شيئا اسمه (الحـــرام)، ولا تعرف شيئا اسمه (العيب)، ولا تعرف (الله) ولا تقدره حق قدره.

ولا عجب فقد كتبها إنسان نصيري العقيدة، شيوعي الفكرة. وعقيدة الإنسان الدينية والأيديولوجية تنضح علي فكره، وتنضح علي كتابته، وتنضح علي أسلوبه، وكل إناء بالذي فيه ينضح، هذه حقيقة.

ولكني سأتجاوز عن عقيدة الرجل الدينية والأيديولوجية ونحاكم النص الذي كتبه.

لم أستطع أن استمر في أكثر من النصف، وقد بلغ الاشمئزاز مني مبلغه، واكتفيت بتصفح الباقي، وكلما تصفحت هذه الرواية وجدت فيها أشياء وأشياء، ينكرها الدين، وينكرها الخلق، وينكرها العقل، وتنكرها الأعراف، كل ما فيها والعياذ بالله منكر.

وجدت فيها أكثر مما انتقد عليها الناقدون، هناك أشياء كثيرة في السطور وما بين السطور.

هل يعبر أشخاص الرواية عن فكر الكاتب ؟

قالوا: إن ما ذكره الكاتب إنما ذكره علي ألسنة شخصيات الرواية! ونحن نعرف أن الرواية قصة يتخيلها الكاتب، وقد يكون لها أصل في الواقع، وقد لا يكون. هو الذي يرسم صورتها: مبدأها ونهايتها وعُقدتها وحلّها، وهو الذي ينشيء شخصياتها ويُنطق هذه الشخصيات بما يريد أن تنطق به، تعبر عما في نفسه أو تعبر عن هذه الأشخاص. وإذا كان له فكره معينة فهو يجريها علي لسان أحد الأشخاص، ويقوي هذه الفكرة، ثم يأتي الرد عليها من الطرف الآخر ضعيفاً، أو لا يأتي ردّ عليها قطّ. هذه حيلة نعرفها عند القصاصين والروّائيين.

بعضهم يقول: يا أخي، ألم يذكر الله تعالي أقوال المشركين والدهريين واليهود والنصاري وغيرهم؟ قلت له: نعم، يذكرها ولكنه يرد عليها، انظر إلي

مناظرة ابراهيم لنمرود: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّه أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيم رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. الرجل ينكر الألوهية ويدعي أنه هو الإله وهو الرب الذي يحيي ويميت، ولكن إبراهيم أفحمه، قال له: ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** ﴾.

لا مانع أن تذكر آراء الآخرين، ولكن أعط للخصم من القوة ما يرد به على صاحب الفكرة المناوئة للدين، والمناوئة للألوهية، والمناوئة للأخلاق. هذا الكتاب لم يفعل ذلك.

حرية الإبداع وحدودها:

قالوا: إن الكاتب حرّ في إبداعه، ومن حق الأديب المبدع أن يقول ما يشاء! ولكن هل هذه حقيقة؟ هذا يجرنا إلي قضية حدث فيها خلاف منذ نحو ثلث قرن في مصر: هل الأدب للأدب أم الأدب للمجتمع؟ هل الفن للفن أو الفن للحياة؟ ولا شك أن الفن للحياة، والأدب للمجتمع.

الأديب لا يكتب لنفسه، وإنما يكتب لقومه.. لأهله.. لأمته، وإلا معني هذا كان الأدب مفصولاً عما حوله، كان الأديب يعيش في صومعة لنفسه، ويكتب ضد ما يؤمن به قومه.

أهذا هو الأدب؟

ثم إن حرية الإبداع هل تعني حرية مطلقة؟ هل في الوجود حر حرية مطلقة؟ لا، إن السيارات في الطريق محكومة بقوانين المرور، والبواخر في المحيطات الهائلة محكومة بخطوط السباحة، والطائرات في الجو.. في السماء.. في الفضاء محكومة بخطوط جوية ينبغي أن تسير فيها، والكواكب والنجوم في أفلاكها محكومة بمداراتها ﴿ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. لو أن باخرة خرجت عن الخط ربما اصطدمت بجبل من الثلج، لو أن طائرة خرجت عن خطها ربما اصطدمت بطائرة أخري.

كل شيء في الوجود له أصول تحكمه، والإنسان له أصوله. الحيوان حر يفعل ما يشاء، يستطيع الحمار أن يبول في الطريق وأمام الناس، ولكنك أيها الإنسان العاقل لا تستطيع أن تبول في الطريق.

الإنسان تحكمه أعراف وأخلاق وقيم وعقائد، ليس الإنسان حرّاً في أن يفعل ما يشاء. هل من حق الإنسان أن يقف عارياً في ميدان من الميادين ويقول: أنا حر؟ لو فعل ذلك لرجمه الناس بالحجارة حتي الأطفال وحتي الشيوخ وحتي النساء.

فإذا كان من حق الإنسان ألا يعري جسده أمام الجمهور، فهل من حقه أن يعري أدبه ويعري فنه أمام الناس؟ إن العُري الفضائحي الذي في هذه الرواية.. في أهدافها وأسلوبها وكتابتها، أشد من العُري الجسدي.

هل من حق الإنسان المبدع أن يتجرأ علي الله، وعلي رسله، وعلي كتبه، وعلي اليوم الآخر، وعلي القيم والدين والأخلاق، كما يفعل هذا الكاتب؟

أيستطيع أن يقول ذلك لرئيس دولته ويتجرأ عليه؟ أم أن الدين و(الله) والكتب والرسل أصبحت «**الحائط الواطي**» التي يتجرأ عليها كل الناس؟! وصدق الشاعر وليد الأعظمي حينما قال في إحدي قصائده:

يُساق للسجن من سب الزعيم ومن سب الإله فإن الناس أحرار!

إذا سب أحد الزعيم سيق إلي السجن، أما إذا سب الله فالناس أحرار يا أخي! تريد أن تقيد الناس في حرياتهم فلا يسبوا الله؟!

أهذه هي حرية الإبداع أن يُسف الإنسان وينقل أحطّ ألفاظ الشوارع، وأحطّ عبارات السّفلة من الناس، ينقلها بحذافيرها بألفاظها الفاضحة في كتابه الذي يُنشر علي الناس؟

نحن في خطاب بعضنا لبعض وإن كنا أصدقاء أو أهلاً نتعفف أن نذكر هذه الألفاظ القبيحة العارية فيما بيننا، فكيف يأخذ الكاتب هذه الألفاظ وينقلها في كتابه؟ أنا أستحي أن أذكر هذه الألفاظ وهذه العبارات، أستحي أن أذكرها وهي كثيرة، ألفاظ عارية فاضحة قبيحة.

الكاتب المبدع بين الإسفاف والرقي:

الكاتب المبدع الحق هو الذي تكون له مصفاة، يصفي هذه الألفاظ وينقل مضمونها إلي قارئه بما لا يجرح مشاعره، ولا يخدش الحياء العام. إن مثل هذه الروايات يقرأها المراهق، وتقرأها المراهقة، وتقرأها الفتاة العذراء، ويقرأها الناس في بيوتهم، فلابد أن نراعي الحياء العام.

هل من مهمة الأديب أن يرتقي بالسفلة من الناس إلي العلية؟ أم ينزل بالعلية إلي حضيض السفلة.. يهبط بالمجتمع إلي الدرك الأسفل حتي يتداول هذه الألفاظ القبيحة التي يذكرها الكاتب؟

أي إبداع هذا الذي يذكرونه؟

لقد رأينا كثيراً من القصاصين الكبار يذكرون النواحي الجنسية ويتحدثون عن الزناة والشذاذ واللواطيين وتجار المخدرات ومدمني المخدرات، ولكنهم لا يذكرونها بهذ الألفاظ المسفة العارية. رأينا ذلك في قصص محمود تيمور وتوفيق الحكيم ومحمد عبدالحليم عبد الله والطيب صالح ونجيب الكيلاني ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، رغم أنهم ذكروا أشياء كثيرة تحدث في الفراش، ولكن لم يجرؤ أحدهم ولم يَلقْ بأحدهم أن ينزل إلي مثل هذا الدرك.

قالوا: إن في أدبنا أشياء مكشوفة مثل ما قاله امرؤ القيس ونحوه، ومثل ما ورد في خمريات أبي نواس أو في التغزل في الذكور. لكن هذه الأشياء في أدبنا لا تمثل الاتجاه العام، وليس لها أثر في مجري الحياة، لأنها كانت أشياء خاصة تتداول بين الناس في مجالسهم، أو يقرأها بعض الناس في كتبهم، وكانت الكتب محدودة الانتشار لأنها كانت تنسخ نسخاً وغالية الثمن، فكان الذين يقرأنها محدودين جدا، ومع هذا لم يخلد امرؤ القيس بقوله في معلقته:

تقول وقد مال الغبيط[1] بنا معاً ... عقرت بعيري يا امرأ القيس تَنْزل

(١) الغبيط: الرحل، وهو النساء يشد عليه الهودج، والجمع: غُبُطٌ.

لم يخلد امرؤ القيس بمثل هذا الإسفاف المكشوف، إنما خلد امرؤ القيس بقصائد أخري وأبيات أخري كقوله:

ولو أننى أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليلاً من المال

ولكنّما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

كان امرؤ القيس في شبابه رجلاً ماجناً، حتي إنه حينما أبلغ بقتل أبيه وكان في مجلس سُكْر قال كلمته الشهيرة: اليوم خمر وغداً أمر! نكمل مجلس الأنس إلي النهاية، لم يدع كأسه وشرابه حتي بعد أن عرف بمقتل أبيه.

لماذا نذكر مثل هذا، ولا نذكر ما قاله امرؤ القيس حينما قال:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له: لا تبكى عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا؟

لماذا لا يذكر هؤلاء قول عنترة العبسي:

أغشى فتاة الحى عند حليلها وإذا غزا فى الجيش لا أغشاها

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها؟

هذا هو شعر الجاهلية.. شعر عنترة.. شعر زهير بن أبي سلمي.. شعر غيرهم من هؤلاء.

الاتكاء علي الثقافة الشاذة:

لماذا يريدون أن يتكئوا علي الجانب السلبي في التراث.. علي الأشياء الشاذة ليحاكوها، ويجعلوا منها أسوتهم؟

كل ثقافة في الدنيا فيها أشياء شاذة، ولكن هذه الأشياء الشاذة ينبغي أن لا تكون هي الإمامة للناس، هي نقطة ضعف، فينبغي أن توضع في موضعها، وتُحجم في محلها، ولا تُعطي أكثر من مساحتها.

هؤلاء الذين يدعون الإبداع، أي إبداع في التطاول علي الله تبارك وتعالي، والتطاول علي كتبه، وعلي القرآن الكريم؟ هم لا يتطاولون علي كل الكتب ولا علي

كل الرسل! ولو حصل تطاول علي التوراة أو الإنجيل أو علي المسيح عليه السلام ما جرؤت وزارة الثقافة في مصر أن تنشر هذا! إنها تراعي خواطر المسيحيين! أما المسلمون . . أما الأكثرية هؤلاء فليس لهم وزن، وليس لهم قيمة ولا اعتبار!

أي هوان بهذه الأمة : أن تُهان مقدّساتها ولا تغضب لربها؟!

هل طلاب الأزهر ظلاميون؟!

لقد عابوا علي شباب الأزهر . . علي طلابه وطالباته أن غضبوا لهذا الدين! وهل يُلام الإنسان إذا غضب لدينه؟ إذا سرت في الشارع ومعك زوجتك أو ابنتك أو أختك، ثم اجترأ عليها واحد من أولئك الفاسقين فنبذها بكلمة نابية جارحة، ألا تغار لأختك أو لابنتك أو لامرأتك؟ ألا يثور الدم في عروقك؟ ألا تقف لهذا بالمرصاد؟ هذا ما يفعله الإنسان الحر، الشريف لا يقبل أن يُهان في عرضه، وربما دخل معركة ليس معه أسلحتها، ولكنه مضطر أن يدافع عن عرضه.

أكان الدين أهون علي الإنسان من العرض؟

أكان الله تعالي وقرآنه ونبيه محمد ﷺ أهون لدي الإنسان المسلم من الغيرة علي امرأته وابنته وأخته؟

لقد كان طلبة الأزهر وطالباته معذورين حينما سمعوا ما سمعوا، وقرأوا ما قرأوا.

قالوا : إنهم لم يقرأوا هذا! وهل يجب أن يقرأ جميع طلاب الأزهر وطالباته هذه القصة حتي يغضبوا من أجلها؟

لقد رأينا في (الأهرام) كاتباً يدعون أنه تقدمي يدافع عن هذه الرواية ويقول : أنا لم أقرأها! هو لم يقرأها، إنما يدافع عن هذا الخط الذي يسمونه (الخط التنويري)! قال وزير الثقافة : إننا صار لنا بضع عشرة سنة ونحن ننشر هذه الثقافة المستنيرة لنقاوم بها ثقافة الظلاميين الرجعيين السلفيين!

أنا وأنت وأنتم أيها الإخوة ظلاميون! كل من يتمسك بكتاب الله وسنة

رسوله وبفهم القرون الأولي من هذه الأمة وهم خير القرون، كل هؤلاء ظلاميون! أنا ظلامي، وأنت ظلامي، الأزهر ظلامي، شيخ الأزهر ظلامي، مجمع البحوث في الأزهر ظلامي، رئيس جامعة الأزهر ظلامي، اللجنة الدينية في مجلس الشعب ظلامية، جريدة الشعب ظلامية، حزب العمل ظلامي، الجمعيات الإسلامية في مصر كلها ظلامية، خطباء المساجد علي المنابر ظلاميون!!

من هم إذن أهل النور إذا كان هؤلاء جميعاً ظلاميين؟

وزير الثقافة وحده هو الذي يحمل النور.. الثقافة المستنيرة!

والثقافة المستنيرة هنا أيها الإخوة، هي الثقافة التي تسخر بالدين، وتستهين بالقيم الدينية، تسخر من الله، ومن رسل الله، ومن كتب الله. وظهرت في ذلك كتب وقصص وروايات سكت الناس عليها دهراً من الزمن، ثم كان لابد أن يحدث الانفجار، إذا اشتد الضغط وتوالي الضغط لابد أن يولد الانفجار، ومن استغضب فلم يغضب فهو حمار.

استغضب الناس فغضبوا لدينهم، وأنا لا أري في تظاهر الطلاب شيئاً منكراً إذا كان تظاهراً سلمياً. يجب أن نعود أمتنا ما تعودته أمم الحضارة من التظاهر السلمي[1].

كنا طلاباً في المعاهد الدينية الابتدائية والثانوية وفي كليات الأزهر، وكنا نخرج نحتج علي كل أمر يخالف الدين، أو كل أمر يهتم به المسلمون، وكل قضايا المسلمين. خرجنا من أجل كشمير.. من أجل تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان وفلسطين. الطلاب هم نبض الأمة، لا يستطيعون أن يعيشوا بعيداً عنها.

كل ما نمنعه هو: التخريب.. أن يتحول التظاهر إلي تخريب. أما التظاهر السلمي فلا مانع منه.

لقد رأينا الناس في (سياتل) بالولايات المتحدة أهل الشارع يخرجون

---

(١) لفضيلة شيخنا فتوى عن المظاهرات السلمية ومشروعيتها، وهى ضمن الجزء الرابع من (فتاوى معاصرة) تحت الطبع.

ليحتجوا علي تلك المنظمة الدولية التي تبيح كل شيء، وتذيب الفوارق والجمارك بين الناس، وتضغط علي الدول الضعيفة لمصلحة الدول القوية.. إلخ. خرج الناس في (سياتل) واستطاعوا أن يعطلوا اجتماع ذلك المؤتمر العالمي، ولم يقل أحد إن هؤلاء غوغاء.. دهماء.. مأجورون.. يحركهم غيرهم. كذلك فعلوا في (واشنطن) وفي (باريس) وفي غيرها.

إن من حق الناس أن تغضب لدينها، خصوصاً الطلبة في الجامعات، هم أوعي الناس بهذه القضايا، وهم الذين يحملون الروح الثورية، هم الذين يتأججون من داخلهم، فمن حقهم أن يقولوا: لا، دون أن يدخلوا في تخريب أو يُستغلوا من الآخرين.

إنفاق مال الدولة علي السَّفَه:

ماذا أستطيع أن أقول – أيها الإخوة – أمام هذا الحدث؟ قد كان يمكننا أن نتغاضي عنه لو أن هذه الرواية نشرت باسم صاحبها، أو علي نفقته، أو حتي علي دار نشر خاصة، أما أن تنشر هذه الرواية مؤسسة من مؤسسات الدولة.. وزارة من وزارات الدولة تطبعها طبعة شعبية وتدعمها بأموالها، ستمائة وتسعون صفحة تُباع بأربعة جنيهات! لتعممها علي الناس جميعا ليقرأوها بثمن رخيص من أموال دافعي الضرائب. الشعب يدفع الضرائب، وهؤلاء يأخذون أموال الضرائب لينفقوها فيما يدمر عقائد الشعب، وقيم الشعب، وأخلاق الشعب، وتقاليد الشعب.

كان يمكننا أن نسكت لو أن هؤلاء نشروا هذه الرواية علي نفقتهم، ويحكم في ذلك القارىء.

وأنا من سياستي ألا أتحدث عن هذه الأشياء لئلا أشهرها. كنت أتمني أن لم يقف المسلمون من رواية سلمان رشدي هذا الموقف الذي نشرها في الآفاق وشهرها في العالمين، وطُبعت منها الملايين، ولكن هكذا يُقدر علينا.

لا يجوز لوزارة تحترم نفسها وتعمل من أجل الشعب: أن تنشر أشياء ضد قيم الشعب وعقائد الشعب ومقدسات الشعب، هذا لا يجوز بحال من الأحوال.

ومن هنا كانت غضبة كل المثقفين المسلمين؛ إلا طائفة للأسف إما إنها جهلت دينها وتراثها، وإما إنها باعت نفسها لما تنتفع به من وراء هذه الوزارة. وأنا أعجب كل العجب لبعض اللجان التي تشكلها الوزارة تدافع عن مثل هذه الرواية الساقطة في مضمونها الساقطة في أساليبها.

من أول هذه الرواية: الشرب والنساء والخمرة، وآخرها كذلك، حتي حينما تزوج الرجل العراقي بفتاته الجزائرية احتفلوا بشرب (الكونياك).

هذه هي السمة العامة في هذه الرواية، ليس فيها خشية لله، ولا توقير له، ولا اعتبار لحسابه، ولا ليوم الجزاء، ولا للجنة والنار، بل هي تسخر من هذا كله. سخرت من هذا في أماكن شتي وفي مواضع كثيرة، من ذلك:

ما جاء أن الرجل كان يقول لتلك المرأة العاهرة التي كان يصف جسدها وصفا مكشوفاً: إن الذي يقف بيني وبينك هو أنفك هذا. قالت: له: وماذا أفعل في أنفي؟ هذا خِلْقَةُ ربي. قال لها: ربك إذن فنان فاشل! يعني لا يحسن التصوير. الله تعالي يقول: ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٤ – التغابن: ٣]، ﴿**خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ [الانفطار: ٧ – ٨]، ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين: ٤]. وهذا يقول عن الله: فنان فاشل!

قالت اللجنة: إنه قال ذلك في مقام الدُعابة والمزاح! ياعجباً، هل هنا مقام دعابة ومزاح؟ الحديث عن الله جل جلاله يدخل فيه المزاح؟! الحديث عندنا يقول: «ثلاث جدّهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والعتاق»[1]، فكيف بالله عز وجل؟ الله تعالي يقول في قوم من أمثال هؤلاء: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ**

(١) رواه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٧١) عن أبي هريرة والترمذي في الطلاق (١١٨٤) وقال: حديث حسن غريب، وقال ابن حجر في تلخيص الحبير: هو رواية عبد الرحمن بن حبيب ابن أدرك، وهو مختلف فيه، قال النسائي: منكر الحديث، ووثقه غيره، فهو على هذا حسن. (٤ / ١٢٥٠)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٨٢٩)، ولشيخنا القرضاوي كلام طويل على هذا الحديث في كتاب (تيسير الفقه للمسلم المعاصر) ص٥٣ .

إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٥ - ٦٦] قد كفرتم بهذا الاستهزاء بعد إيمانكم. ليس هناك دُعابة ومزاح في شأن الله عز وجل.

بل يقول هذا الإنسان في بعض مقاطع روايته : هؤلاء الناس يعيدوننا إلي الوراء مليون عام، هؤلاء الناس الذين يحكموننا بآلهة البدو وتعاليم القرآن في عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر هؤلاء (خرِاء) ! مضطر أن أقول هذه الكلمة السخيفة. وكلمة (آلهة) تتردد كثيراً في كلام هذا الكاتب، إنه لا يؤمن بإله واحد، هناك آلهة، ويقول هنا : آلهة البدو، أي أن الله خالق السموات والأرض هو إله من آلهة البدو ورثناه نحن عن بدو العرب، وجاء به محمد من بدو العرب ! .

وأحب أن أذكر أيها الإخوة أن الأمر قد فصل فيه مجمع البحوث الإسلامية. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فصل في هذا الأمر وأصدر قراره، وهو الجهة العليا المتخصصة في هذا الأمر بحكم قانون تأسيسه، وبحكم فتوي مجلس الدولة التي صدرت سنة ١٩٩٤م، وجعلت من شأن الأزهر النظر في المؤلفات والمصنفات وإعطاء حق الترخيص أو رفض الترخيص لها، لأن كل ما يتعلق بالشأن الإسلامي هو من اختصاص الأزهر.

بيان الأزهر حول الرواية :

هذا الأزهر أصدر أول أمس بيانه الذي أعلنه شيخ الأزهر الشيخ محمد سيد طنطاوي بوصفه رئيساً لمجمع البحوث، وقال بعد الديباجة : إنه كلف اثنين من أعضائه المتخصصين بكتابة تقريرين منفصلين عن هذه الرواية، وعُرض هذان التقريران علي المجمع في جلسة استثنائية ثم قرر إصدار هذا البيان :

أولاً : إن وزارة الثقافة التي نشرت هذه الرواية لم تستطلع رأي الأزهر الشريف أو مجمع البحوث الإسلامية؛ مع ماورد فيها من أمور كثيرة تتصل بالإسلام والعقيدة والشريعة. يعني : الأزهر لا يطلب أن تعرض عليه كل رواية

ولا كل قصة، إنما قصة فيها الحديث عن الدين والألوهية والكتب واليوم الآخر والأخلاق في مواضع شتي أظن أن وزارة مسئولة لا يخفي عليها أن مثل هذا ينبغي أن يُستشار فيه الأزهر ويؤخذ رأيه.

ثانياً: إن الرواية مليئة بالألفاظ والعبارات التي تحقر وتهين جميع المقدسات الدينية؛ بما في ذلك ذات الله سبحانه وتعالي والرسول ﷺ والقرآن الكريم واليوم الآخر والقيم الدينية، ومن ذلك أنها تستهزيء بذات الله مثل وصفه بأنه فنان فاشل (ص٢١٩ ط. المصرية)، وأنه نسي بعض مخلوقاته في الأهوار وغيرها من تراكم مشاغله، التي لا تُعد في بلاد العرب وغيرها (ص٢٥٧)، وأنه أقام مملكته الوهمية في فراغ السموات ليدخل في خلود ذاته بذاته (ص٤٢٦). كما يفتري علي الرسول ﷺ بأنه تزوج أكثر من عشرين امرأة ما بين شرعية وخليلة ومتعة، وأنه كان يتزوج من عذاري القبائل بُغية توحيدها (ص٤٣٦ - ٤٣٧). وأنه حرف في آيات القرآن الكريم ونسب إليه ما ليس منه كقوله: والله تعالي قال في كتابه: إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا.

كما أن الرواية تحرض صراحة علي الخروج عن الشريعة الإسلامية، وعدم التمسك بأحكامها، وذلك بالدعوة إلي ضرورة الانفصال عن الدين والله والأخلاق والتقاليد والأزمنة الموحلة والجنة والجحيم الخرافيين وطاعة أولي الأمر والوالدين والزواج المبارك بالشرع -- يجب الخروج علي هذا كله - وسائر الأكاذيب والطقوس التي رسمتها ظهور الكذب (هذه عبارة الكاتب ص٣٤٨).

ثالثاً: إن الرواية خرجت عن الآداب العامة خروجاً فاضحاً، وذلك بالدعوة إلي الجنس غير المشروع، واستعمال الألفاظ في الوقاع وأعضائه الجنسية للذكر والأنثي بلا حياء، مما يعف اللسان عن ذكرها وكتابة نصها حفظاً علي الحياء العام الذي انتهكته الرواية.

رابعاً: إن الرواية لم تكتف بذلك، بل حرضت صراحة علي إهانة جميع الحكام العرب موصوفين بأقبح وأقذع الأوصاف، مما يعف المقام عن ذكره.

خامساً: اتضح لمجمع البحوث الإسلامية من كل ما سبق أن ما ورد برواية (وليمة لأعشاب البحر) لمؤلفها (حيدر حيدر) خروج عما هو معلوم من الدين بالضروة، وانتهاك للمقدسات الدينية والشرائع السماوية والآداب العامة والقيم القومية، ونشر الفتن، وزعزعة تماسك وحدة الأمة التي هي الركيزة الأساسية لبناء الدولة.

ويقع علي عاتق من نشروا هذه الرواية دون استطلاع رأي أهل الاختصاص المسئولية الكاملة عن هذا التجاوز والآثار المترتبة عليه دينيا واجتماعيا وذلك علي النحو الموضح تفصيلا بالتقريرين المقدمين من عضوي مجمع البحوث الإسلامية المشار إليهما.

والله ولي التوفيق

شيخ الأزهر

إني من هنا أحي الأزهر، وأحي شيخ الأزهر علي رغم اختلافي معه في قضية الربا وغيرها، وأحي جامعة الأزهر ورئيس جامعة الأزهر، وأحي طلاب الأزهر وطالبات الأزهر، وأحي جريدة الشعب، وأحي الكاتب الإسلامي محمد عباس الذي صرخ في الأمة يقول: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. من يبايعني علي الموت؟ غضب الرجل لدينه، ما غضب لدنيا، وما غضب لمصلحة شخصية، إنما غضب لربه، وربما في غمرة هذا الغضب خرجت منه بعض ألفاظ عن بعض الناس، ولكن الإنسان في حالة غضبه يقول ما قد لا يحُمد في بعض الحالات.

أحي هؤلاء الذين وقفوا ضد هذا الكذب، أحي الشاعر الكبير فاروق جويدة لما كتبه في جريدة الأهرام، أحي المثقفين الشرفاء الذين وقفوا ضد هذا الباطل وضد هذا الفجور الأدبي، أحي كل الذين يحترمون عقائد الأمة ومقدساتها.

أحي كل هؤلاء الناس، وأقف معهم بكل قوتي، أشد أزرهم، وأسند ظهوهم، وأقول الحق لا أخاف في الله لومة لائم.

نداء لرئيس مصر (مبارك):

وننادي من هنا الرجل المسئول الأول في مصر، وهو الذي يستطيع أن يضع حدّاً لهذا الأمر: الرئيس حسني مبارك، أناديه أن يوقف هذه الموجة الثقافية الفاجرة عند حدها، وأن يعيد الثقافة إلي حقيقتها.

لا يجوز أن تنقسم الأمة قسمين: قسم مع الثقافة الغربية أو المستغربة، الصادة عن سبيل الله، والسائرة في ركاب الشيطان. وقسم مع القيم الدينية، مع الله، ومع رسله، ومع كتابه، ومع الربانيين.

لا يجوز أن نقسم الأمة هذه القسمة، وإنما ينبغي أن تسير الأمة وخصوصا في هذا الوقت الذي نعيش فيه في هذا الزمان التعيس الزمان الذي استعلت فيه إسرائيل وبغت فيه وطغت ينبغي في هذا الوقت أن نضم صفوف الأمة بعضها إلي بعض لتقف كالبنيان المرصوص يشد بعضها بعضا.

الكلمة لقائد المسيرة في مصر: الرئيس حسني مبارك، أسأل الله أن يهديه سواء السبيل، وأن يوفقه لموقف الحق الذي لا يخاف في الله لومة لائم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالي لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجيب لكم.

* * *

الخطبة الثانية:

حول الخلاف بين الترابي والبشير في السودان:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا أستطيع وإن كنت مهموماً بهذا الهم الثقافي الذي شغلنا طوال هذه المدة، وبهذا الأمر الذي لا يُعتبر في الحقيقة من الثقافة وإنما هو من السخافة، ولا يعتبر من الأدب بل هو من قلة الأدب، لا أستطيع وأنا مشغول بهذا الأمر أن أنسي هموماً أخري من هموم هذه الأمة.

وأول هذه الهموم التي أرقتني في ليلي، ونغصت علي نهاري، هو: هم إخوتنا في السودان. هؤلاء الإخوة الذين احتضنوا المشروع الإسلامي في السودان، وأقاموا تجربة فذة، يعلمون فيها الناس أن يأكلوا مما يزرعون، وأن يلبسوا مما يصنعون، وأن يستهلكوا مما ينتجون، ووسعوا آفاق التعاليم الإسلامية لتربي الشخصية المسلمة علي أساس من الإسلام، وأنشأوا جيش الدفاع الشعبي من الشباب المتطوع ليقف أمام الدبابات بروحه.. بنفسه، قالوا: إذا كان هؤلاء الذين تؤيدهم أمريكا والدول الغربية معهم دبابات فإن عندنا (دبابين). وقف الشباب الذين سموا أنفسهم (الدبابين) بأرواحهم.. بأكفهم.. برؤوسهم أمام الدبابات، وقف (الدبابون) أمام الدبابات.

هذه الثورة الإسلامية تتعرض الآن لمحنة أي محنة، ولفتنة أي فتنة، فتنة الاختلاف والتفرق وفساد ذات البين، وهذه مصيبة أيها الإخوة: أن الذين وقفوا صفاً واحداً بالأمس يختلفون اليوم ويتفرقون شذر مذر، هذه مصيبتنا.

فعلنا ذلك في أفغانستان، الذين حاربوا السوفيت.. حاربوا الطيارات من الجو والدبابات في البر.. حاربوا أكثر من مائة ألف جندي بأسلحتهم الحديثة المتطورة وانتصروا عليهم، هؤلاء لم ينتصروا علي أنفسهم، وظلوا يتقاتلون بعضهم بعضا، وإلي اليوم لم تنته المشكلة وإن كنا نري بشائر نسأل الله أن تتم إلي خير.

لماذا نحسن أن نموت في سبيل الله ولا نحسن أن نعيش معاً في سبيل الله؟ في حالة الجهاد والموت نقدم أرواحنا، فإذا ما أردنا أن نعيش معاً اختلفنا وتفرقنا! ألا يوجد عندنا معايير نحتكم إليها ونرجع إليها عندما نختلف؟ ألا نستطيع أن نقيم من الآليات ما يجعلنا يرد بعضنا علي بعض ويحاور بعضنا بعضا ثم نحكم الأغلبية؟ لماذا لم نستطع أن نفعل ما يفعله الغربيون؟ الغربيون يختلف بعضهم مع بعض، ويعارض بعضهم البعض، ولكنهم لم يفعلوا ما نفعل نحن المسلمين.

إن ما يجري في السودان الآن يتقطع له قلبي زفرات، وتذهب نفسي عليه

حسرات، وتترقرق عيني له عبرات. إن ما يجري في السودان يفتت الأكباد، ويقطع نياط الفؤاد.

إن الخلاف شر، والفرقة فتنة، والله تعالي يقول: ﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٤٦].

لقد قالوا: إن الثورات كثيرا ما تأكل أبنائها. ولكن كيف يكون الحال إذا أكلت الثورات آباءها؟ إذا أكلت الثورة آباءها ماذا بقي؟

إننا نهيب بأبناء الثورة الإسلامية في السودان أن يتقوا الله في أنفسهم، ويتقوا الله في مشروعهم، ويتقوا الله في المسلمين في العالم الذين طالما نُكبوا بما يرون من خسار المشروعات الإسلامية واحداً بعد الآخر. إنني أهيب بالإخوة في السودان أن يتقوا الله في ذلك.

وأنا ذاهب إلي السودان إن شاء الله، وبعض الإخوة قالوا لي: لا داعي لأن تذهب، لقد أعلن البشير أنه لا يقبل الوساطة، وأعلن الترابي أن أحداً لا يقبل الوساطة، فلماذا تذهب؟ ولكني أذهب استجابة لقول الله تعالي: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [الانفال: ١]. والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلي يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[١] وفي رواية: «لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث صحيح، وابن حبان في صحيحه، عن أبي الدرداء رضي الله عنه (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوي: ٢/٧٣٨ برقم ١٦٩٥). ورواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩) عن أبي الدرداء، والترمذي في البر والصلة (٢٥١١) وابن حبان في صحيحه (٥٠٩٢)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرطهما. وانظر المنتقي للقرضاوي (١٦٩٥).

إننا نريد أن لا تحدث هذ الحالقة، وأن يصلح الله ذات بَيْنِ الإخوة هناك، وأن يهزم الشيطان الذي يريد أن يفرق جماعتهم ويشتت شملهم، والله سبحانه وتعالي يقول: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، والنبي ﷺ يقول: « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا »[١].

عباد الله، يقول الله تبارك وتعالي: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اللهم صلّ وسلّم وبارك علي عبدك ورسولك محمد، وعلي آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين.

﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

(١) رواه البخاري في الخصومات (٢٤١٠) عن عبد الله بن مسعود.

(١٧)

الأمة الإسلامية: حقيقة لا وهم[1]

الخطبة الأولي:

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون:

يسعي الإسلام في أحكامه وشرائعه وتوجيهاته إلي تكوين الإنسان الصالح، وتكوين الأمة الصالحة، وحديثنا اليوم عن الأمة التي يكونها الإسلام.

الإسلام لا يكتفي بأن ينشيء فردا صالحا في نفسه، داعيا لغيره، ولكنه يسعي إلي أن تكون هناك أمة تحمل رسالته إلي العالمين، تشيع رحمة الله العامة في الناس جميعا، يعيش الفرد المسلم في ظلالها ملتزما بالإسلام عقيدة وعبادة ومنهاجا للحياة. الأمة التي يريدها الإسلام أمة واحدة، فالإسلام يسعي إلي توحيد المعبود، وتوحيد العابدين، يقول الله تعالي: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَي النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران ١١٠].

أمة واحدة ذات شعوب متعددة، كذلك قال الله تعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات: ١٣]، لهذا لا يحسن أن نقول: الأمم الإسلامية ولكن نقول الأمة الإسلامية، والشعوب الإسلامية.

---

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، في يوم الجمعة ٧ من شعبان سنة ١٤٢٤هـ - الموافق ٣ من أكتوبر سنة ٢٠٠٣م.

الأمة إسلامية حقيقة لا وهم :

هناك أناس يمارون في هذه الحقيقة ويقولون : لا توجد أمة إسلامية، ولكن توجد أمة عربية، وأمة تركية، وأمة كردية، وأمة إيرانية، وأمة ماليزية. وأمة هندية، إلي آخر هذه الأمم. ونحن نقول : إن الأمة الإسلامية حقيقة وليست وهما.

أمة بمنطق الدين :

هي حقيقة دينية، فإن الله سبحانه وتعالي سمّي المسلمين حيثما كانوا - عربا كانوا أم عجما، بيضا كانوا أو سودا، في مشرق أو مغرب - سماهم أمة، أمة وسطا، خير أمة أخرجت للناس، هذه الأمة صنعها الله، الله هو الذي جعلها، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً ﴾ [البقرة : ١٤٣]، أمة أخرجت للناس، أخرجها مخرج، الله الذي أخرجها لتهدي الناس، وتنفع الناس، وتخرج الناس من الظلمات إلي النور، الله سماها أمة، هذه الأمة أمة بمنطق الدين.(١)

دعوة الدين المسلمين للوحدة :

فالدين هو الذي جعلها أمة، وأمرها بالوحدة، ونهاها عن التفرق والتنازع، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣]، ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥]، لا تكونوا من المشركين ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٢]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩].

عوامل تقوية الوحدة بين المسلمين :

المسلمون ينبغي أن يكونوا أمة واحدة، هكذا أراد الله لهم، ولم لا تكون

---

(١) لمزيد من التفصيل حول : حقيقية وجود الأمة الإسلامية، انظر : (الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم) للدكتور القرضاوي. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

الأمة أمة واحدة وربها واحد؟! ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء : ٩٢]، ﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [المؤمنون : ٥٢]، كأنما يشير إلي أنه لا تتم العبادة، ولا تكمل التقوي إلا بالتوحد، فربها واحد، ورسولها واحد، رسولها محمد صلي الله عليه وسلم، كلها تعلن هاتين الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، تسمعها كل يوم في أذانها خمس مرات، وفي إقامتها للصلوات، وفي تشهدها: التحيات لله، والصلوات والطيبات: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله. رسولها محمد يجسد الكمال الإنساني الذي جعله الله أسوة ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الأحزاب : ٢١].

عامل المرجعية الربانية الواحدة:

كتابها واحد، القرآن الكريم، يجمعها جميعا كتاب الله، لا يختلف في ذلك اثنان، السنة والشيعة، كلها تقول: ما بين الدفتين كلام الله، من سورة الفاتحة إلي سورة الناس، لا خلاف بين مسلم ومسلم أن هذا كله كلام الله الذي ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت : ٤٢]، إذا كان هناك بعض الشيعة يقولون: هناك زيادات، فهذا يرده المحققون منهم،[1] ويكفي أن المصحف الذي يطبع في قطر، ويطبع في السعودية، ويطبع في مصر، ويطبع في باكستان، هو نفسه الذي يطبع في إيران، هذا المصحف مرجع المسلمين جميعا، كتابهم واحد.

كل الكتب حرّفت وبدّلت وغيّرت تغييرا لفظيا، وتغييرا معنويا، إلا القرآن، ولا يمكن أن يضيع هذا القرآن، أو يحرف أو يبدل، وهناك الألوف، وعشرات الألوف، ومئات الألوف يحفظون القرآن، يحفظونه في صدورهم لا يخرمون منه حرفا، ولا يسقطون منه كلمة، حتي رأينا عجبا، رأينا الأعاجم

---

(١) ناقش أستاذنا الشيخ القرضاوي هذه المقولة، نقاشا مستفيضا، أتي فيها بنقول معتبرة عند أئمة الشيعة وفقهائهم، ترد هذا الكلام، انظر كلامه في: (مباديء في الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية) ضمن مجموعة رسائل ترشيد الصحوة. طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

الذين لا يفهمون كلمة من العربية يحفظون هذا القرآن، كأن أحدهم شريط مسجل لا يسقط منه كلمة واحدة، ولو سألته: ما اسمك؟ لا يستطيع أن يجيبك، لأنه لا يعرف معني سؤالك باللغة العربية.

الله حفظ هذا القرآن، فهذه الأمة ربها واحد، ونبيها واحد، وكتابها واحد وقبلتها واحدة، كلها تتجة كل يوم خمس مرات إلي البيت الحرام ﴿ **وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ [البقرة: ١٥٠]، بعض الغربيين تخّيل أن يرسم للمسلمين صورة حول الكعبة المشرفة، فقال: لو اطلع واحد من فوق، ونظر إلي المسلمين في أنحاء العالم، وجدهم دوائر دوائر، حول الكعبة تتسع الدائرة ثم تتسع كلما بعدت عن البيت العتيق حتي تشمل العالم كله، نعم المسلمون في كل مكان دوائر حول الكعبة، الكعبة تجمعهم، ولا غرو أن سمي المسلمون أهل القبلة، فقبلتهم واحدة.

عامل وحدة الشريعة:

المسلمون أيضا شريعتهم واحدة، الشريعة التي يحتكمون إليها كلهم شريعة واحدة، إذا سأل المسلم عن الحلال والحرام، عما يجوز وما لا يجوز، يرجع إلي الشريعة، وإلي أحكام الشريعة، وإلي علماء الشريعة ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣].

عامل وحدة الشعائر العبادية:

الشعائر العباديج للمسلمين واحدة: الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج، كلها واحدة، إذا أذن المؤذن في أي بلد من البلاد، حي علي الصلاة، حي علي الفلاح، سارع المسلم - كان في اسيا في أفريقيا في أوروبا في أمريكا في استراليا - بالاستجابة لنداء الله، ووقف الناس في المساجد صفوفا صفوفا، زالت بينهم الفوارق، كان الشيخ عبد المعز عبد الستار - حفظه الله - يسمي المساجد: مصانع التوحيد، تصنع التوحيد بين المسلمين، يدخلها الناس أجناسا وألوانا وطبقات، فتصهرهم المساجد ويخرجون منها إخوة متحابين.

انظروا لهذا المسجد[1]، يوجد فيه الكبير والصغير، والغني والفقير، وأستاذ الجامعة والفراش في الجامعة – والوزير والموزور، والأمير والمأمور، هل يفرق بينهم في شيء؟ من سبق إلي مكان فهو أحق به، لا يوجد في المساجد: أن الصف الأول للوزراء، والصف الثاني لوكلاء الوزارات، والصف الثالث لمديري العموم، والصف الرابع لموظفي الدرجة الأولي.. لا، لا توجد هذه التفرقة، هذه المساجد مصانع التوحيد، تصهر المسلمين في بوتقة واحدة، توحد مشاعرهم، وتوحد مسالكهم، وتقفهم جميعا بين يدي الله خاشعين، لا فضل لأبيض علي أسود، ولا لعربي علي عجمي، ولا لغني علي فقير، ولا لمتعلم علي أمّيّ، لا فضل لأحد علي أحد إلا بالتقوي، والتقوي حينما يتفاضلون فيها عند الله، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، الصلاة توحد بين المسلمين.

كل الشعائر تغرس في نفس المسلم هذا المعني، والصيام، حينما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، يمسك المسلمون عن الطعام والشراب والنساء، يجوع أحدهم لله، ويظمأ لله، «يدع طعامه من أجلي، ويدع شرابه من أجلي، ويدع زوجته وشهوته من أجلي»[2]، كل المسلمين في أنحاء الأرض عندما تأتي لحظة الفجر يمسكون عن الطعام، فإذا غربت الشمس وأذن المؤذن: أفطروا جميعا، وحل لهم ما كان محرما عليهم، إنها شعائر واحدة.

الحج من أكثر المظاهر وحدة للأمة:

الحج، يظهر فيه هذا التوحيد أكثر فأكثر، فالناس كثيرا ما يتفرقون بالمظاهر والأزياء والملابس، وبعض البلاد لها أزياء خاصة، وبعض الفئات لها أزياء خاصة، المشايخ لهم زي، والصناع لهم زي..حينما يذهبون إلي الحج يخلعون أزياءهم التي تميز بينهم، ويلبسون ثيابا في غاية السهولة والبساطة والتواضع، أشبه ما تكون

---

(١) راجع ما ذكره فضيلة الشيخ في كتابه: «العبادة في الإسلام» تحت عنوان: (المسجد ورسالته في الحياة) ص٢٣٦ ولفضيلته كذلك خطبة في الجزء الثالث بعنوان: (رسالة المسجد في الإسلام).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/٢٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بأكفان الموتي، يلبسها الملك، ويلبسها الخفير، يلبسها أغني الناس، وأفقر الناس، كلهم في رداء واحد، وشعور واحد، ونداء واحد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

عامل وحدة الآداب الإسلامية:

المسلمون شريعتهم واحدة وشعائرهم واحدة، وآدابهم واحدة، حيثما لقيت المسلم تقول له: السلام عليكم، فيرد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، إذا أكل المسلم فهو يأكل باليمين، يبدأ طعامه: باسم الله، ويختمه: بالحمد لله، لا يأكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير، آداب مشتركة، حتي إذا عطس، قال: الحمد لله، وهنا تقول له: يرحمك الله، ويرد عليك: يهديكم الله ويصلح بالكم.(١)

وحدة المنهج والغاية:

آداب واحدة، منهج واحد، غاية واحدة، الغاية هي الله، ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] والمنهج واحد هو ما شرعه الإسلام من أحكام وقيم وآداب في العبادات والمعاملات والسلوكيات، ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، هذه هي الأمة الإسلامية.

أمة واحدة بمنطق التاريخ والجغرافيا:

الأمة الإسلامية أمة بمنطق الدين، وهي أمة واحدة كذلك بمنطق التاريخ، ظلت أمة واحدة أكثر من ثلاثة عشر قرنا، مرجعيتها واحدة هي الشريعة، وطنها واحد هو دار الإسلام، قائدها واحد هو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، ظل هذا مرعيا إلي سنة ١٩٢٤م حينما ألغي الخلافة الإسلامية – التي تجمع المسلمين تحت

(١) رواه عن أبي هريرة: أحمد (٢/٣٥٣) والبخاري (٦٢٢٤) والترمذي (٢٧٣٩) وأبو داود (٥٠٣٣). ورواه عن علي بن أبي طالب: أحمد (١/١٢٠) وابن ماجة (٣٧١٥). ورواه عن أبي موسي الأشعري: أحمد (٤/٤٠٠).

راية العقيدة – الطاغية كمال أتاتورك، منطق التاريخ يقول: المسلمون كانوا أمة واحدة.

ومنطق الجغرافيا يؤكد هذه الحقيقة، انظر إلي الخريطة تجد العالم الإسلامي جغرافيا متصلا بعضه ببعض، رقعة متواصلة، لأن الإسلام كان يمتد امتدادا طبيعيا من بلد إلي بلد يزحف كما يزحف النور، فهي أمة بمنطق الجغرافيا.

أمة واحدة بمنطق المصير المشترك:

بمنطق المصلحة المشتركة، والمصير المشترك، هي أمة واحدة، المصلحة المشتركة تحتم عليها أن تكون أمة واحدة، وخصوصا: أن أعداءها ينظرون إليها باعتبارها أمة واحدة، الآن الحرب التي تشن علي المسلمين، تشن علي المسلمين جميعا، لا فرق بين سني وشيعي، هم ينظرون إلي إيران كما ينظرون إلي السعودية، هم يريدون تغيير المنطقة كلها، تغيير المنظومة القيمية في المنطقة بحيث نفكر كما يفكر الأمريكان، ونشعر كما يشعر الأمريكان، ونسلك كما يسلك الأمريكان، ولايوجد من يخالف الثقافة الأمريكية، والسياسة الأمريكية، والسلوك الأمريكي، لا يريدون أن يؤمنوا بظاهرة التنوع، وظاهرة التنوع ظاهرة كونية، اختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا** ﴾ يعني متنوعة ﴿ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ** ﴾
[فاطر: ٢٧ – ٢٨]

اختلاف الأنواع، فالتنوع ظاهرة كونية، هؤلاء يريدون أن يقاوموا سنن الله في الحياة، وفي الكون، وفي الإنسان، يريدون أن يصهروا الناس جميعاً ليكونوا أمريكيين، أمريكيين في الفكر، وأمريكيين في الثقافة، وأمريكيين في الاتجاه وفي السلوك، والله خلق الناس مختلفين ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩]، قال المفسرون: (لذلك) أي: للاختلاف خلقهم، لأنه خلقهم متغايرين في الفكر، ومتغايرين في الإرادة، فلابد أن تختلف اتجاهاتهم، لو شاء الله لجعلهم

نسخة واحدة مثل الملائكة إنما أعطاهم الله حرية الاختيار، وحرية العقل والتفكير، فلابد أن يختلفوا.

هؤلاء لا يؤمنون باختلاف الناس، يريدون أن يطبعوا الناس بطابع واحد، المسلمون حينما كانوا أقوي أمة في الأرض، حينما كان يقول الخليفة[1] للسحابة: شرقي أو غربي، وأمطري حيث شئت، فسيأتيني خراجك. لم يفرضوا علي الناس أن يكونوا نوعا واحدا، لم يفرضوا عليهم دينهم، ولم يفرضوا عليهم ثقافتهم وفلسفتهم، إلا إذا قبلها الناس من أنفسهم، وشاركت في بناء الحضارة الإسلامية ثقافات وأجناس شتي من الأمم، شاركت في هذه الحضارة وبقوا علي دينهم، وعلي فلسفاتهم، وعلي مذاهبهم، وعلي ثقافاتهم المختلفة، هؤلاء لا يقبلون ذلك، يريدون أن يسير الناس كلهم قطيعا واحدا وراء هذا الراعي الذي يمسك بعصاه، ولا يسمح لأحد أن يخرج عن هذا القطيع!

الأمة مصيرها واحد، هكذا تقول الأحداث، وهكذا يقول الأعداء أنفسهم، الدولة الصهيونية تنظر إلي إيران، وإلي باكستان، وإلي أفغانستان، وإلي إندونيسيا، كما تنظر إلي بلاد العرب بجوارها، وتري أن قوة المسلمين في أي بلد خطر عليها. وهكذا رأينا نظرة الأمريكان إلي الجميع.

أمة واحدة بمنطق الآلام والآمال والمصالح المشتركة:

المسلمون أمة واحدة، بمنطق أعدائنا، بمنطق المصير المشترك للجميع، وهي أمة بمنطق الآلام المشتركة، والآمال المشتركة، والمصالح المشتركة، كل هذا يحتم علي المسلمين أن يتحد بعضهم مع بعض، وأن يتلاحم بعضهم مع بعض، وأن يتكتل بعضهم مع بعض، العالم في عصرنا يتكلم بلغة التكتل، لا مكان في عالمنا المعاصر للكيانات الصغيرة، الكيانات الصغيرة لا تستطيع أن تعيش، إلا إذا اعتمدت علي غيرها، وإنما تعيش فيه الكتل الكبيرة، ولذلك نري الناس يتناسون خلافاتهم ويتجمعون.

---

(١) القائل: هارون الرشيد الخليفة العباسي.

للأسف نري العالم كله يتقارب والمسلمين وحدهم يتباعدون، الكاثوليك والبروتستانت الذين جرت بينهم حروب رهيبة، ومجازر سقط فيها مئات الألوف، وربما ملايين من الناس علي توالي العصور، أرادوا أن يتقاربوا وينسوا هذا التاريخ(١).

حتي اليهود والنصاري، كان اليهود أعداء النصاري طوال التاريخ، واليهود كانوا متهمين بأنهم شاركوا بل قاموا بالدور الأول والأكبر في تقديم المسيح للقتل والصلب يقينا، أو في قتل المسيح وصلب المسيح كما يعتقد النصاري، ولكنهم منذ عدة سنين أصدر الفاتيكان وثيقة لتبرئة اليهود من دم المسيح، يتقربون إلي اليهود! الناس يتقاربون دينيا، ويتقاربون أيديولوجيا.

رأينا في أيام الصراع بين السوفيت والمعسكر الغربي ما يسمونه التعايش السلمي، تقارب بعضهم مع بعض، المصلحة اقتضت هذا.

الآن أوروبا كوّنت من بين دولها اتحادا، رغم ما كان بينها من صراعات. من يقرأ تاريخ أوروبا في القرون الأخيرة يجد حروبا دموية، قتل فيها من قتل، وسفكت فيها دماء، وأزهقت أرواح، وخربت ديار، بدوافع دينية أحيانا، ودوافع قومية أحيانا، ودوافع مصلحية وسياسية أحيانا، وآخر هذا الصراع: الحربان العالميتان في النصف الأول من القرن العشرين؛ اللتان قتل فيهما ملايين بل عشرات الملايين، ثم رأت أوروبا: أن من المصلحة لجميع دولها: أن تتكتل ويتضام بعضها إلي بعض، وتتلاحم في صورة اتحاد قوي صار له وزنه وشأنه، وأن ينسوا المآسي الماضية، والخلافات السابقة، هكذا رأي القوم، هذا هو شأن العقلاء.

مؤامرات الأعداء لغرس داء الفُرْقة بين المسلمين:

أما نحن المسلمين، فنحن وحدنا الذين نجتر الخلافات الماضية، ونحاول دائما أن نشعل النار، وأن نصب الزيت علي النار، وأعداؤنا يستغلون نقطة الضعف هذه، فيثيرون بيننا دائما ما يفرق الجمع، وما يبعث الفتن بين بعضنا وبعض.

---

(١) راجع ما ذكره العلامة: رحمة الله الهندي، في كتابه إظهار الحق (ح٢/٥٠٩) وما بعدها طبعة إحياء التراث الإسلامي في قطر.

في بعض البلاد يثيرون الخلافات الدينية، مثل: مصر، يقولون: مسلمون وأقباط. وأحيانا يثيرون خلافات جغرافية، مثل: السودان، يقولون: الشمال والجنوب. وأحيانا خلافات عرقية كما في الجزائر، والمغرب: عرب وبربر، أو عرب وأكراد في العراق. وأحيانا يثيرون خلافات مذهبية سنية وشيعية، وأحيانا خلافات إيديولوجية، مثل: ثوريين ورجعيين، أو يمينيين ويساريين.. الخ. لابد أن يثيروا ما يفرق بين الأمة بعضها وبعض، وكل تفرقة هي لصالحهم، وليست في صالحنا، هم يفرقون ليسودوا، ويمزقون ليأكلوا، (فرّق تسد)، شعار معروف عندهم من قديم، لا تستطيع أن تأكل الرغيف لقمة واحدة، إنما تقطع الرغيف لقما لقما لتزدرده وتبتلعه بسهولة، هكذا يفعلون بنا، ونحن نستجيب.

الأمة الإسلامية ينبغي أن تعرف هذا الأمر، وتعرف لغة العالم اليوم، لو لم يوجب عليها دينها أن تعتصم بحبل الله جميعا ولا تتفرق، وألا تتنازع فتفشل، وتذهب ريحها، كما قال القرآن الكريم: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦] وكما قال النبي ﷺ: «لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[(١)]، لو لم يوجب الدين ذلك لأوجبته المصالح المشتركة، والمصير المشترك، ولأوجبه منطق العصر.

تلاحم الأمة فريضة وضرورة:

إن تلاحم الأمة فيما بينها فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، نقول هذا للعرب وللمسلمين في كل مكان، دعوا الأمور التي تفرق بينكم، واذكروا ما يجمعكم دائما، اذكروا الجوامع المشتركة، القواسم المشتركة بينكم وهي كثيرة، خصوصا أننا في محنة، الناس إذا كانوا في عافية وفي رخاء وفي أيام انتصارات ربما جاز لهم أن يختلفوا، وإن كان هذا ليس مطلوبا، ولا مقبولا في أي عصر، أما الذين يعيشون في الشدائد والمحن الكبرى، والمصائب المتلاحقة، وتصوب إليهم السهام من كل جانب، هؤلاء لا يجوز لهم أبدا أن يتفرقوا، لابد أن يقف بعضهم بجوار بعض، عندما تقوم المعركة يجب أن

(١) رواه البخاري في الخصومات (٢٤١٠) عن عبد الله بن مسعود.

نسقط الخلافات الجانبية، وننسي المعارك الجزئية، ولا يبقي إلا صوت المعركة عاليا، كما قال الله تعالي: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤].

نداء لعقلاء السنة والشيعة:

إن هناك فتنا تريد أن تمزق هذه الأمة، هناك في العراق الآن يريدون أن يثيروا فتنة بين السنة والشيعة، ونحن نحذر المسلمين جميعا – سنة كانوا أم شيعة: أن يستجيبوا لوساوس الشياطين، شياطين الإنس وشياطين الجن، يجب أن يعلوا علي هذه الوسوسات التي تدمر الجميع، فالفرقة دمار علي الجميع، هم يريدونها حربا دينية، لم يكتفوا بالحرب التي وقعت بين إيران والعراق وظلت سنين طويلة، ولكن كان طابع هذه الحرب قوميا، كأنها حرب بين العرب والفرس، ولكن الآن يريدونها حربا دينية صريحة، سنة وشيعة، يجب أن يقاتل بعضهم بعضا، ويجب أيها الإخوة: أن نحبط مكرهم، ونفوت عليهم الفرصة.

أنادي العقلاء: ألا يستجيبوا للمهاويس والمجانين من هؤلاء أو هؤلاء، ويشعلوا النار، ويتيحوا الفرصة لأعداء الأمة، يجب أن يقف العراق صفا واحدا ليحرر أرضه، ويعيش مستقلا، ويطرد الاحتلال، هذا ما يجب علي الأمة جميعا، ويجب علينا أن نساندهم فيه.

محاولة ضرب الفلسطينيين بعضهم ببعض:

هناك محاولة لضرب الفلسطينيين بعضهم ببعض، السلطة في ناحية، والمقاومة في ناحية أخري، وقد نصبوا لهم فخًّا – شركا مكيدة – هي ما سموه: خارطة الطريق، واشترطوا فيها: تصفية المقاومة، وجمع السلاح، وهو شرط عجيب جدا، معناه: أن يقاتل الفلسطينيون بعضهم بعضا، بدل أن يقاتل الفلسطيني المحتل الذي يحتل أرضه، ويدمر بيته، ويقتل أباه وأخاه وابنه وزجته، بدل أن تتجه الرصاصات إلي صدر العدو المحتل تتجه إلي صدر أخيه!

وهذا ما نحذر منه الفلسطينيين، وهم إلي الآن أدركوا المكيدة، ووقفوا لها،

ويجب أن يظلوا علي هذه الحكمة، وعلي هذه اليقظة، ولا يسمحوا لأنفسهم يوما أن يضرب بعضهم بعضا، النبي عليه الصلاة والسلام قال في حجة الوداع: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[1]، هذا شأن الكفار شأن أهل الجاهلية، كانوا يضربون بعضهم رقاب بعض ووجوه بعض، أما المسلم فهو أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ولا يتخلي عنه، بل يفديه بنفسه، يعرض صدره للرصاص ليحمي أخاه، ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ١٠].

لماذا يجب أن نتوحد؟

المسلمون أمة هكذا أراد الله لهم، أمة وسطا، خير أمة أخرجت للناس، أمة واحدة، وحّدت بينها الغايات، والمناهج، والعقائد والشرائع والقيم، والعبادات والمعاملات والآداب، وحدت بينها المصالح والمصاير، والآلام والآمال، وحدها الأعداء، فهم ينظرون إليها باعتبارها أمة واحدة، من الدار البيضاء إلي جاكرتا، إسرائيل تكيد كيدها لباكستان، لماذا؟ لأنها أصبحت تملك مفاعلا نوويا كما تملك هي، ولكن لا يجوز للمسلمين أن يملكوا مفاعلا نوويا، أو قنبلة نووية، إسرائيل تعامل باكستان كما تعامل البلاد العربية، هم ينظرون إلي هذه الأمة واحدة، فينبغي أيها الإخوة أن يضع كل منا يده في يد أخيه، وألا نسمح لمن يفرق بيننا، قد نختلف في أشياء كثيرة، ولكن نتعاون فيما اتفقنا عليه ونتسامح فيما اختلفنا فيه ونقف في المعركة صفا واحدا، وإلا كان هناك خطر كبير: أن يجتمع أعداؤنا، ونتفرق نحن، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالي: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٣][2].

---

(١) رواه البخاري في العلم (١٢١) عن جرير بن عبد الله. ورواه البخاري في مواضع أخري كثيرة، وعن أكثر من صحابي.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) للدكتور القرضاوي نشر دار الشروق. و(كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف؟) للدكتور القرضاوي. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

انتفاضة الأقصى في سنتها الرابعة:

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون: دخلت الانتفاضة - انتقاضة الأقصى المباركة - في سنتها الرابعة، كان السفاح شارون قد أخذ علي نفسه وعلي حكومته عهدا: أن يقضي علي هذه الانتفاضة، ويقضي علي المقاومة المؤمنة الباسلة في حدود ١٠٠ يوم، ومضت مائة ومائة ومائة ومئات ومئات، ولكن الانتفاضة لم تنته، الانتفاضة بقيت شامخة، بقيت صامدة، بقيت كالجبل الأشم، بقيت تزأر كما يزأر الأسد الهصور، بقيت تقول لهؤلاء الطغاة الظالمين: نحن هنا، لن نستسلم، لن نركع لكم، لن نهن، ولن نستكين أبدا، إنما نركع لله ونسجد لله، علمنا الله تعالي: أن نرفع جباهنا فلا نسجد إلا له في الصلاة، ولا تركع الظهور ولا تنحني إلا له.

بقيت هذه الانتفاضة يقودها الأبطال، تبذل كل يوم من الأرواح ومن الدماء، ما يجعلنا نقول لهذا الشعب البطل: مرحي مرحي، هذا الشعب الذي لا يملك الصواريخ ولا الدبابات ولا المروحيات كما تملكها إسرائيل، إنما يملك رجالا مؤمنين، يملك شبابا باعوا أنفسهم لله، وضعوا رؤوسهم علي أكفهم، وأرواحهم بأيديهم وقدموها رخيصة في سبيل الله ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

هؤلاء الشباب المؤمنون الذين لا يبالون أوقعوا علي الموت أم وقع الموت عليهم، هم الذين دوّخوا الصهاينة، دوّخوا هذا الكيان المغتصب الظالم المغرور بقوته وبسلطانه وبترسانته النووية والكيماوية وغيرها، هؤلاء الشباب يجب أن نحييهم، يجب أن نحيي هؤلاء الأبطال، يجب أن نحيي هذا الشيخ القعيد الأشلّ المريض الشيخ أحمد ياسين، الذي زلزل أركان الظالمين، يجب أن نحييه

ونحيي إخوانه الذين قتلوا منهم من قتلوا: ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

حاولوا أن يقتلوا الشيخ، وحاولوا أن يقتلوا الدكتور الرنتيسي[١]، والدكتور الزهار، كما حاولوا من قبل أن يقتلوا خالد مشعل، وقتلوا إسماعيل أبو شنب، وقتلوا الكثيرين، كما قتلوا يحيي عياش، وفتحي الشقاقي والكثيرين من أبناء حماس، ومن أبناء الجهاد الإسلامي، ومن كتائب الأقصي، نحيي هؤلاء، نحييهم ونقف من ورائهم، وإن كنا لا نستطيع – للأسف – أن نصل إليهم لنشد أزرهم، ونشارك معهم، فالأبواب مغلقة، والطرق مسدودة، لا يستطيع مسلم يغلي صدره كما يغلي المرجل فوق النار من الحماس والاشتياق إلي الجهاد والشهادة، ولا يستطيع أن يصل إلي إخوته هؤلاء، هكذا نعيش في هذا الوقت.

لكننا نملك أن نبعث إليهم بما نستطيع من أموال، وإن كان الآن سدوا الطريق علي الأعمال الخيرية، لا يسمحون بتحويل أي أموال إلي هؤلاء، كأنما يريدون أن يموت هذا الشعب جوعا، الأموال التي تذهب لتطعم الجائع، وتكسو العريان، وتداوي المريض، وتؤوي المشرد، وتكفل اليتيم، وترمم المهدوم، وتعالج المحروق، هذه الأموال ممنوع أن تصل إلي هؤلاء، حتي إن بعض البلاد العربية جمد أموال حماس في بنوكها وفي مصارفها، يا للعار ويا للشنار.

صراع صهيوني فلسطيني!:

علينا أن نعمل ما نستطيع لمعونة إخواننا هؤلاء، بخاصة أن الأنظمة الحاكمة قلما تصنع شيئا، قلت لكم في الأسبوع الماضي: إن الصراع الآن لم يعد صراعا عربيا إسرائيليا كما يقال في الصحف وأجهزة الإعلام، فالعرب لم يعودوا يقدمون شيئاً، قدموا سنة ٤٨ ودخلت الجيوش العربية إلي فلسطين، أما الآن فهو صراع صهيوني فلسطيني، إسرائيل ومعها يهود العالم، ومعها أمريكا بقوتها

---

(١) للأسف نجح الإسرائيليون في اغتيال الشيخ أحمد ياسين، والدكتور الرنتيسي، تقبلهما الله في الشهداء والصالحين، وقد رثي الشيخ القرضاوي الشيخ أحمد ياسين في خطبة كاملة في الجزء السادس، فلتراجع.

العسكرية، وقوتها الاقتصادية، وقوتها العلمية والتكنولوجية، وقوتها السياسية، الفلسطينيون شبه العزل من السلاح يقفون وحدهم أمام هذا كله.

ونحن نعتقد: أنهم منصورون، وهم منصورون إن شاء الله، الله تعالي يقول: ﴿ **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [الصافات: ١٧٢- ١٧٣] ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الحج: ٣٨]، نحن نعتقد: أنهم منصورون، وإن هذا الكيان الدخيل الذي زرع في جسم هذه الأمة هو كيان غريب، ودائما الأجسام الغريبة التي تدخل الأجسام لا تستطيع أن تعيش فيها، تطردها قواها الحيوية الداخلية، سنة الله أن أي جسم غريب لابد أن يطارد، وهذا الجسم لن يستمر طويلا ما دام إخوتنا الأبطال في (الجهاد الإسلامي)، وفي (حماس) المجاهدة المرابطة الصامدة، وفي كتائب الأقصي، وفي كل فصائل المقاومة التي ترفض الاستسلام، وترفض الذل والهوان، وتصر علي البقاء عزيزة كريمة، فإما حياة الأعزا السعداء، وإما موت الشهداء، ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ** ﴾ [التوبة: ٥٢].

سيروا إلي الأمام أيها الإخوة، يا أبناء الأقصي، يا أبناء الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، أرض النبوات والمقدسات، اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، نحن معكم بقلوبنا وألسنتنا، ندعو لكم آناء الليل وآناء النهار، ندعو لكم في صلواتنا، وفي خلواتنا، وفي ساعات السَّحَر، ونستعين علي الأعداء بسهام القدر، ودعاء السَّحَر، وكل أشعث أغبر لو أقسم علي الله لأبره.

* * *

(١٨)

بواعث التوبة[١]

الخطبة الأولي:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

النفس الإنسانية أساس الإصلاح:

لازال حديثنا موصولا حول تزكية الأنفس، فالنفس الإنسانية هي أساس الإصلاح كله: إصلاح الأفراد، وإصلاح الأسر، وإصلاح المجتمعات، وإصلاح الأمم، وإصلاح العالم كله؛ إذا صلحت الأنفس صلحت الحياة. نقطة البداية تبدأ من الفرد إذا لم يصلح الفرد لم يصلح مجتمع، ولم تصلح حكومة، والفرد إنما يصلح بإصلاح جُوَانيته.

الإنسان لايقاد من أذنه كما تقاد البهيمة، وإنما يقاد من داخله، يقاد من عقله، ويقاد من ضميره، لهذا كان إصلاح النفس البشرية هو أساس كل إصلاح، وفق هذه السنة الإلهية التي قررها القرآن ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١]، وفق ما قاله النبي ﷺ: (ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٢].

يقاد الإنسان من قلبه، من عقله، من ضميره، من نفسه، سمها ما تسميها.

---

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، ٩ شعبان ١٤٢٥هـ الموافق ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) عن النعمان ابن بشير.

المهم هذا الكيان الداخلي الذي هو حقيقة الإنسان، حقيقة الإنسان ليست في هذا اللحم والدم، ليست في هذه العظام والخلايا والأجهزة، هذه توجد عند الحيوانات، وربما كان الحيوان أضخم جسما من الإنسان، وأوسع بطنا، وأكثر أكلا منه، ولكن الإنسان الحقيقي في هذا الكائن الروحي، الكائن المعنوي الذي به صار الإنسان إنسانا، وكرمه الله علي سائر المخلوقات، وجعله في الأرض خليفة، وحمّله الأمانة التي عرضت علي السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

لابد من جهاد لإصلاح النفس الإنسانية ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

لله سنة ثابتة في خلقه:

هذه سنة ماضية، من بذل جهده، واستفرغ وسعه، في مجاهدة نوازعه الشريرة، في مواجهة نفسه الأمارة بالسوء، في مواجهة شيطانه، في مواجهة أهوائه وشهواته، لابد أن يصل إلي الهداية الربانية، ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ وقد قال عليه الصلاة والسلام: (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله)[1] الجهاد الحقيقي: أن تجاهد هواك، وأن لا تسترسل مع نزعات نفسك، وأنانية نفسك، وأهواء نفسك، فإن من اتبع هواه فقد ضل وغوي ﴿ **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...** ﴾ [ص: ٢٦] ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [القصص: ٥٠]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الهوي شر إله عبد في الأرض» ثم تلا قول الله تعالي ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ**

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٥٨) عن فضالة بن عبيد، وقال مخرِّجو المسند: إسناده صحيح، ورواه ابن المبارك في الزهد (٨٢٦)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٩٦)، والبيهقي في الشعب (١١١٢٣).

غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ [الجاثية: ٢٣]. لابد من مجاهدة النفس، ولابد أن يسلك الإنسان طريقه إلي الله، محطة محطة، ومرحلة مرحلة، حتي يصل إلي رضوان الله تبارك وتعالي ﴿ **وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ** ﴾ [النجم: ٤٢].

التوبة أول المحطات:

وقد ذكرنا أيها الإخوة في الخطب الماضية: أن المحطة الأولي التي ينبغي أن ينطلق منها الإنسان هي: محطة التوبة، أن يغتسل الإنسان من ذنوبه، أن يتطهر من خطاياه، أن يقف مع نفسه وقفة صادقة، ليحاسبها علي ما اقترف من سيئات، وما فرّط فيه من حقوق لله وللنفس وللناس، ينبغي أن يقف هذه الوقفة ليصلح ما فسد، ويقوم ما اعوج، ويطهر ما خبث.

إن الله يغفر الذنوب جميعاً:

وليس هناك ذنب يستعصي علي التوبة، كل الذنوب قابلة للتوبة، حتي الكفر، حتي الشرك بالله، حتي الإلحاد والجحود بالله عز وجل، إذا تاب الإنسان منه تاب الله عليه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ﴾ [الأنفال: ٣٨]. حدثنا الله عن عباد الرحمن فكان من أوصافهم ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]. حتي الشرك، حتي القتل، حتي الزني، من تاب منها وأصلح ما أفسده من قبل، وملأ صحيفته بالحسنات بعد السيئات، بعمل الصالحات بعد عمل السيئات، ﴿ **وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾.

﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر: ٥٣].

علي الإنســـان إذن أن يتـــوب إلي الله، أن يصطلح مع الله، أن يدع هذه الخصومة بينه وبين ربه، أن يقبل علي الله فيتلقاه الله من بعيد، أن يقول: يا رب. يارب. ليقول له ربه: لبيك عبدي وسعديك، الله تعالي يقول في الأثر القدسي الإلهي: (من أقبل من عبادي إليّ تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب) أقبل علي الله يتلقاك من بعيد، يرحب بك كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي: (من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته مهرولا)[1] أقبل علي الله تائبا منيبا، ابك علي خطيئتك، اغسل نفسك بدموعك إن كنت صادقا مع الله عز وجل.

حقيقة التوبة:

ليست التوبة بالكلام بأطراف اللسان، التوبة حُرقْة في القلب، أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، كما وصف الله التائبين في سورة التوبة ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [التوبة: ١١٨]. سئلت رابعة العدوية المرأة الزاهدة الصالحة، سألها أحد الناس: أإذا تبت تاب الله عليّ؟ قالت له: يا جاهل. بل إذا تاب الله عليك تبت، أما سمعت قوله تعالي: ﴿ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [التوبة: ١١٨]، إذا وفقك للتوبة فهذا دليل القبول، لأن التوبة لابد أن تقبل ما دامت صحيحة مستوفية لشروطها، لابد لنا أن نبحث البواعث علي التوبة، لابد أن نعرف مقام الله عز وجل.

أول بواعث التوبة: اعرف مقام ربك:

أول البواعث علي التوبة: أن تعرف مقام ربك وحق ربك عليك، وأنك لو عشت عمرك كله راكعا ساجدا ما أديت حقه عليك، لأن نعمه عليك أعظم

---

(١) رواة البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

من أن تحصر، وأكبر من أن تحصي، نعمه تغمرك من قرنك إلي قدمك، ومن ميلادك إلي ساعة وفاتك، بل حتي من قبل الميلاد، وأنت في بطن أمك، الله هو الذي يرعاك جنينا قبل أن يرعاك وليدا ورضيعا، الله عز وجل هو المنعم بجلائل النعم ودقائقها. ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل: ٥٢] ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، حق الله عليك عظيم، كيف تقابل هذه النعم وتقابل مقام الألوهية بالنكران والكنود والكفران والفسوق والعصيان؟ تأكل ثمري وتعصي أمري! تأكل خيري وتطيع غيري؟ أنت تعيش في خير الله، في إحسان الله، في نعم الله، فلماذا لا تؤدي حق الله؟!

نعم الله لا تحصي:

لابد أن يقف الإنسان ليعرف حق ربه عليه، لو سجد علي الجمر ما أدي حق الله سبحانه وتعالي عليه، نعم ربك عليك كثيرة. انظر نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة العقل، نعمة الجوارح، نعمة الصحة، نعمة العافية، نعمة المال، نعمة الأولاد، نعمة الهواء، نعمة الماء، نعمة الشمس والضياء، هذه النعم كلها لا يمكن أن تحسبها، ولذلك كان حق الله عليك عظيما، فماذا أديت من حق الله عليك؟ هذه وقفة!

الباعث الثاني: ذكر الموت والقبر:

مما يبعث علي التوبة أن تذكر أن حياتك مهما طالت قصيرة، وأن منتهاها الموت، وما دام الموت نهاية كل حي فإن العمر مهما طال قصير قصير. يقول الشاعر:

وإذا كان آخر العمر موتا ... فسواء قصيره والطويل

عندما ينتهي الأجل، عندما يحتضر الإنسان، ويأتيه ملك الموت، يتمني المرء لو أمهل في الأجل يوما، نصف يوم، ساعة، نصف ساعة، لحظات، يتمني أن يمد له في أجله ليفعل خيرا، فيقول: ﴿ **رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ**

وأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠ – ١١]. كم يتمني لو أنه أعطي فسحة ليصلي ركعتين خالصتين لوجه الله، أمامك عمر طويل الآن لماذا لا تصلي؟ لماذا لا تسبح الله وتكبره؟ لماذا لا تدعوه وتستغفره؟ لماذا لا تذكره كثيرا؟ لماذا لا تسبحه بكرة وأصيلا؟ لماذا لا تَرُد الحقوق إلي أهلها؟ لماذا تبقي بمظالمك؟

الإنسان ينسي أنه ميت، والله سبحانه وتعالي قال لرسوله ﷺ: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٠]. كل الناس ذائقو الموت: الملوك والرؤساء، والحكام والمحكومون، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، الكل ميت. لماذا ينسي الناس الموت؟ لماذا يستبعدون الموت؟ قد رأينا في عصرنا: من يموت بالذبحة الصدرية، ومن يموت بالسكتة القلبية، ومن يموت في حادثة من حوادث السير، وما أكثرها. لماذا تستبعد الموت؟

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

﴿ **وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** ﴾ [النحل: ٧٧]، هناك الساعة العامة، وهناك الساعة الخاصة، ساعة كل إنسان، ومن مات فقد قامت قيامته، وأنت لا تدري متي ساعتك كان ابن عمر رضي الله عنه يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لسقمك، وخذ من حياتك لموتك».

الموت. تذكر الموت. تذكر القبر. تذكر هذه الحفرة التي ستؤول إليها في النهاية، عش ما شئت فإنك ميت. وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واجمع ما شئت من مال، وابن ما شئت من قصور، ستودع هذا كله إلي هذه الحفرة.

القبر أفظع منظر:

كان عثمان رضي الله عنه إذا رأي القبر بكي بكاء مرا. فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي مثلما تبكي إذا رأيت القبر! فقال لهم: سمعت النبي ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإذا نجي منه كان أنجي فيما بعده»

ويقول أيضا: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه»[1] منظر القبر، انظر إلي هذا الإنسان الذي كان يمشي متبخترا فوق الأرض، يمشي في الأرض مرحا، كأنه يخرق الأرض، أو يبلغ الجبال طولا! إذا به يوضع في هذه الحفرة، في وادي الموتي، اذهب إلي هذا الوادي، إلي تلك المقبرة في قطر، وهي أدل علي الموت من المقابر في بلاد أخري، لأن الجميع في حفر متساوية، الأمير والمأمور، والوزير والغفير، والغني والفقير. حفر متساوية يحفر له في الأرض ثم يردم عليه، هذا هو وادي الموتي! تذكر هذا الموت. لماذا تسوف في التوبة؟ وتقول: سوف أتوب، وما يدريك أن سوف هذه ستأتي، ما يدريك أنك سيأتي عليك الغد؟ لا تدري والله.

تزوّد من التقوى فإنك لا تَدْري — إذا جَنّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من سَليمٍ مات من غير علّةٍ؟ — وكم من سقيمٍ عاش حيناً من الدهر؟
وكم من فتى يُمسي ويصبح لاهياً — وقد نُسِجَت أكفانه وهو لا يدري؟

الباعث الثالث: ذكر الآخرة والجنة والنار:

لابد أن نتذكر الموت، ولابد أن نتذكر الآخرة، الجنة والنار. الموت أشد ما قبله، وأهون ما بعده. المشكلة ليست مشكلة الموت ولكن ما بعد الموت.

ولو أنا إذا متنا تركنا — لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا — فنسأل بعدها عن كل شيء

إن بعد الموت بعثا، وإن بعد البعث حشرا، وإن بعد الحشر حسابا، وإن بعد الحساب ثوابا أو عقاباً، جنة أو ناراً، لابد أن نذكر هذا كله، وما معني الجنة أو النار؟ إنه ليس شيئا هيناً أن تفقد الجنة وأن تدخل النار، الإنسان يحزن إذا خسر بعض المال أو بعض الصفقات، فكيف إذا خسرت الجنة؟ وكيف إذا دخلت النار؟

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤٥٤) عن عثمان، وقال مخرجو المسند: إسناده صحيح، ورواه ابن ماجه (٤٢٦٧)، والترمذي (٢٣٠٨)، والحاكم (٤ / ٣٣٠).

جسمي ليس على الشمس يقوى ولا علـى أهـون الحـــــرارة
فكيف يقوى على جحيم وقودها الناس والحجارة؟

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. كان بعض الصالحين يقرب المصباح من يديه، ويضع أصابعه عليه، فتلسعه نار السراج، وهي نار ضعيفة خفيفة فيقول: إذا كنت لا تحتمل هذه اللسعة من النار السراج، فكيف بنار الآخرة؟ ونار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار الآخرة؟! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. أي خسارة أن تفقد الجنة وأي خسارة أن تدخل النار!!

الباعث الرابع: معرفة آثار المعاصي في الدنيا والآخرة:

الباعث الرابع على التوبة: أن تتذكر خطر المعاصي عليك، وأنك إذا استرسلت فيها ساقتك إلى خسارة نفسك، وبوار صفقتك، وضياع مصيرك، وهلكت في الدنيا والآخرة، لابد أن تقف مع نفسك لتدرس آثار المعصية والخطايا على حياتك: الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، الحاضرة والمستقبلة، الدنيوية والأخروية. إنها آثار مدمرة. يعرفها كل من تدبر كتاب الله، ومن درس سنة رسول الله، ومن قرأ وقائع الحياة، وتابع أحداثها كل يوم بعين تري، وأذن تسمع، وقلب يعي ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

يا ناظرا يرنو بعَيْنَيْ راقد ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درك الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت أن الله أخرج آدما منها بذنب واحد؟!

تريد أن تدخل الجنة وآلاف المعاصي قد ارتكبتها! بل ملايين المعاصي لو حسبتها، وآدم بذنب واحد خرج من الجنة. ولم يسامح نوحا في كلمة حين قال: ﴿ **إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [هود: ٤٥]. فكان الرد الحاسم عليه ﴿ **يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [هود: ٤٦ - ٤٧]. وكذلك قال آدم و زوجه: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣].

لابد أن نقف مع أنفسنا هذه الوقفات لنتوب إلي الله تبارك وتعالي، ونرجع إليه، ونعرف آثار المعاصي في النفس وفي الحياة، في الفرد وفي المجتمع، فالمعاصي هي الشؤم علي الإنسان، والشؤم علي الأسرة، والشؤم علي الجماعة، والشؤم علي الأمة، والشؤم علي الإنسانية، والشؤم علي البيئة، والشؤم علي كل شيء ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾ [الروم: ٤١] أي بمعاصيهم ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشوري: ٣٠].

تذكر أيها الأخ المسلم. تذكر هذا كله ليبعثك علي التوبة إلي الله، لترجع إلي الله بعد أن شردت من الله.

معني التوبة:

التوبة معناها: الرجوع بعد شرودك، بعد بُعْدك عن الله، ترجع إليه تقف علي بابه، ترتمي في ساحته، وتقول: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣].

نسأل الله عز وجل أن يتوب علينا توبة نصوحا، وأن يغفر لنا ما مضي، وأن يصلح لنا ما بقي، وأن يجعل يومنا خيرا من أمسنا، وغدنا خيرا من يومنا، ويحسن عاقبتنا في الأمور كلها، ويجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. أقول

قولي هذا وأستغفر الله تعالي لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، فادعوه يستجيب لكم.

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله غافر الذنب، وقابل التوب شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو، إليه المصير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [التغابن: ١]. وأشهد أن سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمدا عبد الله ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلي آله، وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، ورضي الله عن من دعا بدعوته، واهتدي بسنته، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

محنتان:

قدّر الله لي في هذا الصيف أن أُبتلي بمحنتين: محنة خارج دار العرب والمسلمين، ومحنة في دار العرب والمسلمين، وأحمد الله عز وجل أن خرجت منهما أصفي جوهرا، وأصلب عودا، وأشد قوة، فالمحن لا تزيد المؤمنين إلا إيمانا وثباتا في الخير، وعزيمة علي الرشد، كما وصف الله تعالي المؤمنين بعد غزوة أحد فقال عز وجل: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤]. وقال عز وجل بعد غزوة الأحزاب: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

كانت المحنة الأولي أيها الإخوة في لندن، فقد عقد اللوبي الصهيوني هناك

العزم علي أن يمنعني من دخول لندن، وكنا في لندن قد دعينا لنعقد دورة المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث هناك، وهذا المجلس كنا نعقده في البلاد الأوروبية، مرة عقدناه في ألمانيا، ومرة: عقدناه في فرنسا، ومرة: عقدناه في إسبانيا، ومرة: عقدناه في السويد، وهكذا.

اللوبي الصهيوني وراء هذه المحنة:

وهذه المرة أردنا أن نعقده في بريطانيا، وكنا عقدنا جلسة تأسيس المجلس الأولي فيها، ودعانا لنعقد جلسة الافتتاح عمدة لندن، ولبينا الدعوة. ولكن اللوبي الصهيوني ثار ثائره، وجن جنونه، وأراد أن يمنعني من دخول لندن، فدخلت لندن ولم يمنعني أحد، بل استقبلوني في المطار: نواب العمدة ورجاله، وأدخلوني قاعة التشريفات الكبري، وهكذا. ثم أرادوا أن يخرجوني بعد أن دخلت! ورفع هذا اللوبي دعوة إلي المدعي العام، يطلبون إخراجي من لندن. يريدون أن يمنعوني من بريطانيا كما منعت قبل ذلك من أمريكا، ولكن بحمد الله رُفِضت هذه الدعوة، وقامت معركة سياسية كبيرة بين الحكومة والمعارضين، انتهت إلي مجلس العموم، وكان زعيم المعارضين وهو يهودي يرأس حزب المحافظين، يبذل كل جهده لإخراجي من هناك.

سبب المحنة: أنني أدفع المقاومة:

وظللت عدة أيام والشغل الشاغل للصحافة والإذاعة والتليفزيون بقنواته المختلفة هو: يوسف القرضاوي؛ الذي يشجع الإرهاب، ويشجع العمليات الإستشهادية، ويؤيد المقاومة الإسلامية، يؤيد حماس، ويؤيد الجهاد الإسلامي، ويؤيد حزب الله، ويقف ضد إسرائيل، وضد السلام مع إسرائيل، ولكن الله سبحانه وتعالي أيها الإخوة نصرني علي هؤلاء، بمجرد أن لقوني وأجروا معي حوارات مختلفة، واستمعوا إلي خطبتي في المسجد المركزي الكبير، وسألوني أسئلة محرجة أجبت عنها بصراحة وقوة، فلم يجد هؤلاء إلا أن يغيروا موقفهم، وأصبحت الصحافة التي تهاجمني تدافع عني، الرجل الذي حاورني من

التليفزيون حواراً طويلا، قال لي في نهاية الحوار: أشهد يا أستاذ أنني تعلمت منك الكثير في هذا اللقاء، وهذا من إنصاف القوم.

موقف عمدة لندن:

كان عمدة لندن (كن ليفنجستون) وهو رجل شهم، يعتبر الشخصية الثالثة أو الرابعة سياسيا في انجلترا، قد تبني الدفاع عني، واستقبلني في قاعة البلدية، وقال: أنا أستقبلك في القاعة التي رفضت أن يدخلها بوش، هكذا وقف الرجل وقفة صُلبة في الدفاع أمام هذا اللوبي الصهيوني، وأتاح لي فرصة أخري لمؤتمر عن الحجاب، كنت المتحدث الرئيسي فيه، ودعاني إلي مؤتمر في شهر أكتوبر القادم(١) هكذا يدافع الله عن الذين آمنوا.

حاخامات يعارضون إسرائيل:

وكان من العجيب أني وجدت عددا من حاخامات اليهود يقفون بجانبي، اليهود الذين يعارضون قيام إسرائيل ويرون أن قيامها مصيبة علي اليهود، وكارثة علي اليهود، وأنها هي التي ستعجل بنهايتهم، هؤلاء الحاخامات وجدتهم معي في افتتاح المجلس الأوروبي للإفتاء، وفي بعض المحاضرات كانون موجودين، وأصروا أن يودعوني في المطار، ثمانية منهم ظلوا في المطار حتي دخلت إلي الجوازات، هذه محنة أنهاها الله علي خير خارج ديار المسلمين، وهناك عقدنا مجلسنا الأوروبي وأنهيناه، وعقدنا أيضا جلسة تأسيس الإتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وجاء أكثر من مائتين وخمسين عالماً من أنحاء العالم، وقام الاتحاد المبارك علي بركة الله، كان هذا فضل من الله سبحانه وتعالي.

المحنة الثانية:

ثم ابتليت أيها الإخوة بمحنة أخري داخل بلاد العرب والمسلمين، محنة بين قومي وأهلي، وشاعرنا العربي طرفة بن العبد يقول:

وظلم ذوي القربي أشد مضاضة علي المرء من وقع الحسام المهند

---

(١) اعتذر فضيلة الشيخ عن هذا المؤتمر لانشغاله بأعمال أخري.

سبب هذه المحنة:

بدأت هذه المحنة بكلمة قلتها في نقابة الصحفيين في مصر، بعد محاضرة احتشد لها جمهور ضخم، معظمهم من الكتاب والصحفيين، وسئلت سؤالا عن قتال جنود الاحتلال في العراق، وقتال المدنيين منهم؟ وأجبت بما أجبت به، قلت: الأمريكيون في العراق غزاة، والغزاة يجب أن يقاوموا، هل هناك في العراق مدنيون من الأمريكيين؟ أم أنهم كلهم دخلوا مع جيش الاحتلال؟ وذكرت أن الإسلام لا يقاتل المدنيين ولا يقتلهم، ذكرت بذلك الأحاديث الشريفة التي تنهي عن قتل النساء والصبيان والشيوخ، والرهبان في الصوامع والفلاحين الحراث في أراضيهم، والتجار في متاجرهم، ذكرت هذه النصوص، وقلت: لكن من عاون المقاتلين فهو عسكري هذا أمر.

وكان السؤال هل يجوز التمثيل بالجثث بحال من الأحوال، وهناك نهي صريح، وأحاديث صحيحة صريحة تنهي عن المُثْلة، حتي ولو كان أعداء المسلمين يمثلون بجثثهم. وأخذ بعض الناس جزء من الكلمة وقطعوها عن سياقها علي طريقة (لا تقربوا الصلاة)، وقالوا: إنني أجيز قتل المدنيين بإطلاق بدون هذا السياق، وبدون هذه القيود التي تقيد الموضوع؛ ليروجوا مقولة يريدون فيها أن يصطادوا في الماء العكر، أو أن يعكروا الماء ليصطادوا فيه، هكذا قالوا. مما اضطرني أن أعقد مؤتمرا صحفيا هنا في النادي الدبلوماسي في الدوحة، وأفسر ما أردته، وقد قيل أنه تراجع وما تراجعت.

من هو المدني؟ ومن هو العسكري؟

لكن القضية هي قضية من هو المدني؟ هل المهندس الذي يجيء مع الجيش ليصلح الدبابة إذا عطبت هل هذا المهندس مدني أم عسكري؟ من هو المدني؟ ومن هو العسكري؟

القضية كل من يقاتل أو يعاون المقاتلين فهو عسكري، أنا أريد أن أسأل

الناس هؤلاء: هل شارون عندهم مدني أم عسكري؟ ماذا يقولون في شارون؟ ما هي المدنية وماهي العسكرية؟ وخصوصا في عصرنا، والحرب لم تعد واحد يضرب واحداً بالسيف أو بالرمح أو الحربة. لا أصبحت الحرب تخدمها مؤسسات عدة، وأفراد من كل ناحية. لابد أن نحدد من هو المدني، ومن هو العسكري.

لمن توجه هذه الضربة؟

ومع هذا وجدنا طائفة من العلمانيين تنتهز هذه الفرصة تحاول أن تضرب ضربتها؛ لا في يوسف القرضاوي ولكن في الدعوة الإسلامية، والرسالة الإسلامية، يريد هؤلاء أن ينتهزوا هذه الفرصة ليقولوا: إن الإسلام ليس يسر، حتي التيار الوسطي والتيار المعتدل، كل هؤلاء إرهابيون. ومعاذ الله أن نكون إرهابيين. نحن ضد الإرهاب، ونحن ضد العنف، وأحمد الله أن مقالاتي ومحاضراتي وخطبي وكتبي وبرامجي التليفزيونية كلها مكشوفة علي الملأ، يعرف الناس موقفي، ولكن هؤلاء لا يريدون أن يفهموا.

يأكلون من كلامي ويطلبون محاكمتي:

حتي إن صحيفة إماراتية منذ أيام قد طالبت الضحية الأمريكي الرهينة الذي قتل في العراق أن يرفعوا دعوي ضدي. لماذا؟ لأن فتواي هي التي تسببت في ذبح هذه الرهينة! يا عجبا كأن أبا مصعب الزرقاوي ينتظر فتواي حتي ينفذ ما يريد! لقد قتل أمريكيين من قبل، وقتل إيطاليين، وقتل أتراكا، وقتل باكستانيين، وقتل نيباليين، وقتل.. ولم تكن فتوي مني ولا كلمة مني، وبالأمس قتلوا الرهينتين الإيطاليتين، وقد طالبت مطالبة ملحّة بالإفراج عنهما، هؤلاء الناس لا أدري ما يقولون؟ بأي لغة يخاطبون الناس؟ كأنما يظنون أن الناس لا عقول لهم.

وأعجب لهذه الصحيفة ولبذاءتها فقد أوسعتني سبا وشتما، وقال لي بعض الناس: ألا ترد علي هذه البذاءة؟ علي هذه الشتيمة؟ قلت: كيف أرد علي السبابين والشاتمين؟ يسعني قول الله تعالي: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**

﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

الشاعر العربي يقول:

لو كل كلب عوى ألقمته حجرا ... لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

لا. لا تتسع الحياة ولا الأعمار لنرد علي هؤلاء[1]، وكل إناء ينضح بما فيه، نسيت هذه الصحيفة أنها ظلت عدة سنوات تنشر لي كل يوم مقالا، وكانت تبذل الجهود لتستكتبني، أو لتجري معي حوارا، ثم هي الآن تقول عني ما تقول، يا عجبا.

الفرق بين الوجود الأمريكي في العراق وفي قطر:

ووجدت بعض الكتاب يقول: ماذا يقول القرضاوي في القوات الأمريكية أو الوجود الأمريكي في قطر، يريدون أن يحرجوني ويريدون أن يضيقوا عليّ الخناق، وأنا أريد أن أقول لهؤلاء: لا تخلطوا الحابل بالنابل، ولا تلبسوا الحق بالباطل. هناك فرق بين الوجود الأمريكي في العراق، والوجود الأمريكي في قطر، الوجود الأمريكي في العراق دخل نتيجة غزو عسكري ظالم قهر البلاد، وقهر أهلها، حتي احتل الأرض، برغم أنف أهلها، وبرغم الشرعية الدولية، وبرغم أنف الملايين من الجماهير التي ثارت وتظاهرت في كل مكان. أما الوجود الأمريكي في قطر هذا نتيجة اتفاقات بينه وبين حكام البلد، بناء علي اعتبارات رأوها، وهم

---

(١) قام فضيلة الشيخ مؤخراً برفع قضية ضد هذه الصحيفة (الاتحاد الإماراتية) وكّل فيها المحامي القطري البارز الأستاذ عبد العزيز بن صالح الخليفي، الذي قام بواجبه خير قيام، شكر الله له. وكنت قد سألت فضيلة الشيخ عن سبب رفع هذه الدعوي، وبخاصة وأن فضيلته تعرض لمثل هذه المواقف مرات عديدة، ولم يكن منه سوي إهمال هذه البذاءات وأصحابها، فأجابني فضيلة الشيخ: أن هذه البذاءات لم تخرج من فرد، وإنما خرجت من مؤسسة حيث إن الكلمة كانت «كلمة التحرير»، وثانيا أن الجريدة تابعت الكلام في عددين متتالين ٢٢، ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٤، وثالثا: أن وراء هذا الهجوم أعداء كثر من الخارج يخططون ويدبرون. وحكمت المحاكم القطرية بتغريم هذه الصحيفة ومؤسسة النشر التابعة لها (الإمارات للإعلام) بغرامة تأديبية مقدارها (١٠٠٠٠٠٠٠) عشرة ملايين ريالاً قطريا بتاريخ ١٤/ ٤/ ٢٠٠٥م.

يتحملون مسئوليتها أمام الله وأمام الشعب وأمام التاريخ، وإن كنت أنا شخصيا أكره الوجود الأمريكي في قطر، وأكره الوجود الأمريكي في الخليج، وأكره الوجود الأمريكي في بلاد العرب وفي بلاد المسلمين، وبلاد «الواق الواق» في اليابان أو في غيرها، أكره الوجود الأمريكي في كل مكان، ولكن هذا شيء وقتال هؤلاء شيء آخر.

لست مداحاً لأحد:

وبعض الناس قالوا: لماذا سكت العلماء أيام صدام حسين، الذين يقولون الآن بقتال الوجود الأمريكي. أين كانوا أيام صدام حسين؟ وأقول لهؤلاء: إن هذا الصوت لم يصدر منه في يوم من الأيام كلمة مدح أو ثناء لصدام حسين. بل كنت في معركة مع الخليجيين عامة، الذين كان كثير منهم أبواقا لصدام حسين، هؤلاء الذين يشتمون صدام حسين اليوم، كانوا يمدحونه ويوسعونه ثناء وإطراء أيام صولته وجولته، لعل هذا المنبر هو المنبر الوحيد الذي لم ينافق أحدا. ومعظمكم يعايشني ويسمعني منذ سنوات ما مدحت صدام حسين، وأحمد الله أني في حياتي لم أشتغل مداحا لأحد، لا حاكما ولا محكوما، لا في مصر ولا في قطر، ولا في أي بلد من البلدان. لقد أتممت الثامنة والسبعين من عمري، وأحمد الله أنني عشت فيها عزيزا كريما، لم أحن رأسي لمخلوق، ولم أعفر جبهتي إلا لله راكعاً أو ساجداً، لا يستطيع أحد أن يتهمني أنني مالأت أحداً أو نافقت أحدا، وكلكم شاهدون على ذلك. إنني أعيش بالإسلام وللإسلام وحده، ولا أستطيع إلا أن أكون كذلك.

أتمنى أن تختم حياتي بالشهادة:

لقد هددني الموساد يوما بالتصفية الجسدية، ووقفت على هذا المنبر وقلت: إني لا أخاف الموساد ولا التهديد بالموت، مرحبا بالموت في سبيل الله، والله ثم والله ثم والله: إني لأتمنى أن تختم حياتي بالشهادة في سبيل الله.

صوتي كان أعلي الأصوات :

هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوني من أتباع صدام، ويقولون : أين كان هذا الصوت أيام الهجوم علي الكويت وغزو الكويت؟ والله لقد كان صوتي أول الأصوات التي ارتفعت بالتنديد بغزو الكويت والمعارضة لصدام. ومن هذا المنبر، صدرت أول خطبة وأقوي خطبة في مقاومة الغزو. وكانت خطبتي تذاع في الإذاعة الكويتية الخاصة، في كل ساعة يعيدون خطبتي!

لقد دعا صدام علماء المسلمين في مؤتمرات شتّي وألحوا عليّ، ألح عليّ السفير العراقي هنا في قطر أن أحضر، فلم أحضر، ورصد الراصدون من رجال الحكم العراقي من حضر وقالوا : كل العلماء استجابوا لنا إلا عالمين اثنين : أبو الحسن الندوي في الهند، ويوسف القرضاوي في قطر. لم أستجب وأنا إلي الآن لم أزر العراق في حياتي. من يتهمني بأني مالأت هذا أو ذاك؟!

خطيب مهووس :

أحب أن أقول أيها الإخوة : هناك خطيب مهووس في الكويت دعا من فوق المنبر حكومة قطر أن تسحب مني الجنسية القطرية، كأن الجنسية القطرية ثوب يخلع ويلبس، وهؤلاء نسوا أني قطري حقا، وأني أصبحت أحمل الجنسية القطرية كما يحملها أي قطري. إن في قطر رجالا دافعوا عنّي أيام عبدالناصر، ودافعوا عني أيام بوش أيضا. أراد عبدالناصر أن يسحبني من قطر لأذهب من الدار إلي النار، إلي السجن الحربي، ورفضت قطر، وكان ذلك موقفا مشرفا لقطر. وأراد بوش وأتباعه شيئا واحدا من قطر : أن تسكت لسان القرضاوي!! فلم تقبل قطر ولا أمير قطر، ولم تفرط في حقي وأنا أشكر لهم ذلك، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

وأحب أن أرخي العنان إلي هؤلاء الذين يطالبون بإسقاط الجنسية عني، وأفترض المستحيل، وعلماؤنا يقولون : فرض المستحيل جائز، هب أن قطر استجابت لمنطق هؤلاء الحمقي، وسحبت جنسيتي.

والله إن هذا لا يخيفني. إن أرض الله واسعة. الله تعالي يقول: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [العنكبوت: ٥٦] ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠]. هل تعجز الأرض علي سعتها أن تهيىء لي كوخا يسعني حيا، أو قبرا يسعني ميتا؟! لن تضيق الأرض بذلك. وأنا أؤكد ما قاله إمامنا الشافعي رضي الله عنه حينما قال:

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب ... وفيضي آبار تبْريز تبرا
أنا إن عشت لست أُعْدَم قوتاً ... وإذا متُ لسْتُ أُعْدَمُ قبرا
همتي همة الملوك، ونفسي ... نفْسُ حُرٍ ترى المذلة كفرا
وإذا ما قَنِعَتْ بالقوت عمرى ... فلماذا أهابُ زيداً وعمرا؟

أنا لا أخاف أحدا إلا الله، لقد اتخذنا شعارا للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين يتمثل في هذه الآية الكريمة: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

إن الذي يحز في نفسي: أني وجدت الإعلام البريطاني في جملته أعدل وأصدق من الإعلام العربي والخليجي في جملته، الإعلام البريطاني الذي شنّ عليّ الغارة عدة أيام بمجرد أن قابلوني وحدثوني وحاوروني غيروا كلامهم تماما، ولكن الإعلام العربي للأسف يغالط ويكذب ويزور، ويقوِّلني ما لم أقل. وهذا من عجائب الدنيا، أنا لا يهمني هذا بحسبي أن أرضي الله تبارك وتعالي، لا يهمني رضا الناس.

ومن فى الناس يرضى كل نفس ... وبين هوى النفوس مدى بعيد

رضا الناس غاية لا تدرك، ولكني أهتم بأن أرضي الله تبارك وتعالي، إذا رضي الله عني فما يهمني سخط الخلق وإذا سخط الله عليّ، فما ينفعني رضا الناس، إن إرضاء الله تبارك وتعالي هو الغاية والهدف، ولا يهمني أن تنتهي

حياتي بموت في سبيل الله، أسأل الله أن يختم لي به، وأنشد هنا ما قاله الصحابي الجليل: خبيب بن عدي، الذي قدم إلي الخشبة ليصلب فكان نشيده:

ولسْتُ أُبَالِي حين أُقْتَلُ مُسلماً   على أى جَنْبٍ كان فى الله مصرعي

وذلك فى ذات الإله وإن يشـأ   يبارك على أوصال شلو مُمَزَعِ

* * *

(١٩)

تفجيرات مسرح قطر عمل مستنكر[١]

الخطبة الأولي :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

في يوم السبت الماضي التاسع عشر من شهر مارس حدث حادث غريب علي هذا البلد الآمن المطمئن، غريب علي أهل قطر وعلي سكان قطر، هذا الحادث قد عرفتموه وأبديتم استنكاركم له، واحتجاجكم عليه، هذا الحادث هو : التفجير الذي حدث في أحد المسارح، وبجوار أحد المدارس، وأصيب من أصيب فيه، وكان يمكن أن تكون الواقعة أكبر من ذلك، وأن تكون ضحاياها أكثر لولا لطف الله عز وجل، قتل فيها مدرس أجنبي يدرس اللغة الإنجليزية، وأصيب فيها من أصيب من التلاميذ والأطفال والنساء والرجال. عدد قليل والحمد لله.

ماذا وراء هذا الحادث ؟

ولكن المشكل ماذا وراء هذا الحادث؟ ما الذي جعل إنسانا مسلما يعيش في قطر يرتكب مثل هذا الحادث الأحمق، الذي لا يدفع إليه عقل عاقل ولا دين متدين؟

لا نستطيع أن نعمم كما يعمم الكثير من الناس؛ ندين كل المصريين لأن هذا مصري، ندين كل المهندسين لأن هذا مهندس، ندين كل المسلمين لأن هذا مسلم، أو ندين كل المتدينين لأن هذا متدين، هذا خطأ. لا بد أن نبحث ونحلل. ماذا وراء هذا العمل من دوافع وأسباب؟ قالوا عن الرجل: إنه رجل مستقيم متدين يعيش عيشة طيبة. يعيش في مؤسسة مرموقة؛ يتقاضي راتبا جيدا، ويعيش في

(١) ألقيت هذه الخطبة في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في ٢٥ / ٣ / ٢٠٠٥ م.

أسرة مستقرة. له زوجة وله أولاد، ولم يشكو أحد من رفقائه ولا من زملائه من سوء خلقه ولا من سوء معاملته.

فهم أعوج ومنطق أعرج:

ما الذي دفع هذا إذن إلي ارتكاب مثل هذا الحادث الأحمق؟

لابد أيها الإخوة أن يكون هناك خلل في الفكرة، آفة كثير من الناس الذين عرفناهم وجربناهم في عدد من الأقطار العربية والإسلامية، عرفناهم في مصر، عرفناهم في الجزائر، عرفناهم في الرياض في السعودية، عرفناهم في المغرب، عرفناهم في باكستان، عرفناهم في بلاد الخليج، عرفناهم في بلاد شتي.

آ فة هؤلاء في عقولهم في أفهامهم في فهمهم الأعوج، في فهمهم الأعرج، في فهمهم للدين وفهمهم للحياة. هذه هي آفة هؤلاء، تلّقي أحدهم من أناس لا نعلم ما هي معرفتهم بالدين. فتفقه تفقها أعوج فيه خلل من جهات عدة، استباح حرمة الدماء، واستباح حرمة الأموال، واستباح حرمة الأمن، وروّع الآمنين، واستباح حرمة الخلق، وإيذاء الخلق. هذه الحرمات المصونة في الإسلام. استباح هذا بهذا الفقه الأعوج الأعرج الذي ورثه عن أسلاف سابقين، عرفتهم الأمة الإسلامية في تاريخها، هؤلاء الأسلاف كانوا صُوّامًا قُوّامًا عُبّادًا قُرّاءً للقرآن، يصومون النهار ويقومون الليل، ومع هذا استباحوا دماء المسلمين.

الخوارج الذين جاءت الأحاديث في ذمهم من عشرة أوجه كما قال الإمام أحمد. هؤلاء كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «يحقر أحدكم صلاته إلي صلاتهم، وقيامه إلي قيامهم، وصيامه إلي صيامهم، وقراءته إلي قراءتهم»[1].

هكذا كان وصفهم في العبادة، ولكن (يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)، يدعون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإسلام، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم. هذه آفتهم قرْاء للقرآن، ولكن القراءة لا تجاوز الحناجر، لا تنتقل من الحناجر إلي الرأس، وإلي القلب حتي يفقهوه حق فقهه، وحتي يؤثر في فهمهم وسلوكهم.

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٠) ومسلم في الزكاة (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري.

آفة هؤلاء ليست في نيّاتهم ليست في ضمائرهم. آفتهم في رؤوسهم في عقولهم، هكذا كان الخوارج قديما وهكذا كانوا هؤلاء حديثا. الخوارج استباحوا دماء المسلمين، استباحوا أموال المسلمين، حتي إنهم استباحوا دم ابن الإسلام البكر، فارس الإسلام، وحكيم الأمة: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، استباحوا قتله وقتلوه، افتخر بذلك شاعرهم، يمدح قاتل علي رضي الله عنه وكرم وجهه يقول:

يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ عند ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره يوما فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

قاتل علي بن أبي طالب، زوج البتول، وابن عم الرسول، قال عن قاتله: أحسبه أوفي البرية عند الله ميزانا هذا هو الخلل.

الإخلاص وحده لا يكفي:

رأينا هؤلاء الشباب المغرّرين المضللين، المخلصين في نياتهم، المختلين في عقولهم، رأينا هؤلاء يستبيحون حرمة الدماء، وللدماء حرمة عظيمة في الإسلام وفي كل الأديان، كما قرر القرآن مع كتب السماء: ﴿ **أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة: ٣٢] فكأنما قتل الناس جميعا.

الاجتراء علي قتل النفس الواحدة كالاجتراء علي قتل الآلاف، يقول النبي ﷺ: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق»[(١)] وليس قتل المسلم فقط هو المحرم. قتل المعاهد، قتل المستأمن، من كان له عهد فلابد أن يرعي عهده: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً** ﴾ [النحل: ٩١] و﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٤].

جاء بعض الناس بعد صلح الحديبية، نفرٌ من أهل قريش نفرٌ ينضم إلي

---

(١) رواه النسائي في تحريم الدم (٧/٨٢) والترمذي في الديات (١٣٩٥) وذكره الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٨).

الرسول يحاربون معه، قال: «لا نفي لهم عهدهم، ونستعين الله عليهم»(١) نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم، لا نغدر، الغدر من صفات المنافق، وليس من صفات المؤمن. المنافق «إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢) والمؤمن ليس كذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «من قتل معاهدا أو معاهدا لم يرح رائحة الجنة – لم يشم رائحة الجنة – وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً» (٣)، إذا عاهد عهدا مؤبدا أو مؤقتا، أو أُعطي أمانا، إذا أعطاه المسلمون أمانا، إذا أعطاه الحاكم إذا أعطاه أي فرد من الرعية، إذا أعطته امرأة.

أم هانيء بنت أبي طالب أعطت بعض أحمائها – أقارب زوجها – من المشركين أمانا وأراد أخوها علي أن يخترق هذا الأمان فشكته إلي النبي ﷺ فقالت: إني أجرت فلانا وأراد ابن أم أن يفعل كذا وكذا ! فقال: «لقد أجرنا من أجرت يا أم هانيء».

قتل المستأمنين لا يجوز:

ولذلك قرر العلماء: لو أن امرأة مسلمة أعطت مشركا محاربا عهدا وأمانا؛ فلا يجوز أن نفرط هذا الأمان، فكيف إذا أعطته الدولة أمانا؟ أعطته تأشيرة لا يدخل بهذه التأشيرة شك أنها أمان، أعطته إقامة ليعمل في البلد، وماذا يعمل؟ يعمل مدرسا أم خبيرا أم أي شيء كهذا، كيف تستباح حرمته؟ في الإسلام، له احترامه ولا يجوز أبدا خرقه، في الإسلام لا يجوز أبدا أن تغدر، ولا يجوز أن تخرق عهداً. هؤلاء استباحوا حرمة الدماء، واستباحوا حرمة الأموال.

حرمة الدماء والأموال:

الإسلام يحافظ علي الأموال: أموال الأشخاص، والمال العام، لا يجوز

---

(١) رواه مسلم في الجهاد (١٧٨٧) عن حذيفة بن اليمان.

(٢) إشارة إلي حديث عبد الله بن عمرو، رواه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (٥٨)..

(٣) رواه البخاري في الجزية والموادعة (٣١٦٦) عن عبد الله بن عمرو.

إضاعة المال. النبي ﷺ ينهي عن إضاعة المال، أو إهدار المال، أو إسراف المال، وكل مال له احترامه وخصوصا مال الجماعة. وخصوصا مال الأمة.

العلماء قالوا: المال العام مثل مال اليتيم، أي تشتد الحرمة فيه، ويشتد الإثم في إهداره لأنه ليس مال زيد ولا عمرو، بل مال الأمة كلها. الذي يدمر مبني، أو يدمر مدرسة، أو يحرق سيارة، أو يفعل كذا... هذا لا يجوز، الأموال لها حرمتها. الله سبحانه وتعالي يقول: ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** ﴾ [البقرة: ١٨٨] أموالكم لم يقل لا تأكل مال غيرك، لأنه اعتبر مال الغير مالك، مال المجتمع.

نعمتان من أعظم النعم:

لا بد أن يتعاون المجتمع علي صيانة الأموال لا يجوز إهدار الأموال، استهانوا بحرمة الدماء، واستهانوا بحرمة الأموال، واستهانوا بحرمة الأمن، الذي هو نعمة من أعظم النعم التي امتن الله بها علي قريش، وطالبهم بعبادته وحده شكرا لهذه النعمة، قال تعالي: ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [قريش: ٣، ٤] أطعمهم من جوع وآمنهم، هاتان النعمتان اللتان يبحث عنهما الناس، الكفاية من العيش والأمن من الخوف.

نعمة الأمن:

لا يكفي أن تكون في رغد من العيش؛ إذا كنت تعيش خائفا علي نفسك، خائفا علي عرضك، خائفا علي أهلك، خائفا علي مالك. قال أحد الحكماء وقد سئل عن السعادة قال: السعادة في الأمن. فإني رأيت الخائف لا عيش له، الذي يعيش في خوف ورعب فهذا لا عيش له. لا ينعم بالعيش، ولذلك امتن الله بهذه النعمة.

وحينما دخل يعقوب وأولاده إلي مصر قال لهم يوسف الصديق: ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٩] آمنين لأن الأمن أ هم شيء، من صفات الجنة أنها دار أمن، يقال لأصحاب الجنة: «ادخلوها بسلام آمنين» ومن أوصاف

أهل الجنة أنهم ﴿ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [يونس: ٦٢] منّ الله علي قوم سبأ أنهم كانوا يسيرون في أسفارهم سالمين آمين، ﴿ **سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ** ﴾ [سبأ: ١٨] الأمن نعمة عظيمة، الأمن وكفاية العيش، فإذا حرمهما مجتمع فقد ابتلي بشر بلية، كما حكي الله عن قوم فقال: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢] الجوع والخوف بدل كفاية العيش والقمح - الجوع والخوف - أذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. اعتبر الرسول ﷺ أن الإنسان في سربه في نفسه وجماعته من مقومات السهادة الأساسية قال: (من أصبح منكم آمنا في سربه، معافي في بدنه، عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)[١] هذه الثلاثة:

١ - الأمن في السرب أمن الإنسان في نفسه وجماعته.

٢ - العافية في البدن أن لا يشكو من مرض يؤلمه.

٣ - عنده قوت يومه، ليس من الضروري أن يكون عنده الملايين أن يكون مطمئنا علي قوت يومه.

فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، كأنما عنده القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

ولذلك حينما يهل الهلال من كل شهر يطالعه المسلم في السماء ويقول: (اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله)[٢] بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام. كما يبحث الإنسان عن الإيمان يبحث عن الأمن، وكما يبحث عن الإسلام يبحث عن السلامة.

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الزهد (٢٣٤٦) وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه في الزهد (٤١٤١) عن عبد الله بن محصن الأنصاري، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣١٨).

(٢) رواه أحمد (١٣٩٧) عن طلحة بن عبيد الله، وقال مخرّجوه: حسن لشواهده، ورواه الطبراني في الدعاء (٩٠٣) وعبد بن حميد (١٠٣) والدارمي (١٦٨٨).

فهؤلاء استباحوا حرمة الأمن، وروّعوا الامنين في دين يحرم ترويع الامنين بأي سبب من الأسباب، في غزوة من الغزوات خفق أحد الصحابة علي راحلته، أخذته سنة من النوم، فأراد أحد الصحابة أن يمازحه، وكان معه كنانة فيها سهام فأخذ سهم من كنانته في هدوء وخفية، ففزع الرجل من النوم، ورأي النبي ﷺ هذه الفزعة فقال: « لا يحل لرجل أن يروع مسلما »[1] هذا الترويع الخفيف الذي هدفه المزاح والمداعبة لا يحل، يحرم عليك أن تفزع أخاك، تقلقه من نومه، وقد خفق من تعبه ومعاناته، لا يحل لرجل أن يروع مسلما.

وقوله « يروع مسلما » ليس أن ترويع غير المسلم جائز لا، الرسول ﷺ يقول في حديث آخر: « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس علي دمائهم وأموالهم »[2] أمنه الناس كل الناس.

الأمن للناس كل الناس. والعدل للناس كل الناس. قال تعالي: ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء: ٥٨] هؤلاء استباحوا ترويع الآمنين في هذا المجتمع الذي يعيش الناس فيه في حرية، متمتعين بالنشاط والحركة لا يجدون تضييقا، ولا يجدون تشديدا، ولا يجدون إحراجا. هذه الأعمال الحمقاء، هي التي تسبب الإحراج والتفطيس والتضييق.

هؤلاء استباحوا كذلك إيذاء الخلق، لا يجوز للإنسان أن يؤذي أحدا. الإسلام رحمة، هكذا وصف الله هذا الدين، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وعبّر النبي ﷺ عن نفسه وعن شخصيته ووظيفته فقال: (إنما أنا رحمة مهداة)[3]، هو رحمة مهداة، ونعمة مسداة، رحمة للعالمين، ونعمة

---

(١) رواه أحمد (٢٣٠٦٤) عن رجل من أصحاب محمد ﷺ، وقال مخرّجو المسند: إسناده صحيح، ورواه أبو داود (٥٠٠٤) والبيهقي في السنن (١٠ / ٢٤٩).

(٢) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٧) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائي في الإيمان (٤٩٩٥) عن أبي هريرة، وهو عند البخاري ومسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهي الله عنه » البخاري في الإيمان (١٠) ومسلم في الإيمان (٤١).

(٣) رواه الحاكم (١ / ٣٥) عن أبي هريرة، وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الترمذي في العمل (٦٨٥) والبيهقي في الشعب (١٤٤٦) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٠).

للمؤمنين. فلا يجوز للمسلم أن يتقرب إلي الله بإيذاء الآخرين، وهم لم يؤذوه، لم يرتكبوا في حقه إثما. لماذا يؤذي هؤلاء الناس؟ هؤلاء الذين كانوا يحضرون هذه المسرحية، من كان يحضرها في المدارس الأجنبية التي تعلم الناس هنا، ربما كان لي بعض التحفظات علي هذه المدارس، ولكن هذا شيء، وأن تقتل أولادها شيء آخر. تلاميذ صغار كيف يستباح قتلهم؟!

أخلاقنا الحربية:

الإسلام في الحرب العلنية الرسمية التي تتواجد فيها الجيوش مع الأعداء المحاربين يقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم في حديث بريدة: «لا تقتلوا امرأة، ولا تقتلوا وليدا، ولا تقطعوا شجرا» ولا تقتلوا وليدا. الأطفال لا يجوز قتلهم. فكيف نقتل هؤلاء الأطفال؛ ومعظمهم من أطفال العرب والمسلمين، وهب أن منهم من كان من أبناء الأجانب؛ من يبيح لنا قتل هؤلاء الأبناء؟ من يبيح لنا قتل الأجنبي الذي يعمل مدرسا، وقد أعطي الأمن منا، من الدولة والمجتمع؟ من يستبيح هذا؟ هذا أمر لا تجوز استباحته، هؤلاء ارتكبوا أفعالا ليست من الإسلام بحال من الأحوال، نحن أيها الإخوة نقول لهؤلاء: أصلحوا هذا الخلل في رؤوسكم، في فقهكم هذا الفقه الأعوج. يجب أن يستقيم. من أين أخذتم هذا الفقه؟

التيار الوسطي لا يعرف العنف:

قالت جريدة الشرق الأوسط: إن هذا المتهم بارتكاب الحادث، أو الذي فعل الحادث لم يكن ممن يصلون خلف الشيخ القرضاوي في مسجد عمر بن الخطاب، هذه شهادة تهمنا، أنا أعتقد أن الذين يصلون في هذا المسجد، يصلون وراءنا التراويح كل عام لا يمكن أن يرتكب أحد منهم الحادث الأحمق الفاجر، لا يمكن. فقد استنارت عقولهم بالإسلام الصحيح، هؤلاء لا نعرف مَنْ شيوخهم؟ من أساتذتهم الذين أخذوا عنهم، واقتبسوا منهم، وتتلمذوا عليهم؟ إن الإسلام لا يجيز قتل كل كافر غير مسلم، من قال هذا؟ اقرءوا سورة الممتحنة نزلت في الوثنيين المشركين قال الله تعالي: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ**

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩] نهي عن موالاة المحاربين وأمر ببر المسالمين، البر إليهم والإقساط إليهم: أن نعاملهم بالقسط والبر والعدل، والبر هو: الإحسان. القسط: أن تعطيهم الحق الذي لهم، البر أن تزيد لهم شيئا فوق الحق، القسط: أن تأخذ حقك منهم، البر: أن تتنازل عن بعض حقك، (تبروهم) عبر القرآن عن العلاقة بهؤلاء بلفظة (البر) التي نستخدمها في أقدس الحقوق بعد حق الله: حق الوالدين نقول: بر الوالدين ﴿ **أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ** ﴾.

ألا تزر وازرة وزر أخري:

ربما قال البعض: إن هذا من البريطانيين الذين يحاربوننا، ولكن أيها الإخوة. من الظلم أن نحمّل جميع البريطانيين أو حتي جميع الأمريكيين إثم حكوماتهم. لقد خرجت مسيرات مليونية في بلاد دخلت الحرب في العراق. في بريطانيا، في إسبانيا، في إيطاليا، حكوماتها دخلت الحرب والشعوب تحتج علي هذا بالملايين.

هل يجوز لي أن أقتل هؤلاء؟ هل يجوز لي أن أقتل عمدة لندن الذي وقف يدافع عن القضية الفلسطينية ويدافع عن دعاة الإسلام؟ هل يجوز أن نقتل هؤلاء؟ نريد لهؤلاء أن يتفقهوا في الدين وأن يعرفوا الحرمة، عندهم خلل في فقه الجهاد، ظنوا الجهاد أن نحارب العالم كله(١)، الله تعالي يقول: ﴿ **فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً** ﴾ [النساء: ٩٠] إنما نحارب من قاتلونا في الدين، وأخرجونا من ديننا وظاهروا علي إخراجنا. ومن

---

(١) يتوهم بعض الشباب المتحمس أن علة قتال غير المسلمين هي الكفر فقط، وعليه فإنهم يرون حرب العالم كله، وهو رأي فقهي قال به بعض الفقهاء في القديم، وقد رد شيخنا علي هذا الرأي ودعم رأيه (أن قتال غير المسلمين ليس لعلة الكفر) بكثير من الأدلة والبراهين، وهو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وللمزيد من هذا يراجع (فقه الجهاد) تحت الطبع.

يتول هذه الحرب هل يتولاه الأفراد؟ مشكلة هؤلاء أن أحدهم يعطي نفسه سلطة الإفتاء وسلطة القضاء وسلطة التنفيذ، هو أفتي بنفسه من معلومات وقشور تعلمها من هنا وهناك، أو من بعض الشيوخ الذين لا يحسنون أن يُعَلِّموا، أعطي نفسه سلطة الإفتاء، وأفتي نفسه، ثم سلطة القضاء، وحكم أنه يجب أن يفعل كذا، ثم سلطة التنفيذ. فهو النيابة والقضاء والشرطة جميعا، هناك خلل في فقه الجهاد. ينبغي أن يفقهوا الجهاد حق الفقه.

يقول بعضهم: إن قطر فيها الأمريكان، ولهم قاعدة كبيرة. وهذا صحيح، ولكن الأمريكان دخلوا قطر باتفاق مع حكومتها، ربما لا نوافق الحكومة علي هذا الأمر، الحكومة عقدت هذا بناء علي اعتبارات وموازنات عندها.

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله **(غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير)** وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له **(يسبح له ما في السماوات وما في الأرض له الحمد وله الملك وهو علي كل شيء قدير)** وأشهد أن سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمدا عبد الله ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلي آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدي بسنته.

أما بعد:

صلاة أمريكية[١]:

فيا أيها الإخوة: في الجمعة الماضية حدثت حادثة من نوع آخر في أمريكا، وفي نيويورك. أمّت امرأة المسلمين رجالا ونساء. خطبت وأمتّهم لأول مرة في تاريخ المسلمين، نحن الآن في سنة ١٤٢٦ هـ أكثر من أربعة عشر قرنا، لم يعرف

---

(١) أصدر فضيلة الشيخ قبل أن تصلي هذه المرأة صلاة الجمعة هذه فتوي، أنكر فيها فضيلته إمامة المرأة للرجال الأجانب. وأوضح فيها علّة النهي، كما ندد الشيخ بهذه المرأة التي يراد من خلالها هدم الثوابت وزعزعة الأصول، بحجة المساواة بين الرجل والمرأة. وقد نشرت هذه الفتوي علي موقع فضيلة الشيخ (qaradawi.net) وموقع إسلام أون لاين.

في تاريخ الإسلام: أن امرأة صلت الجمعة بالمسلمين، حتي حينما اختيرت بعض النساء في مصر أو في الهند، أو في غيرها للولاية والإمارة؛ لم تؤم المسلمين، ولم تصل بهم، ولكننا في عصر العجائب، وعصر الغرائب.

رأينا امرأة تصلي بالمسلمين وفي أي مكان في الكنيسة حيث رفضتها المساجد الإسلامية جميعا، في شرق أمريكا وغربها، وشمالها وجنوبها، لم يسمح لها أي مسجد بأن تصلي الجمعة، فهي خرقت إجماع المسلمين في أمريكا، ولم يرحب بها إلا الكاتدرائية المسيحية في نيويورك، فصلت هناك والأمن حولها مدجج بالسلاح في كل مكان.

علة حرمان المرأة من إمامة الرجال:

هذه المرأة علي خلاف ما جاء به الإسلام، لأن صفوف الرجال في الأمام وصفوف النساء في الخلف والإسلام ليس عابثا في هذا الإسلام له حكمة، الأمر أن الله خلق المرأة علي جسم من شأنه الإثارة والفتنة. لحكمة يعلمها ونعلمها أيضا نحن، ولهذا نهي الإسلام المرأة أن تصلي أمام الرجل، بل كانت السيدة عائشة حينما تؤم النساء وأم سلمة، تصلي وسطهن لا تصلي أمامهن، حتي المرأة لا تريد أن تنزل بجسمها أمامها، فقد تقول المرأة: ما أحلاها، ما أعظم قوامها، الخواطر تثور. فما بالك بالرجل؟ الإسلام حين قال هذا كان واقعيا ولذلك لم يقل عالم مسلم في القديم أو في الحديث: أن المرأة تؤم الرجال في صلاة الجمعة.

هناك اختلاف في صلاة الجماعة المحدودة كما أذن النبي ﷺ لأم ورقة(١) أن تؤم أهل دارها، زوجها وأولادها وأحفادها، فكانت قارئة للقرآن، وهم لا يقرءون فأذن لها وجعل لها مؤذنا، يعني هي تصلي لكن المؤذن رجل، لكن الذي رأيته أن المؤذن امرأة حاسرة، ورأيت النساء يصلين حاسرات، وما رأيت في حياتي إلي

---

(١) حديث أم ورقة رواه أحمد في المسند (٢٧٢٨٢) وضعفه محققو المسند، وانظر تعليق فضيلة الشيخ على هذا الحديث في فتوى إمامة المرأة للرجال، في الجزء الرابع من فتاوى معاصرة (تحت الطبع).

الآن امرأة تصلي حاسرة، أي امرأة، أينما تكون، وحتي مهما كانت، حينما تريد أن تصلي تضع الطرحة أو الخمار أو أي شيء علي رأسها، وحتي في المدارس البنات حينما يردن قراءة القرآن، في المسجد نفس الشيء، احترنا لهؤلاء صلين حاسرات وصلين في صفوف الرجال، ورأيت بعيني هاتين: رجلا وعن يمينه امرأة، وعن يساره امرأة، وأمامه امرأة. أي صلاة هذه؟!

إنها أيها الإخوة صلاة مستوردة، كما أن هناك الهمبورجر الأمريكي، والكولا الأمريكية، والجينز الأمريكي، هناك الصلاة الأمريكية، هناك الإسلام الأمريكي الذي يراد أن يصدر إلينا. ولكن هذا الإسلام مرفوض مرفوض، حتي من أمة أمريكا، لم يكن من مطالب المرأة المسلمة في أي وقت من الأوقات، ولا في أي قطر من الأقطار، أن تفوز بالصلاة أمام الرجال، ما رأينا هذا.

المرأة تطلب أن تكون قاضية، أن تكون نائبة أن تكون كذا...، ونحن أجزنا هذا بشروطه وضوابطه أن تكون المرأة قاضية وأن تكون ممثلة في البرلمان، وأن تنتخب، وأن ترشح هذا[1]، وإنما أن تكون إمامة للرجال لم يقل به أحد. هذا الإسلام الأمريكاني الذي يريد أن يشوه صورة هذا الدين، وأن يحرف تعاليمه مرفوض من أمة الإسلام، مرفوض من علماء الإسلام، مرفوض من أفراد الإسلام، من المؤسسات الإسلامية، من الجامعات الإسلامية، مرفوض من الأمة كلها.

نحن نحاول أن نحافظ علي ثوابت ديننا، هناك ثوابت، وهناك متغيرات، هناك أشياء تقبل الاجتهاد وتقبل التجديد وتقبل التطور ولكن هناك أشياء لا يجوز أن يمسها أحد ولا يدخلها تطوير ولا تغيير، ولا يدخلها اجتهاد ولا تجديد هذا أمر من الثوابت.

---

(١) أجاز فضيلة الشيخ للمرأة أن تنتخب، وأن ترشح نفسها للمجالس النيابية، وأصدر الشيخ في ذلك فتوى بين فيها جواز ذلك، كما ذكر الشيخ كذلك رأي من سبقه من الفقهاء في جواز توليها القضاء فيما تجوز فيه شهادتها، وهو رأي أبي حنيفة، وفي الجنايات كذلك كما قال الطبري وابن حزم. (فتاوى معاصرة/ ح٢ ص٣٧٢) وما بعدها.

نسأل الله سبحانه وتعالي أن يحفظ علي هذه الأمة دينها، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، ومن فوقنا ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم لا تكلنا إلي أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك، اللهم أيد إخوتنا المجاهدين في سبيلك حيثما كانوا، اللهم أيد إخوتنا في فلسطين، وفي العراق، وفي كل مكان، اللهم أيدهم بروح من لدنك، وأمدهم بملإٍ من عندك، وأحرسهم بعينك التي لا تنام، واكلأهم بكنفك الذي لا يضام، اللهم افتح لنا فتحا مبينا، واهدنا صراطا مستقيما، وانصرنا نصرا عزيزا، وأتم علينا نعمتك، وأنزل في قلوبنا سكينتك، وانشر علينا فضلك ورحمتك، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا علي القوم الكافرين، اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، واجعل هذا البلد آمنا مطمئنا سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين، عباد الله يقول الله تبارك وتعالي: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صل وسلم وبارك علي عبدك ورسولك محمد، وعلي آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين.

وأقم الصلاة.

* * *

(٢٠)

الديموقراطيـــة [1]

الخطبة الأولي :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

اقترح عليّ بعض الأخوة – بمناسبة انعقاد منتدي الديموقراطية في الدوحة – أن أحدثكم عن الإسلام والديموقراطية[2]، ولا سيما أن بعض الذين يتحدثون عن الإسلام أنكروا الديموقراطية، وقالوا : إنها ليست من الإسلام في شيء؛ بل هي منكر يحاربه الإسلام، بل زعم بعضهم : أن الديموقراطية كفر، لأن الديموقراطية تعني : حكم الشعب للشعب، ونحن لا نرضي إلا حكم الله . ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة : ٥٠] .

الديموقراطية عندهم : مبدأ مستورد من الغرب، والغرب عدو لنا وكافر بديننا، ولا ينبغي أن نستورد نظاما من كفار بهذا الدين . إلي آخر ما قالوا .

لابد من تصحيح المفاهيم :

ولذلك وجب علينا أن نصحح المفاهيم، ونرد الشبهات، ونضع الأمور في نصابها، ونرد الفروع إلي أصولها . إذا أردنا أن نحكم علي شيء حكما صحيحا : ينبغي أن نتصوره تصورا صحيحا، العلماء يقولون : الحكم علي الشيء فرع عن تصوره، فإذا أردنا أن نحكم علي الديموقراطية فلا يهمنا الاسم والعنوان .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في : ١/٤/٢٠٠٥م بمناسبة انعقاد منتدي الديموقراطية بالدوحة .

(٢) لفضيلة الشيخ فتوى تحدث فيها بالتفصيل عن موقف الإسلام من الديمقراطية، فلتراجع . (انظر : فتاوى معاصرة (٢/٦٣٦ – ٦٥١) .

بعض الناس يقولون: إنها اسم أجنبي، وهي شيء أجنبي، فيرفضها، لا عبرة بالأسماء والعناوين إذا اتضحت المسميات والمضامين، ابحث عن المضمون. ما مضمون الديموقراطية؟ هل مضمونها يوافق الإسلام أو يخالفه؟ هذا هو البحث الصحيح، أنا شخصيا لا أحب استخدام هذه الأشياء، الكلمات الأجنبية، ولكن لا ينبغي أن تَحُول بيننا الرؤيا الصحيحة، ما معني الديموقراطية؟ ما جوهر الديموقراطية؟ ما حقيقة الديموقراطية؟

عناصر الديموقراطية هل توافق الإسلام؟

الديموقراطية تتضمن عدة عناصر، ينبغي أن نبحث في هذه العناصر، هل يقبلها الإسلام؟

العنصر الأول: أن يختار الناس بإرادتهم الحرّة من يحكمهم ويقود سفينتهم. هذا هو العنصر الأول.

العنصر الثاني: أن يختار الناس أهل الحل والعقد الذين يمثلونهم، ويحاسبون الحاكم، ويراقبون تصرفاته، ويقولون له: أحسنت أو أسأت (أي ما يسمون المجالس النيابية) هذا هو العنصر الثاني.

العنصر الثالث: أن يلزموا حاكمهم أو قائدهم بالاحتكام إلي دستور، وباعتبارهم مسلمين: يجب أن يستمد الدستور أحكامه ومواده من الشريعة السمحة، بما تمثله من سعة ومرونة، بعيدا عن التعصب المذهبي، والجهود الفقهي.

العنصر الرابع: أن يكون لهؤلاء من نواب الشعب هؤلاء من أهل الحل والعقد حق محاكمة هذا الحاكم. بحيث يقولون له: إنك أسئت. وأن يكون لعامة الناس حق النصيحة للحاكم. يكون لكل فرد الحق في أن ينصح له مشافهة، أو تحريراً؛ أو يكتب مقالة في صحيفة. هذا الأمر الرابع.

الأمر الخامس: أن يكون للشعب مُمَثَّلا في نوابه: حق عزل هذا الحاكم إذا انحرف وجار عن الصراط المستقيم، إذا انحرف انحرافا خطيرا لا يجوز له أن يبقي.

من حق الشعب أن يقول له تنح، وأن يختاروا غيره. من حقهم أن يسقطوا الحكومة التي شكلها بعد ذلك.

العنصر السادس: أن يكون للناس الحق في الحريات العامة. أن تُراعي حقوقهم الإنسانية. أن توفر لهم الحريات من: الحرية الدينية، الحرية المدنية، الحرية السياسية، الحرية الفكرية، حرية التعبير، حرية الصحافة، حرية تكوين الجمعيات وتكوين الأحزاب.

العنصر السابع: فصل السلطات بعضها عن بعض: السلطة التشريعية، السلطة القضائية، السلطة التنفيذية.

أمور سبعة، أو عناصر سبعة؛ لنبحثها في ضوء الشريعة الإسلامية.

حرية اختيار الحاكم:

أول شيء أن يختار الناس بإرادتهم الحرّة؛ إمامهم أو رئيسهم أو حاكمهم، سمه ما تسميه، المهم لا يفرض عليهم حاكم يكرهونه، الإسلام حتى في الصلاة؛ النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون)[1] — يؤمهم في مسجد، وهم حوالي عشرين، وثلاثين، أكثر، أقل، وهم كارهون له. يصلون وراءه لأنه ليس هنالك غيره، لأنه الإمام الراتب، إذا كان هذا في الإمامة الصغري، فكيف في الإمامة الكبري؟ للناس أن يختاروا حاكمهم، وأن يختاروه عن طريق البيعة، لا يلزم الناس أي حاكم إلا إذا بايعوه بيعة عامة، هذا هو الأصل، حتي لو استخلفه حاكم قبله، مثلما استخلف سيدنا أبو بكر سيدنا عمر[2]، الاستخلاف لا يعطيه حق الإمامة، الإمامة تكون ببيعة الناس، إنما صار سيدنا

---

(١) رواه الترمذي في الصلاة (٣٦٠) عن أبي أمامة، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، والطبراني في الكبير (٨ / ٢٨٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١ / ٣٥٨) وحسنه الألباني في (مشكاة المصابيح) (١١٢٢).

(٢) راجع تفاصيل استخلاف أبي بكر لعمر رضي الله عنهما في البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ١٨) وتاريخ الطبري (٤ / ٢٣٨).

عمر إماما حينما بايعه الناس عامة، الإسلام يكره أن يحكم الناس المستبدون والجبابرة والمستكبرون في الأرض (الفراعين) .

الإسلام يكره الاستبداد :

الإسلام يكره حكم الفراعنة ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ . [القصص : ٤]

يرفض الإسلام حكم الفراعنة، و(علا) يعني : طغي، إنه كان عاليا من المسرفين، فرعون الذي تألّه علي الناس، وقال لهم : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [النازعات : ٢٤]، ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾ [القصص : ٣٨]، الإسلام يرفض هذا الحكم لأنه حكم يستبد بالناس، ويجعل الناس عبيدا له، ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ [غافر : ٢٩]، هذا حكم الجبابرة، فرعون يقول هذا، بينما يقول عن موسي ﴿ **ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾ [غافر : ٢٦] موسي يظهر في الأرض الفساد، وفرعون يهدي إلي سبيل الرشاد!! هذه هي المعادلة. الإسلام يرفض حكم (الفراعين) و(الهوامين) و(القوارين)(١)، حكم فرعون وهامان وقارون والجبابرة ﴿ **وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ [إبراهيم : ١٥] .

يرفض الإسلام أن يحكم الناس فرعون متأله! إنما يحكم الناس بحاكم يختارونه، ويحبونه، ويدعون له، في الحديث الصحيح : (خير أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم) تصلون عليهم أي : تدعون لهم تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، تدعوا لهم ويدعون لكم، (وشر أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم)(٢) ليس هناك أي ثقة متبادلة بين الطرفين .

---

(١) جمع فرعون وهامان وقارون وهو علي غير القياس .
(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥) عن عوف بن مالك .

تجربة الانتخابات الحرة :

هذا أول بند في الديمقراطية : أن يختار الناس حاكمهم، الآن أصبح هناك وسيلة عصرية، اكتسبتها البشرية من تجاربها الطويلة مع المستبدين والطغاة، خلال هذا الكفاح الطويل، وصلت إلي تجربة هي : تجربة الانتخابات . أن الناس تروح تنتخب، فقط يكون عندي خيارات، يرشح عدد من الناس وأختار أحدهم، فقط يكون لكل الناس الحرية في أن يرشحوا أنفسهم، وحينئذ أقول : أختار هذا أو ذاك . حاكم واحد يختاره الناس كما هي الطريقة الاشتراكية، كما قال بعض الكتاب الذين نقدوا الاشتراكية : إن الانتخابات في البلاد الاشتراكية : سباق يعدو فيه حصان واحد، يختار فلان ولا هو . . كيف هذا؟ وأحيانا تكون لعبة مكشوفة، يتاح فيها الترشيح لشخصيات محددة، لا حرية حقيقية للترشيح، وإنما يرشح أناس لا قيمة لهم ولا وزن، كأنه لا شيء، أول بند في الديمقراطية أن يختار الناس حاكمهم ورئيسهم، حيث يحبهم ويحبونه، ويرضون عنه ويرضي عنهم .

حرية اختيار النواب :٠

الأمر الثاني : أن يختار الناس ممثليهم، كان المسلمون يُسمّوا هؤلاء الممثلين : ما نسميهم الآن : مجلس الشعب، مجلس الأمة، مجلس الشوري، مجلس النواب، كانوا يسمونهم : أهل الحل والعقد، أهل الحل والعقد قديما معروفين خصوصا في المجتمعات الصغيرة، والمجتمعات البسيطة غير المركبة وغير المعقدة، الناس يعرفون شيوخ القبائل، كبار أهل العلم، أهل المكانة والرأي والحكمة، فلان وفلان وفلان، إذا اجتمعوا علي رأي أطاعتهم الأمة كلها، كما قال سيدنا عمر لأصحاب الشوري إذا اجتمعوا، الأمة كلها تطيعهم : علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، أبو عبيدة الجراح، هؤلاء إذا اجتمعوا علي واحد الأمة كلها ستطيعهم .

ولكن في عصرنا لم يعد أهل الحل والعقد معروفين، المجتمعات اتسعت خصوصا المجتمعات الكبيرة . كيف يعرف أهل الحل والعقد في سبعين مليونا في مصر؟ أو مائة وخمسين مليونا في باكستان؟ أو في بنغلاديش، أو مائتين وعشرون

في الهند، وآسيا؟ كيف؟ لا أعرف هؤلاء. لابد أن تقسم البلاد إلي دوائر، وكل دائرة يرشح فيها أناس يعرفهم أهل الدائرة، وينتخبونهم.

الحكمة ضالة المؤمن:

هذا الانتخاب أمر عرفته البشرية ولا مانع أن نقتبس من غيرنا ونستفيد من تجارب التاريخ، (الحكمة ضالة المؤمن أنّي وجدها فهو أحق الناس بها)(١) النبي ﷺ أشار عليه سلمان الفارسي في غزوة الأحزاب وقد جاءت قريش، وغطفان، وأحابيشهما، يغزون المسلمين في عقر دارهم، فأشار عليه سلمان قبل أن يأتي هؤلاء أن يحفر خندقا حول المدينة، كنا في فارس مثل هذه المآزق نعمل خندقا يحول بين الغزاة وبين الدخول علي المدينة(٢)، فاستحسن النبي ﷺ رأي الفارسي، كانت بعض الكتب تأتي إلي الرسول، وكان ﷺ يرسل كتباً فقالوا له: بعض الناس كانوا يتخذون خاتما فلو أنك اتخذت خاتما، لو أنك أرسلت إلي ملك بدون خاتم ما يعتبر هذا الكتاب(٣)، رأوه يخطب علي جذع النخلة واتسع المسجد بالناس قالوا له: لو عملنا لك منبرا، وجاءوا له بنجار رومي صنع له منبراً من ثلاث درجات(٤)، هكذا لا مانع.

نتبع في أمور الدين ونبتدع في أمور الدنيا:

سيدنا عمر أخذ نظام الخراج من الفرس، وأخذ تدوين الدواوين من الروم، من دولة الروم البيزنطية. لا بأس به، بعض الناس يقولون: هذا إحداث في الدين!

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧) عن أبي هريرة، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩) وذكره الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦).

(٢) انظر: المغازي للواقدي (٢/٤٤٤) والطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٦٦).

(٣) إشارة إلي حديث أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ أراد أن يكتب إلي رهط، أو أناس من الأعاجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا عليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضة...» رواه البخاري في العلم (٦٥) ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٩٢).

(٤) إشارة إلى حديث أبي بن كعب، حيث قال أحد الصحابة: (هل لك أن نجعل لك شيئاً تقوم عليه يوم الجمعة...) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٤)، والحديث عند مسلم أن النبي قال لامرأة: «انظري غلامك النجار، يعمل لي أعواداً أكلم عليها الناس...» رواه مسلم في المساجد (٥٤٤) عن سهل بن سعد.

ليس هذا إحداث في الدين هذا ليس دينيا. الأمر الديني المحض هو الذي ينبغي فيه الاتباع. نحن نتبع في أمور الدين، ونبتدع في أمور الدنيا، هذه أمور الدنيا، أمور العادات. ولذلك المسلمون ابتكروا علوما لم تكن في عهد النبوة، ولا في عهد الخلافة، علم أصول الفقه، علم النحو، علم البلاغة، علوم القرآن، علوم الحديث. أشياء ما كانت في عهد النبي، ولا في عهد الراشدين، ظهر التطور، فنحن نقتبس من غيرنا نظام الانتخابات، لأنه لا يمكن الوصول لأهل الحل والعقد إلا بهذا، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

محاسبة الحاكم حق للمحكومين:

الأمر الثالث: لذلك أيها الإخوة ينبغي أن يكون للشعب عامة، ولنواب الشعب من أهل الحل والعقد خاصة محاسبة الرئيس أو الأمير أو الملك سمِّيه ما شئت، لا يهمنا التسمية. قائد السفينة، أنه لك حق النصح له، حق محاسبته، حق مراقبته، أن نقول له: أحسنت، أو نقول له: أسأت، هذا لا يجوز، وهذا أمر أقره الإسلام، سيدنا أبو بكر.أول خطبة خطبها سموها خطبة العرش. أول خطبة قال: أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، إن رأيتموني علي حق فأعينوني، وإن رأيتموني علي باطل فسددوني، القوي فيكم هو الضعيف عندي حتي آخذ الحق منه، والضعيف فيكم هو القوي عندي حتي آخذ الحق له، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم[1]، وكان عمر يقول: رحم الله امرءاً أهدي إليّ عيوب نفسي. مرحبا بالناصح أبد الدهر مرحبا بالناصح غدوا وعشيا، قال له أحد الناس: اتق الله يا ابن الخطاب. فقال له بعض أصحابه: أتقول هذا لأمير المؤمنين فقال له: دعه يقولها. لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.

لابد أن يقال للأمير اتق الله في بعض الأوقات، قال بعض الحكام: من قال لي اتق الله ضربت عنقه. هذا ليس في الإسلام من شيء، لا خير فيكم إن لم تقولوها. بل عمر بن الخطاب كان يقول: من رأي فيّ اعوجاجاً فليقوّمني. فقام

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٦/٨٢).

أحد الأعراب وقال: والله يا أمير المؤمنين لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا، فلم يقل: اقبضوا عليه، ولكن قال: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوّم اعوجاجه بحد سيفه.

الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، رؤسائهم وجماهيرهم، هذا حديث[١] رسول الله ﷺ أن تنصح للحاكم، من حق أي أحد أن يقول للحاكم، أن ينصحه، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف. فهذا حق الناس، ومن حق نواب الأمة خاصة الرئيس، يُنصح له وخصوصا إذا كانت هناك حكومة ممثلة، هو يشكل حكومة وتكون هي المسئولة، هذه الحكومة يسائلونها عن كل شيء، عن الأمور المالية، وعن الأمور الاجتماعية، عن الأمور الإدارية، هذا هو معني الشوري الحقيقية ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾، يتداولون كل الأمور ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾.

التزام الحاكم بمنهج الشرع:

الأمر الرابع: أن يلزموا هذا الحاكم أو هذا الرئيس أو هذه الحكومة، أن يلزموها باتباع منهج الشريعة الذي ارتضاه الله لعباده، وأن يصاغ هذا المنهج وأصوله في شكل دستور يفصل الحقوق والواجبات والعلاقات، الآن نجد الأمم تحتكم إلي دستور؛ لأنه لا نستطيع في كل أمر أن نرجع إلي كتب الفقه، والمذهب الحنفي يقول: كذا، والمذهب الشافعي يقول: كذا، والحنبلي يقول: كذا، ويختلف الناس، لا، فالواجب أن نحتكم إلي قواعد ترتضيها الأمة تؤخذ من الشريعة الإسلامية، تستمد من نصوص الشريعة المحكمة ومن قواعدها المرعية، ومن مقاصدها المنضبطة، علي الأقل أن لا يكون في هذا الدستور ما يخالف الشريعة، يصاغ هذا في دستور، ويحتكم إليه الناس، مأخوذ من مصادرنا الإسلامية. كما قنن المسلمون

(١) إشارة إلي حديث تميم بن أوس: «الدين النصيحة....» رواه مسلم في الإيمان (٥٥).

في أواخر عهد الدولة العثمانية القانون المدني، قننوه في أحكام مواد (مجلة الأحكام) المادة كذا، والمادة كذا، ليرجع أهل الشأن إليها، هذا لا مانع منه. المهم أن يكون عندهم منهج يلتزم به ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [الحج: ٤١].

وعلى أساس هذا الدستور المستمد من الشرع نحاسبه ونقول له: جرت أو عدلت عن هذا الدستور أو انحرفت، كما تحاسب الحكومة كذلك.

حق الأمة في إسقاط الحكومة، بل عزل الحاكم:

الأمر الخامس: أن يكون من حق الأمة ممثلة في نوابها أن تسقط الحكومة، بل أن تسقط الحاكم نفسه، أن يكون هناك حق دستوري لو انحرف، لو كفر كفرا بواحا عندنا فيه من الله برهان، لو باع نفسه للشيطان أو لأعداء الأمة، وخان دينه وأمته، لابد أن يكون من حق الأمة أن تقف موقفا وتقول: هذا خائن، والخائن لا يجوز أن يحكم الأمة. ويتم هذا بصورة سليمة.

للأسف نحن – العرب والمسلمين – ليس عندنا حتى الآن صورة سلمية نتخلص بها من الحاكم الطاغي أو الظالم أو الجائر، ليس عندنا ذلك إذا لم يحدث عليه انقلاب أو يموت، (أي عزرائيل يخلصنا منه) لا نستطيع أن نفعل شيئا! لابد أن تكون هناك وسائل سلمية لهذا الأمر.

توفير الحريات العامة للشعب:

الأمر السادس: لابد أن تتوافر الحريات العامة لهذا الشعب بحيث لا يكره على شيء لا يريده ولا يرتضاه، ولا يقاد رغم أنفه. بمعنى أن تتوافر له كل الحريات: الدينية والسياسية والتعبيرية وغيرها.

﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]،﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩].

عاش غير المسلمين في بلاد الإسلام لم يجبروا علي شيء يخالف دينهم، أبدا لهم الحرية في عباداتهم داخل كنائسهم، الاحتفال بأعيادهم، يصلون كما يشاءون، ويصومون كما يشاءون، بل لم يُحرّج عليهم فيما هو مباح لهم؛ وهو محرم في الإسلام. مثل: أكل الخنزير، وشرب الخمر. أشياء محرّمة، الخمر عندنا أم الخبائث والخنزير رجس. ومع هذا لم يُحرّج عليهم الإسلام في هذا، تركهم. أباح لهم دينهم هذا فلا نضيق عليهم فيما وسعه عليهم دينهم، أي حرية أعظم من هذه الحرية؟! الحرية الدينية[1].

الحرية الفكرية والعلمية:

الإنسان يبحث كما يشاء، ويصل إلي ما يشاء، ولا يلزم إلا بما اقتنع به عقله، ووصل إليه اجتهاده. الحرية التعبيرية كل أحد يعبر عن رأيه، بالعكس التعبير عن الرأي في الإسلام يعتبر واجبا يسميه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر واجب، الحق يمكن أن تتنازل عنه، إنما الواجب لا يمكنك أن تتنازل عنه.

الحرية السياسية:

المعارضة... قضية النقد... تكوين الجماعات والأحزاب، سيدنا علي رضي الله عنه كان يعارضه الخوارج. والخوارج بتعبير عصرنا حزب له قيادته وله أفكاره الخاصة، وله برنامجه في التغيير والإصلاح. وكان حزباً مسلحاً. وسيدنا علي حينما سمع أحدهم يقول: (لا حكم إلا الله) يعني يعترض علي سيدنا عليّ لأنه قبل التحكيم بينه وبين معاوية، فقال: كلمة حق يراد بها باطل، لأنه ليس معني (لا حكم إلا الله) أنه يعني لا يُحَكّم الناس في أمورنا، لا التحكيم

---

(١) للمزيد من معرفة حقوق غير المسلمين راجع ما كتبه فضيلة الشيخ في كتابه « غير المسلمين في المجتمع المسلم » طبعة ونشر مكتبة وهبة.

في أمورنا الحياتية جائز، القرآن ذكر التحكيم حتي في الصيد؛ إذا واحد قتل غزالة وهو محرم فكيف نقوّمها: ﴿ **يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ** ﴾ [المائدة: ٩٥]، في العلاقة بين الزوجين إذا اختلفا: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ [النساء: ٣٥] التحكيم في الأسرة يبقي في أمور الأمة – لا هذه كلمة حق يراد بها باطل – ثم قال لهم: لكم علينا ثلاث:

أولا: أن لا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها.

ثانيا: وألا نمنعكم حقكم من الغنيمة والفيء إذا كانت سيوفكم مع سيوفنا، إذا ذهبتم معنا تأخذوا حقكم.

ثالثا: وأن لا نبدأكم بقتال.

ما دمتم لا ترفعون السيف علينا فنحن لا نبدأكم بقتال.

هذا حزب سياسي، حزب معارض، ويستخدم القوة، يقول لهم: ما دمتم لا تستخدمون القوة، ولا تشهرون السلاح فلكم حق الوجود، ولا حرج عليكم، حرية سياسية. كل الحريات موفرة في الإسلام.

في عهد سيدنا عمر سمع أصوات في بعض البيوت فيه مجلس سوء، فتسور عليهم الجدار، ودخل عليهم، وضبطهم متلبسين. فقالوا: يا أمير المؤمنين. إذا كنا أخطأنا خطأ واحدا فقد أخطأت ثلاثة: أول خطأ أن الله قال: ﴿ **وَلا تَجَسَّسُوا** ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقد تجسست علينا، الخطأ الثاني أن الله قال: ﴿ **وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا** ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وأنت تسورت علينا الجار، ثالث خطأ أن الله قال: ﴿ **لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ [النور: ٢٧]. وأنت لم تستأنس، فتحدث معهم، واصطلح معهم علي ألا يمسهم بشيء، علي أن يتوبوا إلي الله، هذه هي الحريات التي كانت موجودة في الإسلام.

فصل السلطات :

الأمر السابع بعد ذلك : فصل السلطات بحيث لا تطغي سلطة علي سلطة، وتستخدم كل سلطة سيادتها، السلطة القضائية لها سيادتها، السلطة التشريعية لها سيادتها، والسلطة التنفيذية لها سيادتهتا، كثيرا ما تتدخل السلطة التنفيذية في السلطة التشريعية، أو في السلطة القضائية. لا. في الإسلام - صحيح - الإمام هو الذي يولي القاضي. ولكن بعد أن يوله يصبح مستقلا تماما، حتي يمكنه أن يحكم علي الخليفة الأعظم.

وقد حدث في التاريخ الإسلامي قضاة حكموا علي الخلفاء. فهكذا حتي أن أحد القضاة - شريح - حكم علي سيدنا علي وقد احتكم هو ونصراني إليه، فحكم للنصراني علي أمير المؤمنين. وهذا الرجل حينما رأي ذلك بعد ما كان قد أخذ درع أمير المؤمنين وادعي أنه له ، وهو لسيدنا علي، درع سقطت منه، بعد هذا رجع وقال: قفوا! أما إني أشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدنيني إلي قاضيه، فيحكم القاضي للنصراني علي أمير المؤمنين. هذه أحكام أنبياء، أما إني أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فالدرع درعك يا أمير المؤمنين. - السلطان نفسه -.

هذه بضاعتنا ردت إلينا :

هذا ما تدعو إليه الديمقراطية، هذه هي شريعتنا، ما يزعم أنه من الديمقراطية هو من الشريعة، قالوا: الديمقراطية حكم الشعب، ونحن نريد حكم الله، من قال: إن حكم الشعب يقابله حكم الله، لا حكم الشعب يقابله حكم الفرد المطلق، حكم المستبدين، حكم الطغاة، حكم نمرود الذي قال حينما قال له إبراهيم ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وجاء باثنين حكم عليهما بالإعدام، أما أحدهما فقطع رأسه. قال: أمته. والثاني: قال: عفوت عنه، وهذا أحييته، أنا أُحيي وأُميت أيضا. الإسلام يرفض هؤلاء الطغاة،

هذا هو الحكم الذي يرفض، حكم الفرد المطلق حكم الطغاة المستبدين حكم (الفراعنة) (النماردة) هذا هو الذي يرفضه الإسلام .

ما سند السلطة السياسية؟ سندها الشعب، إنما السلطة التشريعية سندها الشريعة، مرجعها الشريعة الدولة الإسلامية دولة مدنية مرجعها الشريعة، ليست دولة دينية بالمعنى الغربي، لا هي دولة مدنية يحكمها المدنيون الملتزمون بالإسلام، لا يحكمها كهنة . ليس في الإسلام كهنوت رجال أقوياء .

لا يولّي إلا الكفء :

كان سيدنا أبو هريرة من أحفظ الصحابة للحديث، ومع هذا لم يعط ولاية ولا كذا . . أعطيت الولاية لعمرو بن العاص لأنه كفء، الآن الولاية يعطاها أكفؤها يعطي الأكفاء ولاية الناس والإمارة عليهم .

الابتداع مرفوض في أمور الدين فقط :

هذا هو الإسلام : حكم الشعب، ويقولون : إن هذا إحداث في الدين . ليس هذا إحداثا في الدين . هذا من أمور العادات، أمور العادات يستحدث فيها، « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » (١) ولذلك روي التاريخ عن سيدنا عمر عدة أشيا ابتكرها سيدنا عمر . يسميها المؤرخون الأوليات . أول من فعل كذا عمر . أول من دون الدواوين، أول من مصر الأمصار، أول من وضع التاريخ الهجري، أول من اتخذ دارا للسجن . مجموعة أوليات أشياء ابتكرها .

الجمود في أمور الدنيا سبب تأخرنا :

من قال : إن الابتداع في أمور الدنيا والابتكار فيها يعتبر بدعة في الدين؟! هذا فهم خطأ وإلا لوقفنا . بالعكس المسلمون إنما صنعوا الحضارة يوم اتبعوا في

---

(١) إشارة إلي حديث جرير بن عبد الله، قال : قال رسول الله ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء . . . . » رواه مسلم في العلم (١٠١٧) .

أمور الدين، وابتدعوا في أمور الدنيا، وإنما دار عليهم الزمن وأصبحوا في المخلفين، وفي آخر القافلة، وذيل القافلة، حينما جمّدوا أمور الدنيا وابتدعوا في أمور الدين.

نحن لا يصلح لنا إلا ما يُسمّي الديمقراطية. لا نريد أن نسميها بهذا الاسم، ولكن نسميها الشوري. حياة الشوري، حياة البيعة، حياة الحريات العامة، حياة الالتزام بالدساتير التي تقيد من تصرفات السلاطين المستبدين، لا بد أن نحيي هذه الحياة ولا نعيش متخلفين ويقال: الإسلام هو وحده الذي يقرّ الاستبداد، والذي يقرّ الطغيان من الحكام، والذي لا يستطيع الشعب فيه أن يقول: لا، والله لو كنا مسلمين حقا لاستطعنا أن نقول: لا بملء فينا، هذا ما يريده الإسلام منا، يريد أن نحيا أحرارا في ديارنا، وأن نحكم بحكام منا ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩]. منكم. ليسوا مفروضين عليكم، هم منكم وأنتم منهم، وهذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه الإسلام. هذه حياة الشوري.

الديمقراطية ليست هي مجرد الشوري؛ لا. هي الشوري والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة حكم الفراعنة، ،حكم الظلمة والمستبدين، مجموع هذه كلها هي التي تقر نظام الحكم في الإسلام.

نسأل الله تبارك وتعالي: أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، إنه سميع قريب. أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالي لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم. وادعوه يستجب لكم.

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾. وأشهد ألا إله إلا الله وحده ولا شريك له ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي**

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١]. وأشهد أن سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا محمدا عبد الله ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير. صلوات الله وسلامه عليه، وعلي آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدي بسنته، وسار علي دربه إلي يوم الدين.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

نرفض الديمقراطيات الزائفة:

ما أحوجنا – نحن العرب والمسلمين – إلي ديمقراطية حقيقية، ديمقراطية في مجتمع مسلم، والديمقراطية في المجتمع المسلم يعني: أنها تكون ملتزمة بالشريعة الإسلامية، نحن لا نريد ديمقراطية سائبة تحلل ما تشاء.

بعض الناس قالوا: الديمقراطية يمكن أن تلغي الديمقراطية!! يأتي نظام معين: ويتفق الحاكم معهم أن نلغي الديمقراطية. الأغلبية المطلقة ثلثين الأعضاء أو كذا ممكن بالإجماع. حتي يقولون: ليس هنالك ديمقراطية، قال بعض حكام العرب في يوم من الأيام: إن للديمقراطية أنيابا تكون أحيانا أشرس من الديكتاتورية، حينما توجه الديمقراطية لخدمة حاكم ما، ولخدمة نظام ما تصبح أشرس من الديكتاورية، يستطيع الحاكم أن يقنن الظلم بواسطة أغلبية يملكها، بطريقة معينة يقنن المظالم. يصدر فيها أحكاما تلزم الناس كما في كثير من البلاد.

عن طريق هذه الديمقراطيات الزائفة تصنع ديكتاتورية تحكم الناس. تهتز الديمقراطية، أخطر شيء علي الشعوب هو الديمقراطية الزائفة، استفت الناس استفتاء حراً، الحقيقة: أن الناس يئسوا من هذه الأنظمة، ويئسوا من هذه الاستفتاءات، ويئسوا من هذه الانتخابات، ويقول لك: الذي يريدونه يعملوه. لماذا أتعب نفسي؟! فتكون النتيجة تزوير، وما عرفناه دائما الأربع تسعات ٩٩٩٩، لو واحد تواضع (خليها) ٩٧.

الديمقراطية التي تأتي بالإسلاميين مرفوضة ! !

هذه هي الديمقراطيات الزائفة، التي يراد أن تروج في بلادنا. يقولون : إن أمريكا تريد تغيير بلادنا! وتحويلها إلي بلاد ديمقراطية! هل هذا صحيح؟! هل تريد ديمقراطية حقيقية؟ هي تريد ذلك بشر واحد : ألا تأتي هذه الديمقراطية بمن يسمونهم الإسلاميين، حينما جاءت ديمقراطية في وقت ما في الجزائر بالإسلاميين رفضوهم، لا هؤلاء متعصبين وسيلغون الديمقراطية، طيب جربوهم كما تجربون غيرهم، وقفوا ضد هؤلاء، أحد حكام العرب في لقاءاته مع الأمريكان قالوا له : ارفعوا القيود، ووفروا الحريات للناس، وحقوق الإنسان، وهذه الأشياء، قال لهم : أتدرون ما معني ذلك قال : معناها أن يأتي الإسلاميون إلي الحكم، إن كنتم تريدون الإسلاميين يحكموا نرفع القيود، ونوفر الحريات، ونراعي حقوق الإنسان، ونعمل كل شئ، حتي تقر أعينكم بحكم الإسلاميين، نحن نريد ديمقراطية حقيقية.

الإنسان المواطن يستطيع أن يقول : نعم، ويقول : لا، وصناديق الانتخابات الحرة البلورية، هذه يكون عليها إشراف قضائي حقيقي، ويتحمس الناس للذهاب إلي هذه الصناديق، ويعطوه رأيهم بكل حرية. نريد هذا في بعض البلاد العربية، نريد في بعض البلاد العربية تداول السلطة، بحثنا عن رئيس سابق في بعض البلاد العربية فلم نجد! في أمريكا في وقت من الأوقات كان فيه خمسة رؤساء في حفل من الحفلات، خمسة رؤساء جمهوريات سابقين موجودين كلهم. بوش الأب، كلنتون، وريجان، وكارتر، وفورد، نحن نبحث في حفل من الحفلات يحضر مع الرئيس الحالي لا يوجد، في السودان : عبد الرحمن سوار الذهب الرجل من زهده عمل شيئا لم يعمله أحد من الدول العربية؛ وتنازل عن الحكم مختارا حرا . . . فيه لبنان . . إنما بعض الدول العربية لا بد إما أن يأتي (عزرائيل) ويخلصك من الرئيس أو يحدث انقلاب عليه، لا يوجد أحد انتهت

مدته جلس أربع سنين أو ثمان أو حتي خمس أو ... وبعد ذلك يقول: أنا اكتفيت أدع المجال لغيري، لا (كابس) علي نفس الأمة - لا يمكن -.

من بدع الديمقراطية عندنا :

يا ليتهم وقفوا عند هذا الحد! إنهم لم يكتفوا بهذا: ابتدعوا بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. ابتدعوا بدعة توريث الحكم لأبنائهم. رأينا الملكيات الدستورية فيها التوريث، ورضي الناس بهذا، إنما هذا نظام جمهوري. هل هناك جمهورية وراثية في العالم؟ لا يوجد إلا في بلادنا نحن العرب، نحن نورث الملك لأبنائنا ولأحفادنا. لكن بطريقة رسمية لطيفة ظريفة. نغير الدساتير ونغير الأشياء ليرث الأبناء الآباء، والأحفاد الأجداد، هذه أمتنا.

هذه الديمقراطية التي يقولون عنها، والتي ترضي عنها أمريكا، وتسكت عنها، وتغمض العين ولا تقول شيئا. (شيلني وأنا أشيلك) اسكت عني وأنا أسكت عنك.

هل هذه الديمقراطية؟ ليست هذه هي الديمقراطية التي ننشدها لبلادنا ولشعوبنا. نحن نريد ديمقراطية حقيقية، سليمة، صحيحة، يختار الناس فيها بإرادتهم الحرة. نريد أن نختار بإرادتنا الحرة. هذا ما نريده لشعوبنا.

نسأل الله عز وجل أن يبصرنا بالحقائق، وأن يفقهنا في الدين، وأن يبصرنا بأمور الدنيا، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، اللهم اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم طهر أقوالنا من اللغو، وأعمالنا من العبث، وأنفسنا من الضعف، وقلوبنا من الغش، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة وعباداتنا من الرياء، وحياتنا من التناقض، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا وانصرنا علي القوم الكافرين، ربنا اغفر لنا

ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم. اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، واجعل هذا البلد آمنا مطمئنا رخاء وسائر بلاد المسلمين، عباد الله يقول الله تبارك وتعالي: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَي النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾

[الأحزاب: ٥٦]

اللهم صلي وسلم علي عبدك ورسولك محمد، وعلي آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين، وأقم الصلاة ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

الفهـــــرس

١ - رسالتك أيها المسلم

(١٩ - ٣٦)

٢ - حاجتنا إلى رجال

(٣٧ - ٤٦)

٣ - الصيام

(٤٧ - ٥٨)

٤ - كيف نصلح عيوب أنفسنا

(٥٩ - ٦٥)

٥ - من ثمرات رمضان : التوبة

(٦٦ - ٧٥)

٦ - نساء اليوم

(٧٦ - ٨٥)

٧ - هذا ماضينا فأين حاضرنا؟؟!!

(٨٦ - ٩٥)

٨ - القرآن الكريم منهاج للفرد

(٩٧ - ١٠٩)

٩ - القرآن الكريم دستور للدولة

(١١١ - ١٢٠)

١٠ - المحنة سنة الله فى أصحاب الدعوات

(١٢٣ - ١٢٩)

١١ - الناس أصناف أربعة

(١٣٣ - ١٤١)

١٢ - جهاد الجزائر

(١٤٤ - ١٤٨)

١٣ - لماذا نرفض العلمانية

(١٥٢ - ١٦٩)

١٤ - معركة الإسلام والعلمانية

(١٧٣ - ١٨٩)

١٥ - الشيخ محمد الغزالى عالم مجاهد مجدد

(١٩٣ - ٢٠٣)

١٦ - استنكار رواية (وليمة لأعشاب البحر)

(٢٠٥ - ٢١٨)

١٧ – الأمة الإسلامية : حقيقة لا وهم
(٢٢٣ – ٢٣٥)

١٨ – بواعث التوبة
(٢٣٧ – ٢٥٣)

١٩ - تفجيرات مسرح قطر عمل مستنكر
(٢٥٦ - ٢٦٦)

٢٠ - الديمقراطية
(٢٦٩ - ٢٨١)

* * *

رقم الإيداع : ٢٣٤٥ / ٢٠٠٦ م
الترقيم الدولى I . S . B . N .
977 – 225 – 216 – 3

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت ٤٨٢٧٨٥١ - ٤٨٢٢٠٥٩ / فاكس ٤٨٤٥١٠١
E-mail : almadanipress@yahoo.com